أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

مذكرات خادم

طيبة أحمد الإبراهيم

١ ــ مذكرات خادم .. (الجزء الأول)

وأنا أقوم بمساعدة صديقى فى زحزحة دولاب الخادم فى غرفة الأخير الخاصة ، وقع نظرى على مجموعة من الأوراق المتربة فى أعلاه .

قلت لصديقى : ما هذه الأوراق ؟ فقال بعدم مبالاة : إنها تخص نفس الخادم الذى سيصل غدا مع زوجته .. ثم أعاد النظر إليها باهتمام ، وقلبها بين يديه .. كانت الأوراق مكتوبة بخط اليد وباللغة الإنجليزية .. وبما أن صديقى هذا لا يعرف من هذه اللغة سوى بعض المفردات التى لا تغنى شيئا . وبما أنى مدرس لهذه اللغة ، فقد دفع بها إلىّ قائلا ، هل لك بقراءة هذه الأوراق وترجمتها لى ؟ كان بى بعض الفضول لمعرفة ما كتب ، فتناولتها منه وأنا أدمدم بالموافقة .

وفى مساء ذلك اليوم بسطت الأوراق .. إنها على شكل مذكرات ، ولكنها غير متسلسلة التواريخ ، لعل بعضها فقد أو لم يكتب أصلاً .. ولكن على أى حال يمكن أن يفهم منها مجمل الأحداث .. قرأت :

٣ | ٦ | ١٩٧٧

وصلنى منذ يومين إذن صادر من حكومة ذلك البلد الغنى يسمح لى بدخول أرض الذهب الأسود .. لقد حلمت بذلك كثيرًا ، ورغم الفراق الوشيك لزوجتى وأطفالى إلا أننى أعتبر هذا اليوم السعيد أشبه بيوم العيد لنا كلنا ، ورغم أن زوجتى كانت تذرف الدمع ساخنا فى الليلة الماضية حزنا لفراقى ، إلا أنى فى صبيحة هذا اليوم سمعتها تكلم جارتنا من نافذة المطبخ بافتخار من عمل شيئًا فريدًا نادرًا يعجز عنه غيره ، قالت :

— بعد يومين أو ثلاثة سيسافر زوجى إلى دولة (تيوك) .. لقد جاءته الموافقة على دخوله ذلك البلد الغنى أخيرًا .

وبعد ضحكة ذات قرقرة سعيدة أردفت :

— إننا محزونون جدًا لفراقه ، ولكن ماذا نحن فاعلون ؟ فالظروف تتطلب بعض التضحية .

وبما أن كلام زوجتى لا ينطبق على واقع حالنا ، فقد ردت جارتنا بفطنة وخبث :

— ليتنا كلنا نحزن لهذا السبب فقط .

ضحكت الإثنتان معًا ، قبل أن أسمع صوت النافذة وهى توصد .

فكرت وأنا فى طريقى إلى المطبخ .. ترى هل نحن نمر بحدث سعيد حقًا ؟ هل فراق الزوجة والأولاد من أجل بعض المال يستحق كل هذه الفرحة ؟ أم أن الذى أحدث هذه الفرحة صعوبة الحصول على ذلك الإذن لدخول أرض الذهب .. حقًا إن كل شىء نسبى فى هذا العالم فما يستوجب حزنًا فى موقف مَا ، قد يستوجب فرحة فى موقف آخر .

٦ / ٦ / ١٩٧٧

هأنذا على سطح المركب ، يحدونى أمل كبير فى الكسب ويقلقنى مصير أطفالى فيما لو حدث لى ما يعوقنى عن إمدادهم بما يحتاجون إليه .. لقد تركتهم فى رعاية والدتهم التى لا تتكسب شيئًا ، ليس ذلك فقط ، بل تركت لها عبئًا آخر ، تركت لها أمى وأبى العجوزين ، فمن يا ترى يعتنى بأمرهم لو قدر وحدث لى شىء مّا . حقًا إننى استدنت مبلغا من المال يوازى معدل ما نصرفه لمدة ثلاثة شهور ، وأوصيتها بالحرص عليه حتى أتمكن من إرسال النقود لها . ولكن لو حدث ولم تصلها نقود منى ، أو

تأخرت فى الوصول إليها ماذا ستفعل بذلك الجيش الصغير المكون من ستة أفواه مع العجوزين . أخى (زبير) السكير العربيد ، لن يمد لها يد المساعدة ، لأنه عاجز عن مساعدة نفسه ، بل أخشى ما أخشاه أن يستولى على ما عندها فى غفلة منها .. آه ، لكم أشعر بالقلق يتزايد فى أعماقى .

نسيت فى غمرة قلقى ما يحتمل أن يواجهنى فى غربتى من مشاكل .. ترى ماذا سيكون شكل مخدومى ، وعلى أى طباع سأواجهه ، مهما يكن فما علىّ إلا الصبر ، العقد مدته سنتان ونصف السنة ، سأروض نفسى على تجرع المر والحنظل حتى تنتهى المدة على خير .

المركب يغص بالمسافرين من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، ومن مختلف المدن والقرى عندنا ، البعض منهم عائد إلى (تيوك) بعد زيارة قصيرة إلى أهله .. لو كنت مكان أى منهم لن أغادر وطنى مرة أخرى ، يكفينى جدًا عام من الغربة ، مهما كان الكسب مغريًا ، والبعض الآخر يسافر أول مرة مثلى تمامًا ، لقد سألت يوم أمس أحد العائدين ، عن طبيعة العمل هناك . فلم يجبنى عن تساؤلى مباشرة وإنما قال :

— كل شىء هناك يقطر ذهبًا .

ياله من تعبير براق ، هل أتى به من واقع الحال أم مبالغًا فيه ؟ عاد يقول :

— إنه لن يعود إلى مخدوميه ، رغم أنه ما زال تحت كفالتهم . خجلت أن أسأله عن معنى كفالتهم ، وإنما سألته فقط لماذا لا يريد العودة لهم فهل هم قساة يسيئون معاملته ؟ قال لا ، إنهم أناس طيبون جدًا .. معظم أهل البلد هناك طيبون جدًا ، حتى أنه لكثرة

طيبتهم تخالهم من السذج . ولكننى لا أرغب فى العودة إليهم ، لأننى أريد أن أعمل وأنا حر ، أتحكم فى أجرى ، وطالما أن جواز سفرى معى فلست أخشى شيئا .

لم أفهم معنى كلامه فهما واضحا ، ولكننى فكرت لماذا لا أعمل مثله فأرفع أجرى كما أريد ، ورغم أن ضميرى وخزنى لتسرعى بنقض العقد إلا أننى بررت الأمر لنفسى بأننى أريد أن أكسب سريعا وأعود إلى أطفالى سريعا ، لذا سألته :

ـ إن جواز سفرى معى ، فهل يمكننى أن أفعل فعلك ؟

فضحك منى قائلا :

ـ إنك لم تحصل على الكفالة بعد .. وكيف يتسنى لك الحصول عليها بشكل حر ، وأنت لا تعرف أحدا من أهل البلد ؟

ـ بشكل حر ؟

ـ نعم بشكل حر ... تدفع مبلغا من المال ، مقداره مائة دينار ، أو أكثر حسب جشع صاحب الكفالة ، وبعد أن تحصل على الكفالة ، تعمل بالأجر الذى تريد .. ولكن يحتاج إلى مبلغ من المال أولا .

شعرت بالحسرة لأننى لا أملك المال الذى يجعلنى حرًا ، ثم سخرت من نفسى ، لو كنت أملك هذا المال فلماذا أنا هنا ؟ وفى نفس الوقت ارتاح ضميرى لأننى لن أنكث عقدا أبرمته ، فخطر على بالى توبة ابن آوى ، عندما لم يجد دجاجة يسرقها فقرر التوبة عن السرقة ، وضحكت ، فسألنى لماذا أضحك .. ولكنى عدت لسؤاله .

ـ وأنت هل تملك هذا المبلغ من المال لشراء الكفالة ؟

فضحك كما لو كان يلفت نظرى لبراعته .

ـ لا أستطيع فى الحقيقة دفع ثمن الكفالة .. ولكننى عملت لدى

مخدومى عاما كاملا ، ثم ادعيت أن زوجتى مريضة جدا ، وأنه يتطلب منى أن أزورها ولو زيارة خاطفة ، وها أنت ترى ، فقد زرت أهلى ، وعدت ومعى كفالة مدتها أحد عشر شهرا ، أعمل خلالها ما أريد وبأى أجر أحصل عليه ، وإنما المهم أن يكون أغلى من الأجر لدى مخدومى السابق .

خجلت أن أسأله كم أجرك الحالى .. حتما سيكون مثل أجرى ، على أقل تقدير خمسة وعشرون دينارا فى الشهر ، إنه مبلغ ضخم بالنسبة إلى المرتبات لدينا .. ولكن ماذا يمنع أن يحصل على أجر أعلى منه إن كان فى إمكانه ذلك . ياله من رجل بارع .

ولعله شعر بإعجابى ، فقد أردف قائلاً بتفاخر :

ـ حتى تكاليف رحلتى هذه لم أدفع منها فلسا واحدا ، لقد دفعها لى " مخدومى " .

بهرنى ذلك فقلت ، كيف ؟.

ـ من تقاليد الخدمة فى هذا البلد أن تدفع العائلة إلى خادمها أجرة مجيئه وذهابه . ومع أن سيدى دفع لى أجرة مجيئى وسيدفع لى أجرة ذهابى فيما لو أتممت المدة المتفق عليها لخدمتى لديهم ، إلا أنه إنسان طيب ، فقد قبل أن يدفع مصاريف رحلتى هذه على أمل أن أعود إليه وأنا أشد ما أكون امتنانا له .. على كل النقود لكثرتها لا قيمة لها لديهم .

لشد ما أدهشنى بأقواله ، لقد جعلت الأمل يتراقص فى قلبى ، ولكن بينى وبين نفسى شعرت بدناءة ما فعل إلا أننى لم أفصح عن رأيى خشية ومجاملة ولأن بعض الناس يعتبرون هذا النوع من الأعمال الدنيئة مجرد مهارة فى سبيل الكسب السريع .. ضاق صدرى به ، ولكنى مع ذلك بقيت إلى جانبه ، لقد أخذ يلفت نظرى إلى أشياء تحدث على السفينة نفسها ..

لكم عجبت ، مما رأيت ، ومما سمعت .

ضحك صاحبى وهو ينظر إلى فتاة فى ربيع العمر ، على جانب من الجمال ، تخطر بثوب لامع مما يلبس فى الأعياد عندنا ، ضيق وملفوف يكاد ينطق بمفاتن جسدها .. أزعجتنى ضحكته التى لم أر لها مبررا واضحا ، ولكنه بعد قليل أوضح فقال :

ــ أعرف مسبقا مصير هذه الفتاة .

فقلت بضيق ، وما مصيرها ؟

فأخذ يقص على مشاكل الخدم هناك ، وما يجرى فى الشارع ، ومن وراء الكواليس ، حكايات اقشعر لها بدنى ، وأقسمت منذ تلك اللحظة أن لا أحضر زوجتى أو أيا من أقاربى للخدمة أبدا . رغم أن أحدا لم يطلب منى ذلك .

ولعل صاحبى لم يتعد الحقيقة فيما قاله ، إلا أننى ازددت ضيقا به ، فتخلصت منه لأحدث مسافرا آخر ، تغرب لأول مرة مثلى ، وليس لديه أية فكرة عن أى شىء مما تحدث به ذلك الثعلبى الطباع .

١٨ / ٦ / ١٩٧٧

وصلت السفينة إلى المرفأ فى الثانية عشرة ظهرا تقريبا ، وقبل أن نصل بمسافة قليلة شعرت بلفحة الهواء الحار ، إنه نسيم البر ، ياله من جو مشبع بالرطوبة والحرارة ! إنه لفح الهجير .

وعلى المرفأ وجدت قريبى ينتظرنى ، إنه الوساطة الوحيدة التى عن طريقها جئت (تيوك) .. ولكن ياله من وساطة غالية الثمن .. سأسدد من مرتبى ولمدة ستة شهور مقدار عشرة دنانير كل شهر . لا بأس كل شىء بثمن .

إن قريبى هذا له عشرة أعوام فى هذا البلد .. لعله يدبر أمر

المبالغ التى يدفعها لكفالته من هذه الطريقة .. تعال .. تعال ، وقادنى إلى منزله .

فى الطريق إلى المنزل تلفت فوجدت أن الأرض منبسطة جدا .. جرداء جدا ، إلا من بعض شجيرات .. الشمس ساطعة بشكل قوى غريب ، ترسل أشعة من لواظ . ليس هناك إنسان سائر على قدميه سوانا .. سيارات تمر بنا بسرعة .. وقفنا قرب محطة الباص .. رأيت بعض الأشخاص واقفين تحت المظلة ، لم أرهم من بعيد لشدة وهج الشمس .. أخذ العرق يتصبب منى .. حقا إن بلادى حارة ، ولكن ليس إلى هذا الحد ، على الأقل يخالط هواءها بعض الأبخرة ، أما هنا فكل شىء جاف يكاد يتكسر .. نظرت إلى قريبى ، لم أر أى ضيق باد عليه ، خجلت من التصريح بضيقى ، فقلت فى نفسى :

كيف يتسنى لى العيش فى مثل هذا الجو كل هذه المدة .. هذه أول المضايقات ولعلها أخفها ؟

كأن قريبى شعر بما يجول بخاطرى ، أو لعله أراد أن يتكلم لمجرد الكلام فقط فقد قال :

ــ الحر شديد .. أليس كذلك ؟

فقلت بسرعة :

ــ لا يطاق ، وهج هذه الشمس فوق الاحتمال .

فضحك مكشرا عن أسنان بيضاء وسط بشرته الداكنة .. وأشار إلى جيبه قاصدا محفظته :

ــ ستجد عاملا مخففا .. تنسى عنده أى شىء .

عجبت ولم أرد .. الكل يتكلم بمثل هذا النموذج من الكلام .

٢٣ / ٦ / ١٩٧٧

هذا اليوم السادس لبقائى فى منزل قريبى ... لست أدرى لماذا

لا يصحبنى إلى منزل مخدومى ؟ إن كل يوم يمر يقلص من أجرى الشهرى ، فلما ذكرته بذلك قال انتظر قليلا ، علنا نجد لك كفيلا آخر ، وبناء على ما سمعته من رفيق السفينة فقد قلت له :

ــ ولكن ليس لدى نقود لدفع الثمن .

أجاب : سأتدبر الأمر .

فهمت .. أنه سيدفع من جيبه الخاص وبعدها يحصّل منى الملغ مضاعفا .. أحسست بالضيق .. لا أعرف منزل مخدومى حتى العنوان معه .. إنه مخطط لكل شىء .

فى هذا اليوم فقط عرفت طبيعة عمل قريبى ، إن له عدة أعمال لا عمل واحد .. إن النقود تجرى بين أنامله كالسد المنهار .. محفظته دائما عامرة بأوراق خضراء من فئة العشرة دنانير .. يسيل لها لعابي كلما فتحها .. إنه يفتحها أمامى متعمدا كأنه يعرض على شيئا .

أخيرا عرفت طبيعة عمله .. إنه يورد الخدم لفئات مختلفة من الناس ، بعضهم من ذوى النفوذ ، والبعض ممن لا نفوذ له فهو عندما يورد للفئة الأولى يكون ملتزما جدا لا يتلاعب بذيله ، ولا حتى بطرف إصبعه ، ولكن الويل للفئة الأخرى .. فإنه يتسلم الإذن بدخول البلاد من صاحب الحاجة على أمل أن يأتى لهم بخادم أو خادمة ، ولكنه يوظف الوافد لحسابه .. ثم يعتذر لهذا البعض بأعذار شتى .. بأن ذلك الشخص رفض المجىء ، أو أنه مرض فجأة وعاقه المرض عن المجىء .. أو غير ذلك من المعاذير ويطلب إذنا آخر لإحضار غيره ، وهكذا فقد تصل له ثلاثة أذونات من الفرد ، قبل أن يحصل على الخادم .. ولو كان الأمر عند هذا الحد لهان الأمر لدى .

انه يستغل زوجته وابنته وكل من تقع عليها عيناه من فتيات بلدته من الحسان ممن يرضين بالعمل معه .. آه لكم أمقت هذا القريب .. اذن زميلى على السفينة لم يتعد الحقيقة ..

٢٤ / ٦ / ١٩٧٧

جابهت قريبى بقوة اليوم ، وطلبت منه إما أن يبعث بى إلى مخدومى أو يرحلنى إلى بلدى ، وقلت له إنه لا يستطيع أن يستغلنى أكثر من الاتفاق الذى بيننا سابقا .

حاول أن يغرينى بشتى المغريات .. اشترطت عليه أن يدفع شهور البطالة التى قد أتعرض لها وهو فى سبيل البحث عمن يكفلنى .. وإن لم يفعل هددت بأن أبلغ عنه السلطة .. رضخ إلى تهديدى أخيرا .. أو أنه لم يجد بالسرعة المطلوبة من يبيع كفالته له .

فى مساء هذا اليوم وصلت إلى منزل مخدومى وقلبى يخفق بشدة .. كنت أخشى المجهول الذى سوف أعيشه فرضا وليس اختيارا .

فتحت لنا الباب فتاة لم أستطع تحديد عمرها لأول وهلة ، لعلها فى العشرين من العمر ، متوسطة الجمال ، تشوبها سمرة كسمرة بنات بلدى شعرها مسترسل إلى منتصف ظهرها ، تمسكه عن وجهها بطوق من البلاستيك من أعلى الجبهة .

استقبلتنى فرحة بى كأنى رحمة نزلت من السماء .

هذه الابتسامة الرقيقة أزالت نصف وحشتى .. تذكرت قول زميلى على السفينة عن طيبة أهل البلد .. وفى الطريق إلى الغرفة المعدة لى سألتنى : أتعرف الإنجليزية ؟ فقلت لها قليلا .

فضحكت مجددا ، وقالت أنا قليلا أيضا .

أشارت إلى غرفة خارج المبنى ، وقالت هذه غرفتك ، استرح بها الآن وتركتنى عند بابها وانصرفت .

شعرت براحة كبيرة للمعاملة الرقيقة من الفتاة .. ترى هل كل أهل المنزل بمثل هذه الرقة ؟

دخلت الغرفة .. يالها من غرفة ضيقة ، مساحتها لا تتجاوز الثلاثة أمتار فى مترين ، ليس لها نافذة ، ولكنها تحتوى على كل ما أحتاجه : سرير ، دولاب صغير ، جهاز تليفزيون ، جهاز آخر معلق فى الحائط ، لست أعرف ما هو .

حاولت أن أرتب متاعى القليل .

سمعت طرقا على الباب .. إنها نفس الفتاة ، قالت مشيرة إلى الجهاز الموجود فى الحائط .

ـ نسيت أن أقول لك أن تفتحه .

وعندما رأت حيرتى دخلت وفتحته ، فصدر منه دوى كبير ، يصاحبه هواء منعش كنسيم الصباح فى بلدى .. عرفت أنه جهاز للتكييف ، وعادت مرة أخرى لتقدم لى عشائى ، وتشير إلى باب أمام غرفتى قائلة لى إنه الحمام .

شعرت بارتياح عميق .. لاشك أننى سأنام نوما هادئا .

٢٥ / ٦ / ١٩٧٧

نهضت مبكرا .. وبعد أن اغتسلت جلست متحفزا ، أنتظر من يدلنى على عملى .. ولم ألبث أن رأيت أمامى نفس فتاة الأمس .. هل هى مخدومتى ؟ ألا يوجد أحد غيرها فى المنزل ؟

قادتنى إلى المطبخ القريب من غرفتى ، وشرحت لى بإنجليزية ركيكة جدا مع بعض الإشارات طريقة عمل الفطور .. ومن عدد الأقداح وطريقة صفهم عرفت أن فى المنزل ثلاثة أشخاص .. لعلهم : هى وزوجها وابنها ، أمها وأباها .. ماذا يهمنى ؟ يكفينى أنها التى ستدلنى على عملى بمثل هذه الابتسامة الحنون .

بعد أن أنهيت فطورى استمعت لإرشاداتها عن كيفية إعداد الغداء ، أما عن كيفية تنظيف المنزل فقد قالت إنها سوف تدربنى عليه عند عودتها ظهرا (يبدو أنها تعمل) ، قالت لى أيضا يجب أن أقوم بتنظيف السيارة كل يوم قبل إعداد الفطور ، ثم خرجت على عجل .. ذهبت إلى غرفة الطعام .. قدح واحد فقط مستعمل .. إذن لم الاثنان الباقيان ؟ تلفت فى أنحاء المنزل ، ألقى نظرة استطلاعية ، مددت رأسى إلى إحدى الغرف ، رأيت ثلاثة أسرة ، أحدها خال بعد استعمال .. وفى الثانى طفلة فى السادسة من العمر ، وفى الثالث طفل لم أستطع تقدير عمره ، قد يكون فى العاشرة أو الحادية عشرة .. إذن فهما أخواها . لماذا لم يذهبا إلى المدرسة ؟.. تذكرت إننا فى الشهر السادس .. إذن فهما فى إجازة .

عدت إلى المطبخ فى هدوء ، وعصرت ذاكرتى كى أعمل الطبخة كما وصفتها لى .

لم يكن الغداء جيدا ، استنتجت ذلك من كمية الطعام الذى تناولوه .. إنها لم تشر إلى ذلك ، وإنما قالت فقط إنها سوف تعلمنى كيف أطبخ جيدا .. خجلت .. وقررت أن أعمل جهدى كى أرضيها .. يالها من فتاة رقيقة .

٢٦ / ٦ / ١٩٧٧

لم تذهب إلى العمل اليوم ، بقيت فى ثياب المنزل ، أخذت تعلمنى كيف أرتب المنزل وأنظفه ، إن كل شىء مريح عندما توجهنى هى .. لقد ضايقنى قليلا تنظيف الحمامات .. لماذا يكون هذا جزءا من عملى ؟.. لا يهم .. سأعتاد على ذلك كما قال لى زميلى على السفينة .

وفوجئت أشد مفاجأة ظهر اليوم عندما ناداها الطفل بلفظ ماما ، يسألها عن شيء ما .. كدت أحتج على ذلك لولا أنى أمسكت نفسى فى آخر لحظة .. أمه .. نظرت إليها مرة أخرى على هذا الضوء الجديد مقدرا عمرها ، إنها نضرة ، ريانة ، ولكنها مع ذلك قد تكون فى الثلاثين من العمر .. إذن أين زوجها ؟ لعله متوفى .. لماذا هذه الأفكار السوداء الشريرة .. لعله مسافر لا يلبث أن يعود .. أحسست بخيبة أمل ، لا أدرى لماذا ، وضاق صدرى طيلة النهار .

تذكرت حينئذ فقط زوجتى منذ جئت فأنبنى ضميرى .

٢٧ / ٦ / ١٩٧٧

دخلت إلى المطبخ صباح هذا اليوم ، وأنا أعد الفطور ، بادرتها بالتحية ، فردت مبتسمة ، ثم أخذت توجهنى إلى عمل اليوم ، ولم تلبث أن غادرت كطيف شفاف .

قمت بكل الأعمال على أحسن ما يمكننى من جهد .. فكوفئت ظهرا على جهدى بعلامات من الرضا بدت على وجوههم الثلاثة أثناء تناول طعام الغداء . سررت لقد كان ذلك أعظم ثواب لى .

لست أدرى ما اعترانى ، لابد وأنى إنسان غير طبيعى .. إننى أشعر بغرابة أمرى .. لم تعد زوجتى تطرأ على بالى إلا نادرا ، لقد خفت حدة تفكيرى بها عما كنت عليه وأنا على ظهر السفينة ، أو وأنا فى بيت قريبى .. لكم أشكر الله على حظى السعيد بأن وضعنى فى هذا المنزل الصغير الهادئ ، الذى يكاد كل من فيه ينطق بالطيبة .. الصبيان فى منتهى الأدب . ليست هناك مشاكل من أى نوع .. الحديث بين أفراد العائلة يشبه الهمس ، حتى أنى لأعجب أحيانا كثيرة كيف يسمع بعضهم بعضا .. الابتسامة دائما

ترفرف على شفاههم .. لكأن الدنيا قد خلت من الهموم ، أو لكأن المحيط الذى يضم العائلة يمتص المشاكل فلا تبدو حيث يوجدون .. لكم أتمنى لو أننى جزء من هذه العائلة .. لو أنى ربها .. آه .. ياللعذاب .. كيف طرأ على بالى أن أستبدل أولادى ، بأولاد آخرين ؟ حتى وإن كان أولئك ملائكة وأولادى شياطين ؟ لابد أنى أب جاحد للنعمة ، كلا ، يجب أن لا يشط بى الخيال .. إننى لست إلا خادما أجيرا ، ويجب ألا أتعدى حدودى أبدا .

٢٨ / ٧ / ١٩٧٨

منذ جئت وبيننا أنا وهى مسابقة صامتة ، من الذى يسبق صاحبه بإلقاء تحية الصباح ، فإذا ما سبقتنى بإلقائها أشفعتها بابتسامة منتصرة .. إنها طيبة جدا ، ورقيقة جدا ، متسامحة أبدا .. لقد أخطأت يوم أمس ، ولكنها لم تعنفنى ، بل لفتت انتباهى إلى موطن الخطأ ، طالبة منى عدم تكراره فى المستقبل .

لقد سبقتنى هذا الصباح بإلقاء السلام ، وعلى شفتيها ابتسامة النصر ، إننا فى كل صباح نتبادل تحية إسلامية .. أكاد أطير من الفرحة .

٢٩ / ٧ / ١٩٧٨

لست أدرى ماذا دهانى . فى كل مرة أتناول منها النقود لشراء حاجة ما ، أحاول أن تمس أصابعى أى طرف من يدها .. ولكنها تسحب يدها بسرعة .. بل أخذت تحتاط للأمر .. تضع النقود على الطاولة ، وتشير إليها طالبة ما تحتاجه ، وعندما أعود بالباقى تطلب منى أن أضع هذا الباقى على أعلى مكان مرتفع ، مثل الطاولة أو سطح التليفزيون .. ترى هل تشعر بتعمدى هذه الحركة ، يالى من إنسان نذل لا يقدر النعمة التى هو بها .. أخشى ما أخشاه أن تغضبها هذه الحركة منى .. ولكن ماذا أصنع ؟

لقد أصبحت عادة عندى لا أستطيع التحكم فيها ، حتى بعد اقتناعي بأن حركتي هذه تغضبها جدًا .. منذ مدة وأنا أضع من نفسي مراقبا لجميع تصرفاتها ، حتى الآن لم أر عليها ما يشيب ، لقد أملت نفسي بأني أحق بها من سواى ولقد خاب أملى .

ما هذه الأفكار التى تطحن رأسى ، لاشك بأنى سأدمر نفسى ، بل سأدمر نعمتى بيدى .. ولكن يا ترى كيف لشابة على مثل هذا الحسن والعنفوان أن تعيش هكذا دون زواج ؟ ها هى الأفكار بدأت تطحنني من جديد .. هل أنا أحبها ؟ كلا ، لا أريد ذلك .. لعله البعد عن زوجتي .. ولكنها قطعًا أجمل من زوجتي .. هناك الكثيرات ممن هن أجمل من زوجتي ، هل علىّ أن أحبهن .. لابد وأننى أصبحت لا أحب زوجتي .. كلا إنه الحرمان .. ها أنا أنظر إلى وجهى فى المرآة ، إننى وسيم وفى مثل سنها لو فرضنا أنها فى الثلاثين .. بل أكثر من وسيم ، ليس هذا غرورا منى ، كل من يعرفنى وجميع أقاربى يقولون ذلك .. وهذه المرآة تشهد لى .. ولكننى لست سوى خادم .. خادم حقير .. فهل يطمح خادم بأن تحبه سيدته .. ما يدريها أننى كنت موظفًا مثلها فى بلدى .. ولكن إغراء المال جعل منى خادمًا .. ولكن ما يدريها لعلها تصورت أننى ولدت من بطن أمى وأنا خادم .. ألا لعنة الله على الحاجة .. فصاحب الحاجة وضيع ، كما يقولون هناك فى بلدى .

١ / ٨ / ١٩٧٩

حاولت فى هذا اليوم مثلما حاولت قبل مرات عديدة أن أنبسط معها فى الحديث ، ولكنها بمجرد أن ترى أو تحس منى انحرافا يوعز إلى جهة معينة من الحديث ، تقطب وتوجز فى الرد ، وتغادر المكان .. إننى أحتار فى تحليل شخصيتها .. سهلة ممتنعة ..

تظن أنك قاب قوسين أو أدنى من مرامك ، عندما ترى لين جانبها وابتسامتها التى ترف دائما على شفتيها .. ثم لا تلبث أن ترى نفسك فى غمضة عين كأنك أمام حجر أصم ، صلد الجوانب .. عجيب لا شيء يثير عواطفها ، حتى يخيل لى أحيانا أننى أمام إنسانة مجردة من العواطف .

هل هى إنسانة نبيلة حقًا ؟ أم أنها ولكونى خادمها جعلت تترفع عنى ؟ أخذت أحدثها عن وظيفتى فى بلدى ، وعن الكلية التى درست فيها ، كل هذا وأنا أخرط البصل ، وهى تنتظرنى كى ترينى كيف أعمل طبخة جديدة لم تمر على قبلا .. كانت ترد على بإيجاز ، ولكن بتهذيب .. ثم لم تلبث أن غادرت المطبخ ، طالبة منى أن أستدعيها عندما أتم عملية التحضير .. شعرت بحنق وبميل إلى عمل أى شيء يؤذيها ، ليت الطبخة تفشل .

٢ / ٨ / ١٩٧٩

وجدت وأنا أرتب الفراش قلادتها الذهبية تحت الوسادة ، لابد وأنها ضايقتها فى الليلة الماضية ، فتخلصت منها .. وضعتها فى جيبى ، ثم فتحت الدرج الملصق بالسرير ، فرأيت مجموعة من القطع الذهبية الصغيرة ، عبارة عن قرط وخاتمين ، وضعت المجموعة فى جيبى .. لم أشعر بتأنيب الضمير ، بل أحسست براحة غريبة .

٦ / ٨ / ١٩٧٩

لم تسألنى طيلة الأيام الماضية عما فقدته .. شىء عجيب .. لم أر امرأة مهملة مثلها .. إنها مفرطة الثقة بمن حولها .. لعلها تضفى من طيبتها على كل من حولها .. كنت آمل أن أرى هذه الابتسامة تنضب عن شفتيها .. لعلها تغضب .. إننى لم أرها فى حالة غضب أبدًا .. لها طريقة لا أفهمها فى التوجيه الهادئ لكل

من يحيد عن جادة الصواب .. حتى الصبيان لم أرها فى أى يوم تعنف أيًا منهما .. كيف تسير أمورها معهما ؟ لست أدرى ، ولكن الذى أدريه أنهما فى منتهى الأدب والتهذيب .

إن زوجتى دائمة الصراخ مع الأولاد .. دائمة الشكوى منهم والتبرم بهم .

٧ / ٨ / ١٩٧٩

فى غمرة انشغالى بها نسيت العالم الخارجى ، ولكن هذا اليوم وهو يوم إجازتى ، خرجت مع أحد زملائى .. أريته ما معى من قطع ذهبية ، فحذرنى قائلا إنها سرقة مكشوفة .. وعندما طمأنته اقترح علىَ أن أبيعهم لأن الذهب مرتفع الأسعار فى هذه الأيام ، بعتُ القلادة ، كسبت منها مبلغا لا بأس به .. فرحت .. ولكن عند عودتى إلى المنزل فى المساء خفت مواجهتها كأنها سوف تسألنى .. ولكن الحمد لله لم يحدث شىء .

١٠ / ٨ / ١٩٧٩

كم أشعر بالضعة .. إننى حقير .. دنىء .. لقد سألتنى اليوم بمنتهى اللطف عن المصاغ الضائع .. طالبة منى أن أبحث عنه يوم غد أثناء تنظيف الغرفة .. لا شك أنها تعرف أننى استوليت عليه ، ولكنها لا تريد إحراجى .. لعلها أرادت أن تعطينى فرصة إعادتهم دون الشعور بالخجل .. ليتنى لم أبع القلادة . كم أنا خجل .

١١ / ٨ / ١٩٧٩

أعطيتها القرط ، ادعيت أننى وجدته تحت السرير على الأرض . فطلبت منى أن أجد فى البحث عن الباقى .. لم تبتسم ولكنها لم تغضب .. كأنها تكلفنى بعمل عادى جدًا .

١٥ / ٨ / ١٩٧٩

كل يوم وبأعصاب باردة وبإلحاح هادئ ، حالما تدخل المنزل تسألنى إن كنت وجدت بقية القطع الذهبية ، أخرجت لها قبل يومين الخاتمين وقلت : إننى لم أجد القلادة .. أصرت بنفس اللهجة الهادئة على أن أبحث عنها أيضا .. وها هى اليوم تعيد على السؤال بنفس الإصرار .. ماذا على أن أفعل ؟.. سأذهب يوم الجمعة القادمة إلى الصائغ لأعيد له النقود ، وأستعيد منه الحلية .. فهمت الآن كيف تسير أمورها . رقيقة فى حزم ، وحازمة فى رقة ، يالها من فتاة . أوه ، يالها من امرأة ، لست أعرف لها وصفا .. ولكن المهم فى نظرى الآن كيف أستطيع أن أعيد لها قلادتها ؟

٢٢ / ٨ / ١٩٧٩

كيف أعود إلى المنزل ؟ إنها سوف تسألنى حتمًا غدًا إن كنت وجدت القلادة .. كنت أبعث بها الأمل بأنى سوف أجد فى البحث عنها ، وأنى سأجدها حتمًا .. ولكن كيف سأواجهها غدًا بعدما رفض الصائغ إعادتها لى لقد ادعى بأنه باعها . حاولت أن أشترى واحدة مثلها ، ولكنه طلب ضعفى المبلغ الذى بعتها به .. ماذا ستقول عنى غدًا ؟

٢٦ / ٨ / ١٩٧٩

جعلت أنقب تحت الفراش كأنى سأجد القلادة ، مع علمى باستحالة ذلك .. حتى بلغ بى الضيق بأن انخرطت فى البكاء .. دخل على الصبى ، وسألنى بنفس لهجة أمه الرقيقة عم يبكينى ؟ ذكرت له أننى لم أجد القلادة ، وأخشى أن تتهمنى سيدتى بسرقتها .. فضحك مطيبًا خاطرى قائلاً : لا عليك ، سأكلمها فى الموضوع .

١٩٧٩ / ٨ / ٢٨

غريب كل شىء فى هذا المنزل ، على الرغم من أنه لا يوجد شىء يدل على الغرابة ، مر يومان ولم تسألنى سيدتى إن كنت بحثت عن القلادة .. كأن شيئا لم يحدث .. أحس براحة .. ولكننى أحتقر نفسى .. لقد عاقبتنى فعلاً .

١٩٨٠ / ١ / ١

هذا أول يوم فى السنة الجديدة ، كل شىء فى هذا المنزل مثله فى اليوم السابق له ، لا تغير فى الابتسامة .. ولا تغير فى مسابقة التحية الصباحية ولا شىء أكثر من ذلك .. ولكن الأيام رغم أنها رتيبة إلا أنها غير مملة أبدا .. لعل الأيام هاهنا أشبه بأيام الجنة .

برغم أننى أسمع بمشاكل عجيبة تحدث لزملائى من الخدم ، ورغم أننى إزاء مشاكل أعجب فى الشارع .. إلا أن كل ذلك كأنه خارج نطاق منزلنا ، بل لكأن منزلنا محصن بحصن لا تخترقه المشاكل .

قال لى زميلى فى الليلة الماضية : إنه احتج على مرتبه ، وهدد بترك العمل والسفر إلى بلده ، وأنه حصل نتيجة لذلك التهديد على زيادة مقدارها خمسة دنانير شهرية .

أيقظ زميلى بقوله هذا شيئا من الجشع فى نفسى ، لم لا أجرب .. ومع ذلك أليست هى مرتاحة من عملى بدليل أنها لم تعنفنى فى أى يوم ، المهم طلبت منها زيادة أجرى من أول الشهر القادم ، قلت لها إننى أتحمل جميع أعباء المنزل . وإن أجرى ضئيل قياسا إلى عملى .

قطبت حاجبيها ، وقالت بنفس النبرة الهادئة التى تميزها . إن الاتفاق لم ينص على زيادة قبل مضى المدة المتفق عليها .. ثم

همت بالانصراف من المطبخ قبل أن تتم العمل الذى بيدها كعادتها إن لم يعجبها حديثى .. انفعلت ، فصرخت خلفها .. سأسافر . التفتت وهى لا تزال مقطبة ، وبنفس النبرة الهادئة قالت .

ــ اعمل الذى تراه يريحك .. ولكن اعلم أن سفرك سيكون على حسابك الخاص .

يالها من امرأة حديدية الإرادة .. حازمة فى غير عنف .

أغضبنى أشد الغضب أننى لا أستطيع إثارتها بأى شكل .. حمدت لنفسى أننى لم أعد لها قلادتها المفقودة ، بل سوف أسطو على غيرها إن أمكننى .

وفى نفس ليلة هذا اليوم استسخفت فكرة سطوى على مصاغها .. يالى من غبى .. طبعا لم أكن جادًا فى تهديدى ، ولذا لن أفاتحها بالزيادة مجددًا .

١٩٨٠ / ١ / ٣٠

فوجئت هذا اليوم عندما دفعت لى دينارين زيادة على مرتبى ، يالها من امرأة طيبة .. ناولتنى أولا مرتبى المعتاد وعندما أخذته وانصرفت صامتا استدعتنى وناولتنى الدينارين ، قائلة : هذه ستكون زيادة مرتبى الشهرية . الحمد لله .

١٩٨٠ / ٢ / ٣

لو أن صاعقة نزلت على من السماء لكان ذلك أهون على مما رأيت هذا الصباح .. فى الوقت الذى كنت أعد الفطور كالمعتاد ، وقف فى باب المطبخ رجل فى حوالى الأربعين من العمر ، طويل كالعملاق ، أشعث أغبر له جفون متورمة ، وفم معوج قليلا ، وملابس متسخة .. وعندما رأى دهشتى قال فى إنكليزية ركيكة :

ـ الأب .. أنا .

جاهلا أن الصفة تسبق الموصوف فى اللغة الإنجليزية .. متى حضر هذا الأب ؟ لكأن الأرض انشقت ولأخرجته ، إن الساعة لا تزال الخامسة صباحًا .. كلهم نيام لم أسمع طرقًا فى الليلة الماضية .. لعله حضر فى منتصف الليل .. من أين حضر ؟.. لم أكن أعلم أن له وجودًا طيلة سنتين .. لقد خمنت جميع الاحتمالات ، إلا احتمال حضوره ، إنه يشبه صورته المعلقة فى الصالة ، فيه شبه كبير من أولاده ما عدا المنظار والرواء .. إن صورته أجمل وأنضر منه الآن .

رحبت به بتكلف .. وأخذ قلبى يخفق بشدة لا أدرى لماذا .. ألقى نظرة فاحصة على المطبخ ، ثم انسل كالشبح داخل المبنى .

عند إحضار الفطور إلى غرفة الطعام تلكأت كثيرًا كى ألقى نظرة عليها ، شاهدتنى فى موقفى المتشاغل ، احمر وجهها ، وابتسمت رغمًا عنها ، تبدو سعيدة ، وعلى وجهها أمارات انتصار على شىء مجهول .

وهى تلقننى عمل الغداء تجرأت فسألتها عنه إن كان بخير ، فلم تجب بغير إيماءة من رأسها .

لم أستطع أن أحرك منها ساكنًا وهو غائب فكيف وهو الآن حاضر .. لكم أشعر بالتعاسة .

١٩٨٠/٢/٤

علمت اليوم من خادمة جارتنا التى تعمل فى خدمتها منذ خمسة أعوام أن زوج مخدومتى غائب عن منزله منذ أربعة أعوام ، لم يحضر خلالها أبدًا .. وقالت أيضًا إنها سمعت من الخادمة التى كانت فى منزلنا قبل مجيئى أن هذا الزوج أحب امرأة لعوبًا ليست من بلده ، وهجر زوجته وأولاده .. وعقبت بعد ذلك قائلة : يبدو أن هذه المرأة اللعوب نبذته بعد أن امتصت جميع ما فى جيوبه ، لذا لم يجد بدًا من العودة ، فقلت : وعاد محطمًا ، ولكنه وجد صدرًا رحبًا من زوجة صانت عهده ، ولعلها لم تسأله أين كان أو لماذا عاد .

فقالت زميلتى : ومع ذلك فأنا متأكدة لو أن تلك اللعوب أشارت له بطرف أصبعها لعاد إليها مرة أخرى .

فقلت ضاحكًا :

ـ تاركًا الملاك مهجورًا .. لعلها متأكدة مثلك من هذا الأمر ، ولكنها راضية بلحظتها العزيزة هذه .

كل حدث سعيد يحدث فى محيط الأسرة ، تمنحنى بمناسبته مبلغًا من المال ، يقل أو يكثر حسب تقديرها لأهمية ذلك الحدث ، قائلة لى فى كل مرة : إن وجهك سعد علينا .

نجح أولادها فى الامتحان فمنحتنى ، مبلغًا من المال .. ومرة أخرى جاءها مبلغ لم تكن تتوقعه ، فمنحتنى أيضًا .. ومرة ثالثة

فيما أظن حصلت على درجة فى وظيفتها فحصلت على هبة أخرى .. وكنت أفرح غاية الفرح بهذه المبالغ غير المتوقعة .

وها هى اليوم تمنحنى هبة أكبر بكثير مما سبق .. إذن فهى تعتبر حضوره حدثا سعيدا .. ولكنى لم أفرح بالمبلغ رغم كبره .

٤ / ٣ / ١٩٨٠

كففت نهائيا عن مجرد حلم كنت أعلم مسبقا أنه بعيد التحقيق .. رددت إلى الواقع بقسوة .. لكم أكره هذا الرجل ، لا أطيق رؤيته ، إنه لا يتركها لحظة واحدة ، لكأنه يعوض الأعوام الفائتة ، أينما تمضى داخل المنزل فهو خلفها أو أمامها أو بجانبها .. أليس له عمل يشغله ؟ قيل لى إنه غنى بماله الذى ورثه عن أبيه ، ليس له إلا أن يصرفه .. إذن لماذا جاء على تلك الحال المزرية ؟.. إنه الآن نظيف لامع ، ولكن ابتسامته المعوجة لم تتخل عنه ، وعينه أيضا لم يفارقها ورمها ، لكم أمقته .. لم تعد تولى اهتمامها لأحد غيره . حتى طفلتها ذات السادسة بدأت تغار من أبيها ، ولا تطيقه يجلس بجانبها .. أراها دائما تزاحم بأن تجلس بينهما .

أما هى فقد زاد وزنها قليلا ، لعل ذلك حدث لها من الراحة النفسية التى تشعر بها ، لكأنها نبتة عجفاء أينعت بسقوط المطر الغزير .

الذى يضحك فى الموضوع أن الصبى لاحظ ذلك ، فأخذ صورة قديمة لها تبدو فيها بدينة نوعا ما .. أخذ الصبى يضع هذه الصورة كل يوم أمام المائدة مذكرا إياها بعدم الإسراف فى الأكل .. لست أدرى من أين جاء بهذه الفكرة . كانت تضحك عن نواجذ بيضاء لؤلؤية من فعلة الصبى .. وتلفت نظرى إلى ما يفعله وأنا أصف الصحون على المائدة .. ولكن كان الأب متخشبا ، زامًا

شفتيه بقوة كما لو كان هناك من سيجبره على الابتسام .. لعله حانق من حديثها معى .

ليته يعلم كم أن زوجته وفية له .. قد يموت وهو غير متأكد من ذلك ، لعله يظن أن فى غيبته حدث منها أو لها شىء ما .. لو كنت أستطيع أن أخبره .. لو كان صديقى .. وهيهات أن يكون .. لم يعنفنى فى يوم ما ، ولكنه أيضا لم يحدثنى بأى شىء غير صباح اليوم الذى أتى به .. لا شك أنه يكرهنى .. قلبى يحدثنى أنه يكرهنى ، يمقتنى ... ولو كان بمستطاعه أن يطردنى لفعل .. ولكن غيبته الطويلة هذه جعلت أسرته تشعر بنوع من الاستقلال والاعتماد على النفس ، مما أفقده جزءا غير منظور من سيطرته على عائلته الصغيرة .

العائلة رغم هذا تبدو سعيدة ، أنا الوحيد الذى أشعر بالتعاسة ، وأنتظر اليوم الذى تنتهى فيه خدماتى لهم .. لولا أن المدة التى بقيت من خدمتى قليلة .. ولو أننى أستطيع الاهتداء إلى جواز سفرى لهربت ، كما فعل الكثير من معارفى ولعملت لحسابى بأجر أكبر .

٣ / ٥ / ١٩٨٠

إنها حرب دائرة بينى وبين رب الأسرة ، أو بالأحرى بينه وبين ما يخيل له أنه أنا .. فالحرب سجال ولكن من طرف واحد من طرفه هو وحده .. أشعر به وأكاد من غيظى أن أبكى شفقة له .. إنه يتلصص كلما رأى إمكانية لذلك ، على أمل أن يرى موقفا لى مع زوجته يشى بشىء ما .. ولكن بما أنه لا يوجد شىء من ذلك ، فهو لا يجد غير الخواء .. لعلها تشعر بتلصصه ذلك ، ولعلها تسر فى أعماق نفسها لحركات الغيرة الصبيانية .. أين

كنت إذن طيلة هذه الأربعة أعـوام ؟ ولمـاذا لـم تخـف عليهـا من الفتنة ؟؟

أما هى فلا شيء يبدو عليها يشف عما بداخلها .. تتصرف بهدوء وطبيعية ، مثلها فى السابق ، كأن شيئا لم يتغير البتة .. نعم كأن شيئا لم يحدث وكأنه لم يغب إلا بضع ساعات .. يخيل لى أحيانا أنها محاطة بشيء كثيف يمنع عنها تسرب الأحداث التى تؤلمها .. دائما هادئة .. دائمًا مبتسمة ، لكأنها ملاك يتحرك .

أما هو فكان كالقط النافر مشرعا مخالب طويلة قوية معقوفة ، يتحفز للانقضاض على الفأر الضعيف الذى هو أنا ، غير عارف أنه فأر أعجف لا يملأ ما بين أسنانه .. بل بالأحرى إنه فأر من ورق ، وليس فأرًا حقيقيًا يستحق أن يهاجم .. هكذا جعلتنى .. ولكن ما يدريه . لقد رأى وسامتى وشبابى وعنفوانى فظن أن لهم صدى .. هه .. أى صدى ؟. لقد بدأت أشك أن ليس لهم صدى فى أى مجال آخر .. ولكن المسكين ما يدريه .. إنه دائم التلصص .. دائم التحفز .. ولكنه لم يستطع أن ينشب أظفاره المسننة فى هذا الفأر الورقى لسبب واحد ، أنه لم تكن هناك أية فرصة متاحة .

لم لا يطلب طردى ؟.. لعلها سترفض طلبه .. أو تكون قد رفضته فعلا ، لأنه لا يوجد سبب يبرر ذلك .. وها هو جاد دائمًا فى البحث عن سبب .

أود أن أعطيه نصف عمرى وأسمح له بإيجاد سبب حقيقى لطردى .. ولكن هيهات ..

* * *

إلى هنا وانتهت الأوراق .. عجبت فى نفسى ، إذن لمَ هو قادم

غدا ، تصحبه زوجته ، كيف سمح له صاحبى بالحضور مرة أخرى طالما أنه على ما يصفه من كراهية له ، لابد أن فى الأمر سرًا ، كيف نسى هذا الخادم قسمه على السفينة بأنه لن يسمح بحضور زوجته أو أى من أقاربه .. فهل الكسب المادى يحلل الأيمان ؟..

قررت أن أقوم بترجمة هذه المذكرات لأحذر صاحبى منه ، ولكننى أجلت الموضوع لحين حضور الخادم وسؤاله عن كل ما جاء بهذه الأوراق ، لعل عنده ما يبرر .

وفى نهار اليوم التالى زرت صديقى ، كى أرى الخادم وأحادثه .. واختلقت فرصة بأن طلبت ماء لسيارتى قبل انصرافى ، وعندما أحضر الخادم الماء المطلوب ، وقفت معه فى الخارج ، وأبرزت الأوراق التى كتبها .

اصفر وجهه . ومد يده فى حركة تلقائية وتناولها منى ، ولكننى أبعدتها عن متناوله .

كلا ، سوف أترجمها لسيدك ، ليرى أى نوع من الخدم أنت .

فقال متوسلا : أرجوك يا سيدى .. أنت لم تفهم الوضع على حقيقته ، لقد تحسنت علاقتى بسيدتى .. ثم هناك زوجتى معى .. كل ما جاء بها عبارة عن تهيؤات .. وما هى إلا محاولات فى الكتابة ليس غير .

قلت :

ـ ولماذا لا تكتب بلغتك الأصلية ؟

لا أقرأ بها كثيرا ، لذا لا أجيد الكتابة بها .

ومد يده مرة أخرى محاولا أخذ الأوراق .

فقلت : كلا لقد كلفتنى بترجمتها .

عندما يئس من محاولة أخذها منى قال :

ــ حسن .. سوف أحضر بقية المذكرات ، لتفهم الوضع على حقيقته .. وبعد ذلك لعلك تقتنع بعدم جدوى ترجمتها لسيدى .

قلت :

ــ وهناك بقية ؟ .. حسنا .. هات الباقى .. وسنرى .

وفى نفس مساء اليوم ، قرأت بحب استطلاع كبير .

٦ / ٦ / ١٩٨٠

اليوم وأنا أحزم حقائبى استعدادا للسفر لبلدى الحبيبة ، بدا على جميع أفراد الأسرة الأسف لانتهاء خدماتى إلا هو ، أدار ظهره لى ، ودخل غرفة نومه .. شعرت بحنق كبير ، ماذا فعلت له .. غير أنى خدمته بإخلاص . خرج من غرفته وبيده مفاتيح سيارته ، ظننت أنه سيقوم بتوصيلى إلى الميناء ، حيث ترسو الباخرة التى ستقلنى لوطنى ، ولكنه صفق الباب على عجل ، كأنه يخشى مناداته .

نظر الصبى إلى أمه ، ونظرت الأم إلى ابنها ، تفاهما بالنظر ، فقالت لى سيدتى : هات مفاتيح سيارتى ، أعتقد أنك لا تستطيع حمل الأغراض التى معك بمفردك .

كانت قد زودتنى بكمية كبيرة من الثياب التى هم فى غنى عنها ، ملأت بها ثلاث حقائب .

دخلت الغرفة لأحضر المفاتيح .. فتحت الدرج أبحث عنها .. رأيت محفظته المتخمة بالنقود .. دون وعى منى ، وفى رغبة عارمة للإيذاء ، دسستها فى جيبى .

كنت آخر راكب وصل السفينة وهى على وشك الإقلاع ، صافحت الصبى وأمه مرة أخرى ، وقبلت الصغير .. وما كدت أدخل السفينة حتى انفجرت الدموع من مآقى .

٧ / ٦ / ١٩٨٠

لم أنم الليلة الماضية .. لقد انفثأ حقدى عليه ، ولم يبق لى غير محفظته المملوءة بالنقود .. اشمأززت منها فلم أحاول فتحها ، هممت عدة مرات بأن ألقى بها فى اليم ، ولكننى فكرت أن عملى هذا حمق ، لن يفرج كربى ، ماذا ستقول هى ، فكرتها عنى ، لابد أنها ستظن أنى لص حقير ، وأنا الذى سعيت جاهدا لكسب احترامها بعد أن عجزت عن الفوز بحبها .. تذكرت قلادتها التى بعتها فتضاعف ألمى .. ها أنا أدور على سطح المركب ، كل من فيه يموج بفرحة العودة إلى الوطن ، إلا أنا ، تحاشيت كل إنسان ضاحك مستبشر ، وانفردت بنفسى فى مكان بعيد يلفنى العبوس .. حاول أحدهم التسرية عنى ، بسؤالى عما بى ، ولكنى صددته بجفاء ، فلم يعد إلىّ .. ها أنا أعصر ذهنى .. أوه .. لماذا لم أفكر فى هذا من قبل ؟

استعرت ورقة من قبطان السفينة ، وأخرجت قلمى ، وها أنا أكتب إليها .

« يا أعز إنسان رأيته ، واحترمته .. بل قدسته .. لعلك تجدين لى العذر عن غلطتى ، مثلما تفعلين فى كل مرة .. لم أسرق المحفظة طمعًا فيها .. وكذلك من قبل لم أسرق القلادة طمعًا فيها .. وإنما لأسباب قد تفهمينها وقد لا تفهمينها ، وقد لا تكون هذه الأسباب تحمل التبرير اللازم لغلطتى .. وإنما المهم أنى الآن أعيد المحفظة دون أن أحصى ما بها إلا لكى أرسل محتوياتها ، وأعيد معها ثمن القلادة التى بعتها بتسرع وطيش .. ولكن لى رجاء واحد ، هو ألا تعيدى النقود إليه .. دعيه يكرهنى لسبب حقيقى .. وليس كما فعل لسنة كاملة ..

« خادمك المخلص »

٨ / ٦ / ١٩٨٠

الساعة تتكتك قرب أذنى ، وزندى متخدر لتوسدى إياه .. لابد أنى نمت نوما عميقا متصلا .. نظرت إلى الساعة التى أهدتنى إياها عند عودتها من إحدى سفراتها ، فوجدتها العاشرة صباحا .. شعرت بوخز الضمير .. ولكنى حالما استعدت وعيى كاملا تذكرت أننى بعثت بالرسالة والنقود بوساطة التلكس يوم أمس من داخل السفينة ، فزال عنى كل ندم .. الحمد لله .

٩ / ٧ / ١٩٨٠

استقبلتنى اليوم زوجتى بفرحة منقطعة النظير ، وفرحت أنا أيضا بها .. وبينما أنا أنزل حمولتى من العربة التى أقلتنى قالت زوجتى فى معرض ثرثرتها عن كل شىء :

ــ وصلتك رسالة من مقر عملك فى (تبوك) ، ومنذ يومين .

فتوقفت ، وألقيت ما بيدى ، وصحت متلهفا ، أين هى ، هاتيها .

فضضت المظروف بيد ترتجف ، كان بداخله ورقتان عليهما ختم الحكومة ، ومكتوبتان باللغة العربية ، ومعهما قصاصة من الورق مكتوبة باللغة الإنجليزية تشرح ما بهما ، قالت القصاصة :

تجد إذنىْ دخول لأرض (تبوك) ، أحدهما لك والآخر لزوجتك ، مدتهما ثلاثة شهور ، فإذا كنتما ترغبان فى الخدمة لدينا فإننا نرحب بكما ، وكان التوقيع باسم الزوج .

آه .. إذن فقد غفر لى .

* * *

ضحكت من كل الملابسات ، وقلت فى نفسى ، ترى هل هذا نموذج لكل خدمنا ، أم هو حالة فريدة ؟؟ قد يكون فى بعض المواقف حالة خاصة ولكن فى الإطار العام فهو نموذج ، وعلى

كل فقد قررت ألا أسلم ترجمة هذه المذكرات لصديقى ، كى لا أحرم زوجته من خدم مخلصين .. سأعتذر له بفقدها .

وبما أنى أعرف عن صديقى عدم محبته لقراءة الآثار الأدبية من أى نوع .. فقد قررت أن أنشر ما جاء بها عبرة لمن يعتبر وأنا مطمئن .

* * *

٢ ــ حذار .. قد تقتل ..

جاءتنى هذه القصة بالبريد . قال لى مرسلها : فى قصاصة من الورق مرفقة بها إنها قصة واقعية حدثت له وقال أيضًا : بما أنك قاصة فيمكنك نشرها باسمك بعد تعديلها ولكن بعد قراءتها لم أضف إليها . أو أحذف منها شيئًا ، فها هى كما هى :

كنت فى المطار أترقب الطائرة التى ستنقلنى إلى أثينا حيث تدعو بعض شئونى للسفر إلى هناك . وبعد أن أنهيت كافة الإجراءات المتعلقة بهذا الموضوع ، جلست أنتظر .. كان على مقربة منى شابان أجنبيان فهمت من تحاورهما أن أحدهما أمريكى عائد إلى وطنه بعد فترة دراسية فى روسيا ، والآخر روسى أيضًا فى طريقه إلى وطنه ، بعد أن أنهى مهمة وظيفية لبلده فى الولايات المتحدة .

جلس الشابان يتحدثان اللغة الروسية حديثًا غريبًا ، ولكن دون حرج لاطمئنانهما إلى أن لا أحد يفهم حديثهما بتلك اللغة فى هذا البلد العربى البعيد عن موطن أى منهما ، ولهما الحق فى هذا الظن . فمن النادر أن نجد أحدا يتحدث بهذه اللغة من غير أهلها . لعدم تداولها عالميًا ، ولكن شاءت غرائب الصدف أن أجلس أنا بالذات على مقربة منهما . أنا الذى قضيت أكثر من نصف عمرى أتجول بين مدن روسيا ومعاهدها حيث كنت أدرس اللغة العربية فيها . لقد ارتاب الشابان فى مبدأ الأمر فى تنصتى لما يقولان . كان سماعى لحديثهما عفويًا لم أقصده ولكن لغرابة ما يقولان ولشدة فضولى لمعرفة طبيعة حديثهما المدهش أقنعتهما بأنى لا أفقه شيئا ، وذلك عندما استخرجت دفتر مذكراتى الصغير ،

وجعلت أدون فيه ما يدور بينهما من حديث شد انتباهى بقوة طاغية ، وبحيث تغلب على ما كنت أعتقده من رذيلة التنصت ، وذلك لشدة إدهاشه وعجبه .

لذا فإنهما عندما رأيا استغراقى فى الكتابة ، ظنا أننى أدون شأنا من شئونى . وهكذا انطلقا يتحدثان دون اعتبار لشأنى .

لست أدرى كيف تعارفا ولكن الذى فهمته أن أحدهما وتوقفت طائرته لعطب طارئ أصابها ، وأنه ينتظر تغيير الطائرة الوشيك . أما الآخر فقد توقفت طائرته توقفا عاديًا للتزود بالوقود والمؤن .

فى البداية سمعتهما يخوضان فى حديث سياسى مهم لكل منهما ، كانا قد شرعا فيه قبل انتباهى إليهما .. سمعت تتمته بقول أحدهما للآخر :

ــ هل تعاهدنى على ذلك ؟

فرد الآخر وكان الروسى :

ــ أجل . أعاهدك . ولكن عليك ألا تبوح بسرى مهما تعرضت للمخاطر . فأسرع الأمريكى إلى القول :

ــ هذا مؤكد . يجب أن يقوم كل منا بعمله وكأنه بإيعاز من نفسه ، ودون اتفاق مسبق .

دهشت . لقد سمعتهما قبل قليل . أحدهما يعرف الآخر بنفسه ، ويشرح له سبب توقفه هنا . قلت لنفسى : ربما أن الاتفاق كان بوساطة آخرين وقد جاءا للتعارف فقط .

يجب أن ننجح من أول محاولة ، وإلا فكل شىء سيذهب هباء . يجب أن نرسم المخطط العريض منذ الآن .. ونترك التفاصيل فيما بعد إذا أحببت أن نتراسل .

أجابه الآخر بموضوعية شديدة تتسم بالحذر :

— كلا .. إن أى نوع من التراسل سيكشف أمرنا ، خاصة إذا قبض على أحدنا ، وهذا حدث ليس بعيد الاحتمال .. ومع ذلك ليس الهدف توطيد صداقتنا .

— تذكر أن هدفنا إنقاذ البشرية وما عدا ذلك لن نهتم بما تكون عليه ذواتنا .. حتى وإن أدى بنا إلى تدبير بديل له يتم عمله .

قال الأمريكى :

— هذا واضح بالنسبة لنا .. ولكن لا تنس المؤسسة المزمع إنشاؤها فيما لو نجحنا .. ثم كيف تدبر التفاصيل ، إذا لم تكن بيننا مراسلات .

فقال الروسى :

— أنت تعرف أن الظروف والوسط مختلف . لذا لن يفيد وضع مخطط متطابق .. وإنما على كل واحد منا تدبير أمر التفاصيل كل حسب ما يراه مناسبًا .. أما بالنسبة لمشروع المؤسسة فهى لن تقام إلى فى حالة نجاحنا .. وعندما يتم ذلك يكون لنا شأن آخر .. أما الآن ، وحتى يتم العمل ، يجب ألا يجرى بيننا أى نوع من المراسلات أو الاتصالات ، بأى شكل .. سيعرف أى منا ما قام به الآخر ، من الأنباء العامة ، كأى فرد عادى لا تربطه بالموضوع أية صلة .

وبعد سكته قصيرة ، استطرد الروسى .

— كم سيتغير وجه الإنسانية العبوس ، إلى وجه دائم الاستبشار ..

وبعد سكتة قصيرة أخرى ، استأنف :

— لقد كنت أتابع صحفكم .. وأقرأ المقالات المختلفة عن هذه القنبلة النترونية فى هلع لا مزيد عليه ، كم روسى سيكون ضحية لها ؟.. من يدرى ؟ قد أكون أنا ، أو أحد أعزائى .. قبل أن ألتقى

بك كنت ألعن جميع الأمريكان لظنى — أعترف الآن أننى كنت مخطئا فيه — فقد كنت أعتبر جميع أفراد الشعب الأمريكى خالين مما يسمى بالحس الإنسانى ، وأن الجريمة طابع عام مميز لهم .

فرد الأمريكى :

— ليست هذه وجهة نظرى .. لم أنظر إلى الروسى هكذا .. لقد كنت أرثى لحاله للنظام الاقتصادى الآخذ بخناقه .. ولكنى كنت على يقين أن الروسى يفسد ضميره لمجرد تسلمه دفة الحكم .

فضحك صاحبه قائلا :

— إذن .. فنحن متساويان فى سوء الظن ..

فقلت لنفسى : إذن ليس كما تصورت ، إن تعارفهما وليد المصادفة .. ولكن كيف تم بينهما هذا الاتفاق المبهم . ليتهما يستمران فى الحديث ، لأعرف ماهية وطبيعة ذلك الاتفاق .. لكن أحدهما — وكان الروسى — نهض قائلاً : يجب أن نأكل شيئا .. يبدو أن انتظارنا سيطول .. فرد رفيقه : حقًا : يجب أن نأكل شيئا .. إننى أشعر بالجوع أيضًا .

— ولكن أنا الذى أدعوك .. أما أنت فبعد نجاح مهمتنا . وضحك الاثنان معًا .

وابتعدا عنى .. وددت لو أتبعهما .. ولكنى خشيت إن فعلت أن ألفت أنظارهما إلى أننى أفهم اللغة التى يتحدثان بها . فكما كان يبدو لى أنهما كانا على ثقة تامة بعدم معرفتى اللغة الروسية .. إن هيئتى ، ولباسى ، وسمار بشرتى تنبئ بأننى بعيد جدًا عن انتماء أى منهما . ولعل اندماجى فى الكتابة طمأنهما أكثر إلى جهلى بلغة حديثهما .

غالبنى الفضول مرة أخرى فهممت باللحاق بهما ، ولكننى عدت

فغيرت رأيى ، عندما رأيت أمتعتهما الخفيفة ، ما زالت على مقربة منى ، إذن سيعودان . تخوفت أن يأتى أحد فيجلس مكانهما مما يضطرهما إلى الابتعاد عنى ، وحتى لا يحدث ذلك ، مددت قدمى على أحد المقعدين فى وضع من يطلب الراحة ، ووضعت حقيبتى السمسونيت على المقعد الآخر ، وانهمكت فى تحسين خطى فى بعض الكلمات غير الواضحة إيهامـا لهما باستمرارى فى الكتابة .

انقضت عشر دقائق قبل أن يقبلا وفى يد كل منهما (سندوتش) وفى اليد الأخرى زجاجة مشروبات غازية .

كان الأمريكى ذا شعر ناعم حريرى أشقر تتدلى خصلات منه على جبينه وتكاد تخترق عينيه ، وكان أصغر سنا من صاحبه الروسى ، حيث كان ــ كما بدا لى ــ فى الثانية والعشرين .

أما الروسى ، فقد كان ربعة أقرب إلى النحافة ذا ملامح مغولية ، وشعره يشبه شعر الماعز الجبلى ، ويبدو فى الرابعة أو الخامسة والعشرين من العمر .

أبديت الأسف على تعابير وجهى ، وكأنى أدعوهما إلى الجلوس على مقعديها ، وسحبت حقيبتى إلى جانبى .

فقالا باللغة الإنجليزية :

لا بأس أبق كما كنت .. سوف نجلس فى مكان آخر ..

ولكنى أبديت عدم فهمى لملاحظتهما .. وأنزلت قدمى ، متخذا وضعى السابق ، مع إصرارى على الاندماج فى الكتابة .

فجلسا متلاصقين ، واستأنفا ما انقطع من حديثهما .

سمعت أحدهما يقول :

ــ كانت تلك الأفكار تدور فى مخيلتى منذ زمن .. ولكن قطعا

لم يدر فى خلدى بأننى سأكون فى يوم ما قاتلا .. ومهما كان السبب وجيها ..

فقال الأمريكى محتجًا :

ــ لماذا تسمى العملية قتلا ؟. إنها ..

ولم أسمع بقية الجملة ، لأننى لم أستطع ملاحقة حديث الأمريكى ، لقد كان صوت المضيفة (يلعلع) فى تنبيهها على المسافرين إلى قيام الرحلة للتوجه إلى الطائرة . لقد كان هذا رقم رحلتى . ارتجفت انفعالا .. لو نهضت من مكانى فلن أعرف المخطط .. لا شك أنه يدور حول حادثة قتل ستقع .. إن عدم معرفتى به سيدع الجريمة تتم .

وبعد شد وجذب مع نفسى قررت أن ألزم مكانى . إن شئونى مهما جلت يمكن تأجيلها ولكن حياة إنسان ما إذا ذهبت فلن تعود . قررت أن أبقى حيث أنا وتصاممت عن النداء ، وكأن الرحلة ليست رحلتى .

قال الروسى :

ــ إذا انتهينا من الرأسين الكبيرين . فمن سيكون عليه الدور ؟. ارتجفت لدى سماعى هذه الجملة .. إذن فإنهما عريقان فى الإجرام . إنهما سفاحان ، لا يروى تعطشهما إلى الدم ضحية واحدة .

أجابه الأمريكى :

ــ لو تمت .. فسيكون الثانى بالنسبة لى (كوهين) .. أما أنت .. فقاطعه الروسى :

ــ ولكن هذا عالم .. وليس رئيسا ..

ــ ليس مهما من يكون .. المجرم هو المجرم سواء أكان عالما

أم رئيسا .. ومع ذلك لا تنس أن هؤلاء الرؤساء لن يقدموا سوى قرارات الحرب أو قرارات الاستعداد لها .. أما هؤلاء العلماء الأشرار الذين يوقفون علمهم لخدمة الشيطان ، فهم عوامل الدمار الحقيقى للإنسانية ، ولولاهم لأصبحت كل قرارات الرؤساء الحربية غير ذات فعالية كبيرة .

فقال الأول مجادلا :

ـ إن الحرب موجودة منذ أقدم العصور ..

فرد الثانى ؛ بلهجة المصلح الواثق بنفسه :

ـ ولكننا نحن لم نكن قد وُجدنا بعد .. ثم إن الدمار لم يكن شاملاً كما هو الآن .. ثم ما قيمة التطور الإنسانى إذا لم يجد حلا لمشاكله بغير هذه الوسيلة المدمرة له .. قد يكون لذلك الزمن عذره . ولكن نحن ما عذرنا ، وقد وصلنا إلى هذا الشأو الحضارى ؟

لاحت لى فكرة محددة .. ولكنى عدت مستبعدًا احتمالها .. ماذا يقصد من وراء عملهما ؟.. ولماذا يكون هدفهما الرؤساء أو العلماء ؟

ومن هذا العالم (كوهين) ؟ وأصغيت بشدة . ولكن بحذر . إن كتابتى أصبحت كمشى النمل على أرض رملية .

سمعت الروسى يتحدث قائلا :

ـ وبانتهاجنا هذه الوسيلة .. فنحن مجرمون عاديون .. فرد الأمريكى بحدة :

ـ كلا .. ثم ضحك . ولكن إذا شئت أن تدعونا كذلك فقل إننا مجرمون إنسانيون .. أليس هدفنا إنقاذ البشرية من هؤلاء العلماء الأشرار .. ومن رؤسائهم المتهورين ؟.. أليسوا أكثر إجرامًا من سائر المجرمين ؟

فرد الروسى مكابرا :

ـ المجرم هو المجرم بغض النظر عن غايته ..

فتساءل الأمريكى مستغربًا :

ـ هل أفهم أنك غيرت رأيك بالنسبة للعملية ؟

فقال الروسى :

ـ أبدًا .. أبدًا .. ولكن هذا لايمنع من مناقشة الأمر بموضوعية .. ومناقشتى له لن تؤثر على قرارى فيه الذى لا محيد عنه ، لأنه لم يصدر إلا عن اقتناع تام ، لم يتولد عن طريق المصادفة فأنا أعتبر لقاءنا على هذه الصورة أمرًا رتبه القدر للقيام بهذه المهمة .. نعم لقد كان هذا المشروع حلمى الأكبر الذى لم أكن أعرف كيف أخرجه إلى حيز التنفيذ ، وكان ما كان ، بحيث بدا لى أن ما فى خاطرك ، وكأنه امتداد لما فى خاطرى .. أو كأنه النصف الضائع من فكرتى المخبوءة لديك ، حتى إذا تم لقاؤنا ، التقى الجزءان لتتكامل الفكرة ويتم العمل .. ولذا سأقوم بالعملية . هذا شىء مؤكد .. بل وعندى قناعة بأننى إذا أهملت هذه الفكرة التى من النادر أن تطرأ لأناس آخرين . فسأصبح أكبر إجرامًا ؛ لتركى مكونات العالم من البشر تتساقط ميتة كالذباب ، عندما يرش بالمبيد .. وذلك كله بفعل عبقرية شريرة لعلماء أشرار .. إذن ففى كلتا الحالتين أنا مجرم .. وفى هذه الحالة ، فمن حقى أن أنتقى أهون الشرين ..

وضحت الفكرة فى مخيلتى .. إذن لم أكن واهمًا فى ظنى .. كدت أتوقف عن الكتابة وأهتف لهما ، مرحى لكما أيها الشابان .. ولكن لا تجعلا طريقكما إلى الجنة المرور بالمراحيض .. إن هدفكما سام ، ولكن وسيلتكما قذرة .. أيها الشابان النبيلان ، ماذا

ستفعلان بجهدكما الضئيل ، لتخليص البشرية من ويلات الحروب ؟

بمجرد أن رفعت رأسى انقطع ما يدور بينهما من حديث . يبدو أنهما فهما سريعا بأننى أعرف اللغة التى يتحدثان بها ، لأنهما وقبل أن أنطلق بأية كلمة ، اصفر وجه كل منهما ، اصفرارا شديدا ، وبان الرعب فى عيونهما ، فقال أحدهما للآخر وكان الأمريكى :

ـ يبدو أننا فشلنا ، من قبل أن نبدأ .. لم نكن حذرين .. لقد خدعنا النذل بعدم إصغائه لنا .

لم أقدر خطورة الموقف إلا بعد أن لمحت غضبهما . لذا فقد استولى على رعب شديد . لقد خشيت أن يستل الشاب الأصغر سلاحا ، ويضربنى على الطريقة الأمريكية فى مثل هذا الموقف .. ولكنه لم يفعل . ربما لأنه لم يكن مسلحا . ولكننى ما زلت خائفا مما لا تحمد عقباه ، لذا بادرتهما بالقول دون أن أبدى أى نوع من الغضب ، وكان حديثى بالروسية :

ـ لا تخشيا شيئا .. لن أبوح بسركما .. بل إننى من المؤيدين لمشروع المؤسسة .. لقد أعجبت بالفكرة جدًا .. إنه مشروع هائل عظيم الفائدة .. إنه سينقذ البشرية من شر مستطير لو قدر له النجاح .. وأزيدكما قولا بأنى أرغب فى أن أكون من أعضاء المؤسسة المزمع إنشاؤها .

لقد قلت ، ما قلت فى نفس واحد .. لو لم أبادرهما إلى هذا القول المطمئن فالله وحده يعلم ماذا يكون من أمرى معهما . ونتيجة لهذا القول فقد خف روعها ، وهدأت حدة الخوف العاصف التى ألمت بهما لكنهما بقيا على ارتياب من صدق نواياى ، ولذا فقد لزما الحذر ، فلم ينبسا ببنت شفة .

فاستأنفت شارحا موقفى :

ـ فى الحقيقة كنت مزمعا الإيقاع بكما ، عندما علمت أن هناك قاتلا ومقتولا .. وأن جريمة على وشك الحدوث .. وهذا ما أعتقد أنه سيكون موقفكما لو تبادلنا المواقع ، فلا أحد يسمع بمثل هذا العمل ويتنصل من مسئولية تفادى حدوثه ، طالما أنه رغما عنه أصبح على علم به .. إلا فى حالة واحدة عندما يكون مجرما بالفطرة .. ولكن بعد أن فهمت الهدف الحقيقى من وراء عملكما أو اتفاقكما هذا .. وأن ما تقومان به ليس إلا إجراء وقائيا لما يمكن أن يصيب العالم من جراء تهور من هم فى مركز القيادة ، عندئذ كما قلت فهمت هدفكما على وجهه الحقيقى .. إنى لأرغب أشد الرغبة فى أن أكون من أعضاء هذه المؤسسة التى لم تطلقا عليها اسما بعد .. ولكننى أصارحكما القول منذ الآن بأننى لن أشترك فى أية عملية قتل فعلية ، لأننى أعرف عن نفسى بأننى جبان فى هذه الناحية العنيفة . ولكننى سأكون عضوا نافعا فى المؤسسة التى تناهض قيام الحروب أو التخطيط لها ، من تسلح ، وأحلاف عسكرية ومعاهدات دفاعية ، فهل تقبلان انضمامى إلى المؤسسة ؟ اجعلانى نواة لها .. وسوف أعمل جهدى على جمع الأتباع ، والأنصار فى شتى بقاع العالم .. وسيكون لنا الكثير منهم لأنه ليس هناك فى شعوب العالم أجمع من يريد الحرب أو يرغب فى الدمار ، وسوف أوقف جهدى وثروتى لهذه الدعوة فأنا رجل ثرى قادر على هذا العمل فهل تقبلان ؟..

ـ طبعا .. نقبل .. ولم لا ؟

ثم قال الروسى :

ـ إن ما تم بيننا وبينك شبيه لما تم بيننا .. دون سابق معرفة أو تخطيط .. يالصدف الغريبة لقد كانت لدينا فكرة واحدة ، لا ندرى كيف جرنا الحديث إلى التحدث عنها .. أذكر ، لقد قال أحدنا ، ولست أدرى من البادئ .. قال : إن كل رئيس دولة يبادر بالحرب ، أو يتخذ السلاح لتدمير الملايين من البشر ، وإن كل مخترع أو مكتشف أو مطور لآلات الدمار . كلهم جميعا عنصر شاذ فى تكوينه الإنسانى بل هو متجرد منه ، ودخيل عليه ، وليس له من صفته البشرية سوى الرمز ، وهو صورته فقط ، ومن الواجب على كل من يعى ذلك أن يعمل على تخليص البشرية من هؤلاء الداخلين عليها المدمرين لوجودها .. ولذا لسنا ندرى حقيقة كيف قال أحدنا للآخر ، ما قاله .. ولا ندرى من هو الذى بدأ بالقول عنه ، لأن الفكرة كانت فى ذهن كل منا .. لقد قال أحدنا للآخر أيضا :

ـ لو كانت هناك هيئة أو مؤسسة تحاسب هؤلاء المجرمين على أعمالهم أو تعمل على التخلص منهم لأصبحت البشرية فى سلام دائم .. ثم لا ندرى كيف تم الاتفاق بيننا على ما اتفقنا عليه وهكذا ترانا غريبين عن بعضنا ، ولكن تجمعنا فكرة واحدة شعر كل واحد منا أنها تربطه بالآخر ، أكثر من رابطة الدم .. لذا لن يكون لدينا مانع من أن تنضم إليها كعضو عامل مهمتك إنشاء المؤسسة ، وأنت حر فى أن تطلق عليها ما تشاء من الأسماء .. أما نحن فسنقوم بالمهمة التى ندبنا نفسينا لها ، وتعاهدنا على تنفيذها . ولن يكون بيننا وبين بعضنا ، أو بينك أى اتصال إلا فى حالة نجاحنا فى المهمتين معا . أما أنت فنحن منذ الآن نعطيك الحق فى أن تنشىء المؤسسة سواء نجحنا أم فشلنا .

وأثناء كلام الشاب ، كان الآخر يصغى إليه إصغاء من ينيبه عنه فى الحديث ، أو كأنه صدى لما يجيش فى نفسه من معنى ، بحيث إنه لم يعترض بكلمة ، أو يبدى رأيا مخالفا . وإنما فقط يهز رأسه بالموافقة بين آونة وأخرى على كل مقطع أو جملة تامة ..

فقلت منتهزا فرصة ثقتهما بى :

ـ كلا .. لن نخضع لظروف الفشل .. أى يجب ألا نضع أنفسنا فى موقف يحتمل الفشل .. فقالا بحماس :

ـ هل لديك فكرة جديدة ؟. نعم .. نحن لا نريد الفشل ..

فقلت وأنا أنتقى الألفاظ :

ـ لو أننا نحن الثلاثة جعلنا من أنفسنا نواة المؤسسة التى تدعو إلى السلام ، عن طريق السلام ، دون أن تقوم هذه المؤسسة بأية أعمال عنيفة ، عندئذ لن نخضع لأى عملية فاشلة .

فنظر الاثنان إلى بعضهما . وكانت نظراتهما تعكس شعورهما بخيبة الأمل فى رفيق قوى مثلهما ، ثم قال الأمريكى :

ـ قد لا يكون احتمال الفشل واضحا للمؤسسة التى تدعو لها .. ولكن فى نفس الوقت لن يكون هناك نجاح مؤكد حاسم .. يدعم وجودها بحيث يهز ضمير العالم ، المسترسل فى سباته العميق ، والمخدر عن الإحساس بمشاكله بفعل ضغط هذه المشاكل عليه ، فلن تكون أية دعوة مهما بذلت فيها من جهد ذات أثر فعال .

فقلت بحماس أكثر :

ـ سنجعل لها عملا يدعم وجودها .. وذلك بأن يكون لها نشاط مكثف .. ونعمل بإخلاص شديد ، ونستميل إليها الرءوس الكبيرة ، من الرؤساء ، والعلماء والعباقرة المطورين لآلات الدمار .. سنعمل جاهدين على أن تنجح . فضحك بسخرية .. وعاد الأمريكى

إلى القول : دعنا نسألك : لماذا لا يكون لمؤسسة الأمم المتحدة مثلا أثر فعال للقرارات التى تتخذها ؟ لماذا لا تنفذ لها الكثير من الدول هذه القرارات ؟ لأنه ليس هناك عقاب رادع .. ليست هناك سلطة حقيقية تجبر على تنفيذ القرار . فقد شبعنا من قرارات الكلام .. أما نحن فستكون قراراتنا عملا ينفذ .. ليكن لك ما تريد .. طالما أنك جانح للسلم الخاص بنفسك ، مهما كان ثمنه حتى لو كان العالم أجمع يذهب وقودا له .. قم بإنشاء مؤسستك الداعية . حسب ما تراه أنت مناسبا .. أى حسب الفكرة التى تتملكك . ونحن نرحب بها .. بل وسننضم إليها فى حالة نجاحنا . وكذلك سندعو إلى الانضمام إليها .. ولكن نرجو أن تكون قراراتها منفذة . وإلا سننشق عنها لتكوين مؤسسة ذات قرارات لها فعالية حقيقية .

وقال الآخر مكملاً حديث زميله . وكان ما يفكر فيه أحدهما امتداد لفكر الثانى :

ـ لا تظن أننا نحبذ العنف للعنف .. إننا سنقوم بهذه العملية الأولى ، للفت الأنظار . ثم بعد ذلك قبل أية عملية من هذا النوع ستقدم إنذارات ، لمن كان عليه الدور ، فمن ارتدع ، كان هذا أعز ما نطلب ، ومن تصامم عن النداء يكون هو نفسه قد حكم على نفسه بالعقاب الرادع . فعند ذاك يتحتم علينا إزالة تلك البؤرة العفنة من وجه الإنسانية المشرق كى يظل على إشراقه .

رأيت من الصعب زحزحتهما عن فكرتهما .. لاشك أن لديهما نوعا من الانفصام فى الشخصية أو ازدواجية فى التفكير . ففى الوقت الذى يرغبان فى مقاومة الدمار الناتج عن الحروب ، وحماية الإنسانية من الانقراض ، يميلان إلى أعمال العنف ، ويتخذان من السبب الأول مبررا للثانى :

ـ حسن .. يا صديقاى .. إنها فكرة حسنة ، مكافحة الحرب بالحرب ، ولكن الأحسن منها فكرة محاربة الحرب بالسلام .

فقال الأكبر سنا :

ـ نحن لا نختلف معك فى وجهة نظرك هذه .. ولكن المؤلم أنها كأى من وجهات النظر الأخرى . مجرد قول يقال .. ثم كل شىء يذهب أدراج الرياح .. لا نتيجة واضحة .. قبضة من الريح ، هذا كل ما نجنيه من إطلاق الشعارات ، لكن الفعل هو أساس المتغيرات .. وهو المسبب لها .. لا تغير بدون فعل ملازم له .. إن المجازفة التى نهم بها تستحق التضحية منا .

إذن .. يتحتم قيام مؤسسة عالمية مهمتها تقويم سبل الحكام فى الإدارة العالمية .. وتقويم سبل العلماء أخلاقيًا ، حتى ولو عن طريق القوة المدمرة لهم كى يوجهوا علومهم وجهة مفيدة فى سبيل خدمة الإنسانية ، وليس إلى تدميرها . وحتى لو أدى ذلك الأمر إلى قتل وسحق رءوس تلك الأفاعى . نعم إنه القتل ، ولكن فى سبيل السلام . لذا ستكون هناك مؤسسة عالمية ، مهمتها إقامة محكمة عدل تصدر حكمها بالإعدام ، على كل شخص يعطى قرارات الحرب أو يطور آلاتها ، أو يدعو لها .. أو ..

قاطعته : ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة .. فقال بحدة :

ـ نحن لا نخوض فى الأمور الفلسفية .. نحن أرباب الواقع العملى .. لأن الحياة لا تستمر بالفلسفة ، وإنما بالفعل .. لقد أوجدت الحياة العمل ، قبل إيجاد الفلسفة .

إن الأمور الفلسفية زهور مجملة لأمور الحياة . بل هى كمالياتها وليست منشأها ، لذا فالحياة يمكنها أن تستمر بدونها بينما لا يمكنها أن تستمر بدون العمل بل هى تستطيع الاستمرار بالعمل

وحده دون فلسفة ملازمة له .. ولهذا لا تحدثني مجادلا من هذا المنطلق .. ربما أستطيع تقبله منك من زاويته الأخلاقية فقط ..

نعم إنك تقول ، إن القتل إجرام .. وأنا أوافقك على هذا الرأى .. ولكن إذا كانت الأخلاق لا تتعارض مع الرياضيات ، فإن قتلك حفنة من البشر أفضل من قتل الملايين منهم .. إذن فالتضحية بالجزء فى سبيل المجموع واجب ، خاصة إن لم يكن لك مناص غير ذلك .

ــ ولكن هناك مناص .. أسرعت بذاك القول .

فرد الأمريكى ، وكأنه يتم حديث رفيقه :

ــ كلا .. أتريد أن تقول بالدعوة إلى نبذ التطاحن ، والحد من الأسلحة ومن ثمّ عقد المؤتمرات ، وإطلاق الشعارات ، وبذل الجهد تلو الجهد .. لقد ثبت فشل أمثال هذه الطرق .. إذن فليس هناك مناص غير العمل لإثبات القول .

عرفت أن كل جدل مع هذين الشابين سيذهب أدراج الرياح .

فقلت يأسًا :

ــ لا تذكرا اسميكما ، كى لا تؤدى بى فكرة ما ، إلى إفشاء سركما .. لن آت على ذكركما لأحد .. سوف نفترق أصدقاء . تقديرًا منى لكما .. لأنكما اللذان أوحيا إلىّ بفكرة مؤسسة السلام العالمى ، وسيكون هذا اسمها لن يكون لى اتصال بمؤسستكم التنفيذية ، كما تدعونها ، لأننى لا أومن بأن الشر يمكن أن يكون طريقًا للخير .

وانطلق صوت المضيفة ، مرة أخرى ينبئ عن اقتراب قيام الطائرة المتجهة إلى لندن .

فتحرك الأمريكى مودعًا كلاً منا ، فتمنى له صاحبه النجاح فى

مهمته .. أما الروسى فقد سمع من نفس المذياع أن طائرته تقلع فى صبيحة الغد .. وخطر لى أن أصطحبه إلى المنزل .. ولكنى أبعدت الفكرة خشية أن أعرف عنه المزيد مما لا أرغب فى معرفته .. وهكذا افترقنا ، وعدت أنا إلى منزلى بعد أن فوتّ على نفسى رحلتى . وذهب هو لا أدرى إلى أين ربما إلى أحد الفنادق .

مضى ما يقارب الخمسة أشهر بعد ذلك الموقف لى مع هذين الشابين ، لم أنسهما خلالها قط . بيد أن أملى كان كبيرًا أنهما للصعوبات التى سيلاقيانها لن يقوما بما اعتزماه من عمل ، خاصة وأن كلا منهما ليس له من يؤازره فى مهمته ، على الرغم من أننى غير متأكد من أنهما لن يعتزما الاستعانة بأحد غيرهما .. إلا أننى اطمأننت إلى هذا الخاطر نوعًا ما فقلت لنفسى مرارًا : لعلها فترة جيشان العواطف لشابين فى لحظة انفعال بالأحداث ، لا تلبث أن تهدأ حدته . بعد أن يفكرا فى عواقب ما تجره العملية عليهما من مخاطر .

وطبعًا أعدت رحلتى التى ألغيتها فى ذلك اليوم .. ولكن فكرة مؤسسة السلام العالمى ظلت مسيطرة على ذهنى ، ولم أستطع التخلص منها حتى بدأت بالتخطيط لها فعلاً ، فاستأجرت لها مبنى صغيرًا وعينت فيه بعض الموظفين .. ووضعت بالاشتراك معهم برنامجًا طويل الأمد ، وأخبرتهم بأن نجاحهم أو فشلهم أمامى يعتمد على تنفيذ ذلك البرنامج كل فى وقته . نعم لقد قررنا معًا أنه يجب أن يكون أعضاء المؤسسة ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مليون شخص من أصل خمسة آلاف من مختلف أنحاء العالم ، وذلك خلال ثلاثة أعوام على الأكثر ، وعلى أن تكون الدعوة شاملة

للجميع وباب العضوية مفتوحا للكل ، والعمل فى برنـامج الدعوة متاحا لجميع الناس وليس على الفرد أو الجماعة أو حتى الدولة سوى دفع رسم رمزى نظير العضوية فى المؤسسة حتى تغطى مصاريف الإعلام عنها .

وها هى الآن قائمة فمن يرغب فى الانضمام إليها فأهلا به ؟

لقد سبق أن قلت بأنى اطمأننت نوعا ما ، ومع ذلك لا أخفى سرًا إذا قلت إننى أثناء الصعوبات التى واجهتنى عند تشكيل المؤسسة كدت أقتنع برأى الشابين بعدم جدوى مؤسسات الكلام ، ولكن لم يكن لى بد غير ذلك ، فلست من الشجاعة مثلهما ، ولا أخفى سرًا أيضا فقد ظللت فترة يتنازعنى عاملان . الأول ندمى على تركى لهما دون معرفة اسميهما ، ودون أية معلومات عنهما .. لست أدرى لماذا وقعت تحت تأثير منطقهما فى تبرير انحرافهما إلى الجريمة .. مما حز فى نفسى لأن سكوتى عن الإخبار عما يزمعان القيام به يعتبر مشاركة ضمنية منى لهما فى جرمهما . ونازعتنى فكرة بأن أرسل رسائل تحذيرية إلى الذين سيكونون الهدف الأول للعملية .

ولكن العامل الآخر ، والذى لا أعرف له اسما يعود فيمنعنى عن إفشاء سرهما ، ملغيا كل حججى المنطقية ودون إبداء الأسباب .. لقد كانت عواطفى مع الشابين وضميرى ضدهما ، وعقلى فى موقف الحائر بين العاملين ، لا يدرى إلى من ينحاز .

ولإراحة نفسى من تأنيب الضمير ، كتبت هذه القصة أنبئ بها ، فمن أراد أن يصدقها فله ذاك ، ومن أراد أن يكذبها فله شأنه أيضا .

ولكن المهم أن أكون قد خرجت من دائرة كتمان السر .

ولكن لحظة .. لحظة أخرى فالقصة لم تكتمل بعد . ففى عشية إتمامى لها وعزمى على نشرها ، وقد هدأت هواجسى ، شدت انتباهى أنباء من الراديو تقول إن رئيس دولة عظمى تعرض لعملية اغتيال . فتأكدت عندئذ أن الشابين كانا جادين كل الجدية فيما خططا له . وسمعت أيضا أن القاتل قبض عليه فخمنت عندئذ أن الشاب الآخر سوف يؤجل مهمته حتى يتأكد من أن زميله فى التخطيط لن يأتى على ذكر اسمه فى التحقيقات ، وحتى يبحث له عن زميل مناظر يقوم بمواصلة المهمة التى فشل فيها صاحبه .

ولكن بعد فترة تبين أن القبض تم على قاتل غير حقيقى ، حيث لا تزال حوادث الاغتيال مستمرة لرؤساء تلك الدولة العظمى . وآخرها تعرض آخر رئيس لها لعملية اغتيال فاشلة ولكن الجانب الآخر لم أسمع من طرفه أية أخبار ، فإنه مغطى بستار حديدى من الكتمان ، وأنا انتظر . وسأبقى هكذا مشدود الأعصاب كل يوم أتوقع أنباء جديدة .

* * *

٣ ـ سعيـدة ..

(سعيدة) فرس أصيلة لونها أسود له بريق أخاذ ، تسابق الريح فى جريها ، تهز رأسها عادة عند التهامها قطع السكر ، فكنت أتخيل أنها تومى بالشكر لمقدميه لها .

كانت هذه الفرس يملكها جدى ويعتنى بها ولا يدع أحدًا يقترب منها ، أو يطعمها أو يفرك شعرها غيره ، ولكنه مع ذلك يسمح لى أحيانا بالركوب على ظهرها أمامه .. كنت حينذاك فى الخامسة من عمرى ، فكنت أفرح بهذه النزهات التى قد تطول أو تقصر لا لشىء إلا لمتعة الركوب على ظهر (سعيدة) العزيزة المدللة . وكان فى اعتقادى آنذاك أن لا يعادل معزتها عند جدَى أحد إلا أنا ، لأنه كان يدللنى مثلها ، ويمسح شعرى مثلها ، ويجلسنى على ركبتيه ليقص لى القصص الخرافية التى تلهب خيالى ، وتجعلنى أعيش فى أجوائها بعيدًا عن عالم الواقع ردحًا من الوقت .. كنت أظن أنه يفعل مع (سعيدة) مثلما يفعل معى وهو يهمس لها بغمغمة لم أكن أفهمها ، ولكنى كنت أتصورها نوعًا من قصص الحيوانات المسلية لهم .. فكنت أحس بوشائج تربطنى بتلك الفرس نابعة من محبة جدَى لكلينا .. لذا كنت دائمًا أقوم بالمسح على ظهرها وأغمغم أثناء ذلك مقلدًا صوت جدَى .. لم أكن أفهم ما أريد قوله لها ، وبعد أن كبرت فهمت فقط أنه لا الفرس ولا جدَى يفهمان ما كنت أغمغمه ، لذا كنت أؤول تلك الضحكات المرحة التى تخرج من حنجرة جدَى فى قرقرة تشبه قرقرة الماء الخارج من فم إناء زجاجى ضيق .. كنت أؤولها بفهمه لما أقول للفرس ، وأنه يضحك لما فيها من نكات ، فأشاركه الضحك لأدعى أننى فاهم غمغمتى أيضًا .

وفى يوم ما كنت مع جدَى نطعم الفرس ، أخذت أمسح لها جلد فخذها وأنفض عنه الغبار .. حركت الفرس ذيلها الأسود اللامع الطويل ذات اليمين وذات الشمال لطرد الذباب عن ظهرها وجنبيها ، فأصاب طرف الذيل الذى يشبه الأسلاك المضمومة الناعمة ، صفحة وجهى وضرب طرفه الدقيق مقلة عينى اليسرى فى الصميم .. تراجعت إلى الخلف صارخا وضاما كلتا يدى على عينى ، ففزع جدَى وحاول أن يرى مدى إصابتى ، ولكنى رفضت فتح عينى ، فحملنى وأدخلنى المنزل حيث غسل وجهى وأجلسنى على ركبته وقد أفرغ كل ما تحويه جيوبه من نقود فى حضنى محاولا التسرية عنى وصرف انتباهى عن آلام عينى ، وقد أفلح نوعا ما ، لأنى فتحت عينى ولكن الدموع أخذت تنهمر منها دون بكاء منى ، حدَق فيها جدَى ، ومن منظر وجهه العابس علمت مدى ألمه لما أصابنى ، ولكنه كظم ما به وأخذ يداعبنى ويلاطفنى جهد طاقته ، وقد بدا لى حين ذاك أننى إن لم أنس ما أنا فيه من ألم ، أزيد من تعاسة جدَى فرددت له الابتسام مرغمًا ، ودفنت رأسى فى عنقه الغليظ مخفيًا دموعى .

أخذ جدَى فى كل يوم من الأيام الثلاثة التالية لإصابتى ينظر إلى وجهى مدققًا مغضنًا زاويتى عينيه ومقربًا بين جفنيهما ، فكنت أفهم من ذلك أنه يريد أن يرى تماثل عينى للشفاء ، ولكن كان وجهه يزداد عبوسًا كل يوم عن اليوم السابق له ، فكنت أحاول جهدى التخفيف عنه بفتح عينى بقدر ما يتسع لى محجراهما وأنا أنظر إلى وجهه الذى يبدو لى وسيمًا رغم تغضنه ، وموحيًا إليه أن ما بى لا يستحق تكدير صفونا أنا وهو والفرس العزيزة ، التى أصبحت مهملة فى تلك الأيام ، لأنه جعل جلَ وقته وقفًا على ،

وأوكل أمر العناية بها إلى أىّ فرد فى الأسرة يتذكرها .

وفى مساء اليوم الرابع وبعد عودتنا من لدن الطبيب الذى برهن بما لا يقبل الشك أنه لم يعد فى استطاعتى استعمال عينى اليسرى للرؤية بسبب ما تكوّن على عدستها من بياض بحجم حبة العدس .. عدنا أن وجدّى إلى المنزل وكأن على رأسينا الطير كما يقال فى الأمثال .

وبعد العشاء سمعت صوت أبى يعلو على صوت جدّى ، وذلك لم يكن يحدث أبدا ، فأصخت السمع وقلبى منقبض وحنقى شديد على أبى لقسوته على جدّى بهذه الصورة . وعندما انضممت إليهما سرعان ما غيرت رأيى ، وآزرت أبى فى توسله إلى جدّى ألا يبيع الفرس كما صمم أن يفعل . قلت له : إنها ليست إلا حيوانا أعجم لم تقصد إيذائى أبدا ، وإن الأمر ليس إلا صدفة عمياء تعثرت بى ، كانت تلك كلمات أبى ، ولكنى كنت أرددها خلفه بكل حماس حتى أقنع جدّى بالعدول عن رأيه . ولكن كل محاولة منا ذهبت أدراج الرياح .

وقبل اليوم المقرر لبيعها نمت ليلا وأنا فى أشد حالات التوتر ، قلق لا يقر لى قرار ، غير قادر على مجرد تصور عيشى وجدى بدون (سعيدة) ، وقد انتابتنى فى تلك الليلة أحلام مختلفة ، مرة أرى جدّى على ظهر (سعيدة) وهو يطير فى الهواء فأضحك جذلا فيوقظنى ضحكى ، أو أرى عينا جدّى وقد غشاهما البياض فأصرخ حزنا ، ليوقظنى صراخى ، فى كل مرة أستيقظ أرى جدّى قرب فراشى يقرأ بعض آيات القرآن لتهدئتى ، ويشارك أمى المسح على رأسى ، فكنت ألوذ به منه ، متوسلا أن يترك (سعيدة) وشأنها ، ولكنه كان يغضب منى لدى سماعه ذلك ويقصينى

عنه . فتحاول أمى إعادتى إلى النوم .. وأنام إرضاء لها ولكن سرعان ما تعاودنى الأحلام مرة أخرى .

مرّ شهران منذ أن بيعت (سعيدة) وأنا وجدّى لا يواسينا أو يروح عنا شىء .. كنا نجلس على عتبة باب الدار صامتين أغلب الأحيان ، وعندما يحثنى على اللعب ، أقوم بقذف حصى بقدمى الحافية ، وأراقبه وهو يطقطق خرزات مسبحته .. لقد كان يعلق الخيط بصورة عمودية ويسقط الخرزات واحدة إثر الأخرى حتى إذا انتهت يعود يعلقها من الطرف الآخر ، وهكذا .. كنت أعرف دون أن أنظر إليه متى يتم إسقاط جميع الخرزات وذلك من الفترة الزمنية البسيطة التى يتوقف فيها ، فكنت أثناء ذلك أختلس إليه النظر فأراه هو الآخر يختلس النظر إلى مربط (سعيدة) القريب من باب الدار إلى الداخل منه ، وعلى وجهه أمارات أسى شديد يعجز قلبى الصغير عن مشاركته حمله . ولكنه ما إن يلمح اتجاه نظرتى حتى يستعيد بصره سريعا ويرسم على وجهه ابتسامة عريضة ويبدأ يلقى إلىّ بسلسلة من النكات ، يداعب على أثرها ضلوعى البارزة لقلة ما يغطيها من اللحم ، ولا يتركها حتى أستلقى من الضحك .

ولكن كل هذا لم يرفه عنى كما أنه فى يقينى لم يرفه عنه ، وإن حاول كل منا أن يخفى ما به عن الآخر .

وفى مساء أحد الأيام أحسست أكثر من أىّ وقت آخر أن حياة جدّى أصبحت خابية البريق ، خالية من الأمل والتوقعات ، كانت هذه المعانى تتوارد إلى ذهنى دون أن أعى لها اسما أو أفهم لها معنى ، وإنما أحس بها إحساسا داخليا مكثفا فى أعماقى فصممت أنه لابد من عمل شىء يعيده إلى سابق عهده .

عندما يمر فى خاطرى ذكرى منتصف تلك الليلة الحالكة السواد أعجب أشد العجب كيف واتتنى تلك الشجاعة الخارقة لعبور الفسحة الواسعة الواقعة بين منزلنا ومنزل المالك الجديد للفرس (سعيدة) ، وكيف كنت أسير على أطراف أصابعى كما يسير الشخص فى حلم . حتى نباح الكلاب فى الأطراف المترامية للفسحة لم يفزعنى ، ولكن عجبى يكون أشد ، كيف بعد ذلك استطعت مقاومة النوم حتى ساعات الصباح الأولى ، حيث لم يغمض لى جفن إلا بعد أن سمعت صوت جدى يتحدث فى صياح وهياج مع صاحب الفرس الجديد ويضحك مجلجلا ، فأغمضت عينى وسقطت سقوطا من أشد حالات الصحو وعيا إلى أشد حالات النوم عمقا حتى موعد أذان العصر عندما أيقظنى جدى ضاحكا (لقد صبرت عليك طويلا .. كنت أتمنى فى كل لحظة أن تستيقظ) .

ورغم سذاجتى آنذاك عرفت كيف أتصنع الدهشة فتساءلت باستغراب (ماذا فعلت) ؟..

فقال متصنعا الغضب « كيف تستولى على الفرس وقد أصبحت ملكا لغيرنا ؟ .. « ولكنى اشتريتها » فعاد يضحك رغما عنه (كيف ؟) .. فقلت :

لقد تركت فى مربطها المصاغ الذى تدخره والدتى قبل أن آتى بها إلى هنا ... لقد دفعت أكثر من ثمن أى فرس فى العالم .

ثم عاد يقول معاتبا : لو لم يكن صاحب الفرس أمينا ويكتفى فقط باستعادة الثمن لغضبت والدتك من ضياع مصاغها .

فقلت وأنا أفرك طرف أنفى المبتل فى شعر لحيته الكث الخشن :

كــلا لن تغضب .. إنها تحبك مثلى ، وضغط ضلوعى بين

ذراعيه .. حسن .. حسن .. أو لم تكن تخاف الظلام ؟ .. فكيف ذهبت فى منتصف الليل ؟.

فقلت صادقا .. لقد نسيت أن الوقت ليلا .

فضحك طويلا ، وقبلنى وهو يحملنى ، وقبل أن ينزلنى عند مربط الفرس حذرنى من الاقتراب منها قائلا : إذا أردتنا أن نحتفظ بهذه الفرس فإياك والاقتراب منها .

فقلت محتجًا :

ــ ولكنى أحب أن أطعمها وأنظف شعرها مثلك يا جدى .

ــ ليكن .. ولكن ليس الآن .. ستفعل ذلك ، ولكن بعد أن تضع نظارة على عينيك تحميهما من لفح ذيلها الشيطانى .

واستعدنا ــ جدى وأنا ــ سعادتنا باستعادة (سعيدة) .. لم أكن أقدر حينذاك مدى الخسارة التى لحقت بى بسببها ، فلم أحقد عليها كما أفعل الآن .. ولكنى مع ذلك لم أندم يوما على استعادتها من أجل جدى رحمه الله .

* * *

٤ ـ مذكرات خادم ... (الجزء الثانى) ..

تمهيد :

لعل منكم من يملك المقدرة على تذكرى .. إننى لا أعدو كونى ذلك الصديق للعائلة ، الذى ترجم لها الجزء الأول من (مذكرات خادم) .. ذلك الخادم الذى كان يعمل لديها . إن كنتم قرأتم الجزء الأول منها .

ولعلكم تذكرون أيضا ، أنى فعلت ذلك بطلب من صديقى رب العائلة ، على الرغم من أنه لم يقرأها ، ولم يعرف ما بها ، بعد أن دفع إلىّ بها لترجمتها . حتى أنه مات رحمه الله وهو يجهلها .

وبعد ترجمتى لها ونشرى إياها ، بذلت قصارى جهدى للتعتيم عليها ، وذلك لاتصال موضوعها بزوجته . وقد ساعدنى على ذلك التعتيم عزوفه عن قراءة الأعمال الأدبية بعمومها .

وها أنا هذه الأيام أقوم بترجمة الجزء الثانى من مذكرات نفس الخادم . ولكن بطلب من زوجته هذه المرة . لقد سبق لها قراءة الجزء الأول منها ، دون أن أعرف ذلك طيلة الأعوام الماضية ، بسبب أنها لم تشر إلى ذلك البتة ، على كثرة زيارتى لهم ، وعلى كثرة ما كنّا نتناوله من مواضيع أدبية فى مناقشات ، تكاد تصل أحيانا إلى حافة الشجار بينى وبينها ، حتى يتدخل بيننا صديقى ، طالبا تغيير موضوع الحديث الذى لا يطيقه . لقد كانت فيما بدا لى فى تلك الأيام على العكس منه تماما ، هاوية للأدب بعمومه ، ذواقة ، وقارضة للشعر منه بصفة خاصة .

وهاهى الآن تريد أن تعرف ماذا يخصها فى هذا الجزء الثانى .

إن هذا الجزء مثل الذى قبله يخصها بكامله . بل إنه لم يكتب إلا من أجلها .

عندما دفعت لى بهذه المذكرات قالت لى :

ــ إنك قمت بترجمة الجزء الأول منها ، ومن حقك أن تأخذ الجزء الثانى لترجمته ، بدلا من أى امرئ آخر .. وكما لا يخفى عليك أنا أرغب فى الاطلاع عليها بنفس أسلوبك فى الترجمة .

لكى أقوم بترجمة هذا الجزء ، اشترطت علىّ زوجة صديقى هذه أن أقوم بنشره ، مثلما فعلت فى الجزء الأول ، الذى نشرته دون أخذ موافقة من أحد ، حتى من كاتبها نفسه ، الذى ظننت قبل أن يقع فى يدى الجزء الثانى ، أنه لا يعلم عن مصيره شيئا ، بعد أخذى إياه فى ذلك الموقف العصيب .

وافقت زوجة صديقى على شرطى على مضض ، وبعد أن اشترطت هى الأخرى علىّ ما تريد من شروط . أهمها أن ترى الترجمة قبل نشرها . لترى إذا كان ثمة ما يجب حذفه منها قبل النشر ، وكذلك اشترطت تغيير الأسماء حتى لا يكتشف اتصال الموضوع بشخصها . ولكنى طمأنتها ، فالكثير من الناس فى دولة (تيوك) لهم خادم مثل خادمها .

وها أنا الآن أتم ما بدأت به منذ ثلاثة عشر عاما ، بعد أن وقر فى ذهنى أن ذلك الخادم قد تاب وأناب ، عن كتابة المذكرات التى تخص منزل صديقى ومن فيه ، بعد ذلك الموقف العصيب الذى حصل بينى وبينه عندما أعلمته بوقوع الجزء الأول منها فى يدى ، وهددته آنذاك بإبلاغ سيده بما يحويه عن زوجته .

أجل ، ها هو الجزء الثانى يقع فى يدى مرة أخرى ، بعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الموقف .

* * *

١٨ / ٦ / ١٩٨٩

لقد أمضيت أكثر من ثلاثة عشر عامًا على وجودى فى دولة (تيوك) ، تطورت خلالها علاقتى بسيدتى ، وبكل أفراد الأسرة . وكما ذكرت فى الجزء الأول من هذه المذكرات التى وقعت بيد صديق سيدى ، الذى يبدو أنه برّ بوعده لى فلم يقدمها إلى سيدى ، وإلا لكنت طردت من الخدمة ، فأتلفها غير عالم بأن لدى نسخة منها . كما ذكرت فى ذلك الجزء ، أنى جلبت معى زوجتى ، التى تسلمت خدمة المنزل منذ ما يزيد على عشرة أعوام ، أما أنا فقد رقيت إلى العمل مزارعًا لحديقة المنزل فى أوقات فراغى ، وبعد عودتى من المكتب التجارى الذى تملكه وتديره سيدتى ، بعد افتتاحها له منذ استقالتها من مهنة التدريس التى كانت تزاولها فى بدء عملى لديها .

فى هذا المكتب كنت أعمل مراسلاً داخليًا ، أنقل الإضبارات والملفات من مهندس إلى آخر ، أو من وإلى السكرتارية .. وأحيانا قليلة أصب الشاى أو القهوة للضيوف أو العاملين ، أو أنظف المكان فى حال غياب خادم المكتب المختص بهذه الأعمال .

هذا كل ما كان فى مقدورى الارتقاء إليه ، بعد مهنة الطبخ والتنظيف التى كنت أزاولها داخل المنزل فى السنوات الماضية .

عند ترددى بين المكتب والمنزل الخاص بسيدتى ، الشبيه بالقصر ، والذى أسكن الملحق فيه مع زوجتى منذ التحاقنا بالخدمة . كانت سيدتى هى التى تقلنى فى كثير من الأحيان فى عربتها المرسيدس الحمراء .. إنها تهوى اللون الأحمر ، مع أن مزاجها ليس دمويًا ، أو صفراويًا ، أو حتى تشاؤميًا ، فهى تكاد تطفح بهجة وتفيض بها على كل من حولها .

قالت لى فى بدء انتقالى للعمل فى المكتب:

ـ لا داعى لأن تستقل أى نوع من المواصلات ، إنى سأوصلك ، لأن طريقنا واحد .

طريقنا واحد ..

رددت هذه العبارة طويلاً مع نفسى .. ليت الأمر كان كذلك .

كانت تتركنى أحيانا فى المكتب بعد الظهر ، إذا لم يكن فى نيتها العودة إليه مساء ، ولكن لا يفوتها أن تطلب من أحد العاملين ، ممن يمتلك عربة خاصة ، إيصالى إلى المنزل بعد انتهاء الدوام المسائى ، وكنت أفرح بهذه الفرص ، فرصة تركى منفردا فى المكتب ، لكى أخلو إلى نفسى ، بعد انصراف كل العاملين ، أدون ما يعنّ لى من أفكار ، أو ذكريات .

وبما أنى أتقنت لغة أهل (تيوك) بطلاقة تامة ، أصبح فى مقدورى فهم كل ما يدور حولى ، وبتّ من المقدرة إلى الدرجة التى يكون فيها من الميسور أن أعزو السبب ، والمتسبب له إلى عواملهما الحقيقية ، سواء أكانت نفسية ، أم ظرفية مفروضة على مرتكبى تلك الأحداث ، من وجهة نظرى الخاصة على الأقل .

زوجتى تقول إنى شديد الذكاء .. بيد أنى لا أرى ما تراه .. وإلا لكنت ارتقيت فى حياتى إلى ما يبعدنى عن خدمة الناس ، ولكن قد يكون مرد ذلك إلى كسلى وليس إلى غبائى .. أو إلى أشياء أخرى ، منها شغفى بتدوين كل ما يدور حولى من نزعاتى ونزعات الآخرين ممن يحيطون بى .

ولعل من أهم الأسباب التى ربطتنى بهذا العمل ، ربط الحصان الحرون كوتد متجذر فى أرض صلبة ، هو ذلك الغرام الشديد بسيدتى ، الذى لم يهدأ له أوار على مرّ الأيام وكرّ الأعوام . أو لعله كل هذه الأسباب مجتمعة .

أحمد الخالق على أن زوجتى تتمتع بأمية مطلقة ، ليس فيما يخص القراءة والكتابة فحسب ، بل بكل ما يخص أعمال الفكر ، واستنباط الأسباب من مسبباتها ، وما يتبع ذلك من تخمين وحسن استنتاج . إنها كأحد كلاب بافلوف المهرة ، الذى يتقن اتبّاع علامة ، أو إشارة معينة لا تتغير ، فيعمل ما يراد منه عند رؤيته لها .

لو لم يكن الأمر كذلك ، لربما لم أنل هذا القدر من الحرية فى التعبير عن ذات نفسى ، وممارسة تصرفى كما أهفو إليه ، وقد يؤدى بى الأمر فى النهاية إلى الافتضاح ، وربما من أمد .

وعلى الرغم من أميتها المطلقة ، لم تمنعنى هذه الخلة من إخضاعها بالتدريب المكثف المستمر إلى ما أبتغيه من مساعدة ، فيما يخص الانتباه إلى كل ما يدور فى المنزل ، ويكون بعيدا عن ملاحظتى ، وذلك بممارسة سلطتى عليها ، لتقص على كل يوم ، كل ما مرّ بها من أحداث أو أقوال ، مهما كان تافها لا يسترعى الاهتمام ، وذلك بإخضاعها لعملية تحقيق مطولة ، كما يفعل رجل البوليس ، حتى أمست فى النهاية تزودنى بكل صغيرة أو كبيرة ، مما يدور داخل المنزل ، أو ما تسمعه من خارجه ، كعادة متأصلة فى طباعها .

لقد أصبحت عينى الثانية وسمعى الآخر ، دون أن تعى عن أمر تدوينى لكل ما تقول ، وكأنى رأيته بعينى أو سمعته بأذنى .

عودتها أن تنقل لى تفاصيل اليوم بحرفية النص ، دون زيادة أو نقصان ، وقد وعيت تماما ما يرضينى من دقة النقل ، ووصف الحالة على ما هى عليه .

يتعين علىّ أن أقول ، إنى أدون هذه المذكرات ، وليس فى حسبانى مطلب لأية فائدة ، ولا أدرى إن كنت سأفيد منها يوما ، أو أخسر بسبب منها كل شىء ، عملى وعمل زوجتى ، والأهم

منهما عطف سيدتى علينا ، فيما لو وقعت هذه المذكرات بيدها ، كما وقع الجزء الأول منها بيد سيدى رحمه الله ، ولكن ربنا ستر حين ذاك .

ومع ذلك من يدرى ؟.. لا أحد يعرف .

١٠ / ٧ / ١٩٨٩

أخبرت زوجتى منذ عدة ليال عن ذلك القدر من المال ، الذى جمعناه خلال هذه السنوات الثلاث عشرة .. وكان ذلك فى معرض حديثى لها عن قيامى بمراسلة أحد بنوكنا المحلية فى موطننا لافتتاح حساب باسمها الخاص دونى ، فى ذلك البنك ، ومن ثمّ تحويل كل ما ندخره من مال إليه .

كان هذا العمل منى إليها ، أشبه بترضية ضميرية لنفسى ، لانصراف هوى قلبى عنها . ولكنى كدت أندم على ما فعلت إذ بمجرد أن عرفت منى بذلك ، حتى أخذت بالإلحاح علىّ للسفر إلى بلدنا ، مقترحة افتتاح مشروع يغنينا شر الخدمة عند الناس ، كما تقول .

مسكينة هذه الزوجة الصبور ، لو كنت أريد ذلك لفعلته منذ أمد ، ولم يستغرق منى كل هذا الزمن ، ولكن ما يدريها ، وهى لا تملك حتى قدرا ضئيلا من ملكة التخيل .. ما يدريها ، بأنى مقيد بسلاسل غير مرنية إلى تلك السيدة (مخدومتى) ؟ وليس فى ميسورى الانفكاك منها ؟

لقد كبر أبنائى وتزوجوا ، وكبر ابنا سيدتى وتزوجا ، وأنا على ما أنا عليه ، أجد متعة وسلاما داخل هذا المنزل على مقربة منها ، أو فى مكتبها قائما على خدمتها ، ومن حولها ، ومتعة أكبر وأنا أدون كل يوم ما يعن لى من خواطر وأفكار ، خصوصا إذا كانت ذات صلة بها .

إن هذا العالم هو ما أبتغيه وأهواه ، وهو ما ينعش نفسي ويرضيها ، لا المجد ولا الثروة ، ولا أى شيء آخر .

وأظن أن السعادة هى الرضا .. وليس أكثر رضا منى بما أنا فيه . إذن لماذا أهجر واحة سعادتى بحثا عن مزيد من الثروة .. إن سيدتى برغم ما تملك من ثروة عريضة ، نمت بيدها بعد افتتاحها لمؤسساتها الثلاث ، نمو فأر التجارب العملاق بعد شربه لمحلول (الكادميوم) . ومع ذلك لا أحسبها سعيدة بما تملك .

على ذكر السعادة .. أنا وسيدتى على طرفى نقيض ، عندما تشعر هى بالسعادة ، أشعر أنا بالتعاسة ، والعكس صحيح أيضا . قد يكون هذا مضحكا ، أو نشازا فى علاقة المحب بمن يحبه ، بيد أن هذا هو واقع حالنا . طبعا إنها لا تعلم بهذا التناقض العجيب ، وإلا لطردتنى من خدمتها .

شيء غريب أن يحس المرء بالسعادة لتعاسة الآخرين ، على الرغم من استعداده للتضحية بكل ذرة من كيانه لإسعادهم ، أو بذل روحه فداء لهم ، بيد أن هذا ما هو حاصل .

أذكر أنى لم أحزن لموت سيدى ، على الرغم من أنه أحسن معاملتى فى أواخر أيامه . أما هى فقد كانت أقرب إلى الموت من شدة حزنها عليه .

كنت أظهر التجهم طيلة النهار .. أما فى المساء ، فقد كنت أنام قرير العين ، وكأن العالم خلو من الهموم ، حتى أنى تهورت ، فأخبرت زوجتى عن مبلغ سعادتى لموت سيدى .. وعندما بهرت للنبأ الشاذ ، وبانت الدهشة المريبة جلية فى عينيها ، وأصبحت على وشك أن تساورها الظنون ، استدركت الأمر سريعا . فقلت :

ـ إنه دوما يسيء معاملتى .. ويهيننى المرة تلو الأخرى .

وذلك عندما أكون بعيدا عن مرمى البصر منها ـ أى زوجتى .

وأذكر أيضا شدة حزنى وألمى البالغين ، ويأسى من الدنيا والحياة ، كل ذلك لمرأى سيدتى وهى تكاد ترقص طربا وتطير فرحا لزخم السعادة التى كانت تستشعرها ، وقد وقعت فى غرام أحد المهندسين ممن كانوا يترددون على مكتبها التجارى ، بعد موت سيدى بأعوام قليلة . وكادت تتزوجه ، بل وعملت المستحيل لتحصل على موافقة ابنيها ، بيد أنه رحمة بى لم تحصل على تلك الموافقة .

كم آلمها رفضهما ذلك ، وكم أثلج صدرى وأسعدنى .. بيد أن الكابوس لم يرحل تماما ، فما زال تهديده قائما ، فهو لا يفتأ على اتصال هاتفى معها .. آملا أنها ربما رضيت به زوجا لها يوما ما .

٢٠ / ٧ / ١٩٨٩

إن كتابة المذكرات نوع من أدب الاعتراف .. وبما أنى قررت أن أعترف بكل صدق لعل الله يغفر لى ، أو لعلى أنال من العقاب فى يوم ما ، ما يؤدى إلى الغفران لى ، فلا يثقل كاهلى بتأنيب الضمير ، لذا فأنا أقدم دليل إدانتى لمن يقرؤنى ، فيما لو أتيح له ذلك ، على الرغم من أنه ليس فى نيتى ـ وأقول ذلك بإصرار شديد ـ أنه ليس فى نيتى إظهار هذه المذكرات ، فكل عزمى أن أخفيها عن أن تصل إليها الأيدى ، أو تبصرها العيون ، هذا فيما لو خضع الأمر إلى إرادتى .

بيد أنه لا أحد يعلم ماذا سيتم بغير إرادة ، قد يتكشف الأمر عنها يوما . ويومها أكون قد استحققت العقاب ، ولا مرد عندئذ لذلك .

قد يكون هذا العقاب معنويا من نوع الاحتقار ، أو الازدراء ..

أو قد يكون غير ذلك .. إنما المهم ، أنــه لـن يتم بإرادتى ، ولـن أعرض نفسى لأى نوع منه .. ومع كل هذا لا أنوى تمزيق أو إتلاف ما أنا كاتبه ، وما سأكتبه ، مهما كانت النتائج وبالا علـىّ ؛ فهو خلجة من نفسى ، بل قطعة منها يعزّ علىّ إعدامها .

ولنبدأ مرحلة الاعتراف .

أول خطاياى أنى أغرمت بسيدتى غرامًا لا سبيل إلى وصفه ، غرامًا استولى على كل ذرة فى كيانى ،لا يهدأ له أوار ، ولا تفتر له حميًا على توالى الأيام والسنين ، ولا تقلل منه تقلبات الأحداث .

أحببتها من ثانى يوم رأيتها فيه ، وعلى وجه التحديد منذ الخامس والعشرين من شهر يونيو عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف .

هذا الذنب ، وهو ليس ذنبًا ، إلا فى عرف أناس دولة (تيوك) ، هذا الذنب جرنى إلى ذنوب أخرى ، قد تكون أكبر منه ، أو أصغر ، لست أدرى ، فما يقترفه الإنسان من الذنوب المعنوية ، تتفاوت نسبة فداحتها بين مجتمع وآخر . وأعتقد راسخًا أن من أكبر الذنوب فى دولة (تيوك) أن يغرم الخادم بسيدته .. على أية حال لسنا الآن فى ميزان الخطايا .

ما أريد أن أقوله ، أن هذا الغرام الكاسح ، ذا القطب الواحد ، جرنى إلى عادة مرذولة ، قبل أن أخبر عنها .. أقسم إنها لم تكن فى أى يوم ، من عاداتى ، ولم أتربَّ عليها ، بيد أنى لبستها لبوس الثوب الجيد التفصيل ، أو كأنها نسيج من جلدى ، وذلك بعد أن التحقت بخدمة سيدتى .

ما هذه العادة المرذولة ؟..

وهل ثمة أرذل من عادة التجسس ؟..

إنى أتجسس .. وأتجسس .. ثم أتجسس .. ولا هم لى إلا رصد

كل تحركات سيدتى ، ورصد خطو كل من له علاقة بها .. وجندت من أجل ذلك زوجتى .. وأقارب سيدتى ، ومخدوميها .. طبعًا دون علم أى منهم .

بل تطور الأمر بى إلى زرع أنواع من التسجيلات الصوتية فى المكتب ، أو فى المنزل ، كلما أتيحت لى الفرصة .

وأقسم أيضًا بكل قدسى لدىّ ، بأنه ليس لى من غرض سوى معرفة كل شىء عنها ، عن سيدتى .

نصف ما أتكسبه من نقود أصرفه على شراء أحدث المتطورات من الأجهزة التسجيلية ، والأشرطة الفارغة ، التى سرعان ما تمتلئ بأحاديثها . بل بلغ الأمر أكثر من ذلك إذ إننى انتهزت فرصة غيابها عن المنزل فى يوم ما ، ناسية باب غرفة نومها غير مقفل ، وهى عادة لاتتركه أبدًا هكذا ، حتى أن الوقت المخصص للتنظيف ، لا يتم إلا فى حال تواجدها داخل المنزل . انتهزت تلك الفرصة ، ووضعت جهازًا صغير الحجم للتسجيل تحت السرير ، بعد أن زودته بشريط مدته ثلاث ساعات .

كنت أدقق عند شراء هذه الأجهزة ، مشترطًا أن لا يصدر عنه صوت عند انتهاء الشريط ، ومشترطًا أن يمتاز بقلب الوجه الآخر منه بصورة أتوماتيكية .

اكتشفت زوجتى هذا الموضوع فى اليوم التالى عند تنظيفها للغرفة ، فتعرفت الجهاز الذى كان فى حوزتى ، ولم أكن أعرف عنها سرعة البديهة وحسن التصرف إلا عندما أحضرته لى فى سلة المهملات ، مغطى بكوم من الورق والمخلفات .

رمته فى وجهى ، مقسمة على أنها ستبلغ سيدتى بالأمر ، لو بدر منى ما يشبه ذلك فى المستقبل . وقاطعتنى ثلاثة أيام دون أن تحدثنى ، حتى تعرف السبب لتصرفى ذاك .

طبعا لم أذكر لها السبب الحقيقى .. وإنما عزوت ذلك إلى طبيعة الفضول المتأزمة فى نفسى . بشكل مرضى .. بيد أنى لم أدع الأمر يمر بسلام . لقد استثمرت الموقف لصالحى .

أخضعت زوجتى بعد كشفها لهذا السر إلى مساعدتى .. أغريتها بالكلام المعسول .. وبالهدايا .. وبالغضب والتهديد إذا لزم الأمر .. ولم أنس أن أقوم بالجفاء والإهمال لها .. شحذت كل أسلحتى ، واستعملت كل وسائلى ، حتى رضخت فى النهاية إلى رغبتى . فكانت تدخل بجهاز التسجيل مغطى بقطعة التنظيف وتخرج به فى سلة المهملات .

كان جلّ همى أن أعرف أحاديثها الهاتفية ، وما تبثه من لواعج إلى ذلك الرجل الذى اختاره قلبها ، بعد وفاة زوجها ، وكان عدم معرفتى بذلك يكاد يطير صوابى .. أما فى المكتب ، فالأمر أيسر من ذلك كثيرًا . كنت لا أخفى جهاز الراديو المتضمن لجهاز التسجيل فهو يبدو بيدى فى غدوى أو رواحى ، أضعه أحيانا على المكتب الخاص بى ، أو أتركه أحيانا فى أى مكان كيفما اتفق مهملاً له ، تغطية لتصرفى وبرهنة لإهمالى فيما لو أنى نسيته مرة تحت مكتبها .

وطبعًا .. ليس مفترضًا بى أن أديره لأستمع إلى أغانى بلدى فى محضرها . ولكنها قطعًا كانت تخمن ذلك عندما يخلو لى المكان .

وهكذا مضى بى قطار العمر ، عائشا على هامش عالم الحقيقة ، مغرقًا حتى أذنىّ فى عالم الخيال .

ويحضرنى على الدوام سؤال عويص ، عن أيهما أكثر بهاءً وأطول بقاءً ، بيد أنى أقنعت نفسى بأن عالم الخيال أكثر بهاء ، وأعظم متعة ، لأننا نصنعه لأنفسنا بأفكارنا ، وفق ما نرغب فيه ،

وليس مفروضا علينا من خارج ذاتنا . وكذلك فهو الأبقى لنا ، لأننا نستحدثه على الدوام ، لا يفلت منا أبدا ، طالما نحن نرغب فيه .

قد لا يكون اقتناعى هذا معبرا عن الحقيقة . وإنما لأن هذا المنحنى من الحياة هو الوحيد الذى أرغب فيه ، وهو ما يلائمنى .

وأظن أن هنا مكمن وسرّ سعادتى الدائمة .

٢١ / ٧ / ١٩٨٩

يبدو أننا لن ننتهى من نهازى الفرص هؤلاء ، كل فترة قصيرة ، وفترة أقصر ، يأتى إلى مكتب سيدتى ، مهندس أو متعهد للمقاولات ، أو تاجر خالى الوفاض ، عارضا خبراته وخدماته مؤكدا قدراته على جلب المزيد من المال ، لو كان ثمة من يزوده بالبداية .

جميع أولئك العارضون لتلك الخدمات ، ليسوا من أبناء دولة (تيوك) . إنهم بجمعهم من الأجانب النازحين من شتى بقاع العالم إلى هذا البلد الغنى ، بعد شهرته كدولة ثرية ، دفعت بها هذه الثروة إلى حضارة حديثة متوقدة ، وكنتيجة لقلة الكثافة السكانية ، صار من يسكنها من الوافدين إليها ، يزيد على تعداد سكانها الأصليين .

كانت سيدتى تعرض شروطا معينة ، تحد بها من شراهة القادمين ، الذين يحدوهم الطمع بصيد سهل متمثل فى كونها امرأة ثرية .

فإذا رضى أحدهم بما تفرضه من شروط قاسية . انضم إلى طابور العاملين لديها ، فى إحدى مؤسساتها الثلاث ، وإلا فليبحث عن مكان آخر يمارس فيه خبراته .

جرنى إلى هذا القول مجيء مهندس وسيم إلى مكتب سيدتى فى

هذا اليوم ، يناهز الثانية والأربعين من العمر تقريبا ، بدا لى أنه على دراية كبيرة فى أعمال الهندسة والمقاولات ، وبصحبته زميل له ، أو قريب ، لا أدرى .. كلاهما يبحث عن فرصة عمل .
أمثاله الذين أخافهم ، خاصة من كان يقارب سيدتى سنًا .

هذا الرجل لم يعرض سيدتى خدماته فحسب ، مثلما كان يفعل من سبقه ، بل لجرأته الشديدة ، وثقته بنفسه ، عرض عليها أن يعاونها فى إدارة مؤسساتها الثلاث ، فى مقابل أن يأخذ منها نصف ما تجنيه من الأرباح ، وفى المقابل أيضًا أن يتحمل معها نصف ما تتعرض له من الخسائر . وكالسابقين عليه ، طلب أن تطرح سيدتى جزءًا من رأس المال للبداية ..

ياللجرأة ، لم أسمع أحدًا قبله قدم اقتراحًا مثيلاً لهذا الاقتراح .

توقعت من سيدتى أن ترفض عرضه دون نقاش ، ولكن يبدو أنها تواقة إلى من يساعدها فى حمل العبء معها ، لدهشتى سمعتها تقول له :

ـ اصغ لى يا مهندس (لبين) ـ هذا هو اسم المهندس الجديد ـ إنى لا أفقه فى أمور المقاولات ، ولا تسعيرة البناء ، أو كلفته .. وهذا ربما يدعونى إلى الاستعانة بخبراتك الطويلة فى هذا المجال ، لما لك من سمعة طيبة فى البلد ـ يبدو أنها تعرفه من قبل أن يحضر ـ بيد أنه يتعين علىّ الاحتياط لمثل هذه الأمور .. وعلى المرء أن يتخذه لتجنب مزالق الخطر .. ليس ثمة ما هو أخطر من مجال التجارة ، ومعارك مقاولات البناء .. ولذا فإنى لا أتعامل إلا على أساس من هذا الحذر .. لن أبخل عليك بربح أحصل عليه ، كما لن أبخل عليك بأى مجهود يكون فى قدرتى المساعدة به .. سألزم نفسى بكل الأمور الإدارية والمالية ، وما عليك أنت سوى الالتزام بالأمور الفنية التطبيقية .. وسأعطيك

الحق بأن تطلع على كل صغيرة أو كبيرة مما أقوم به من عمل ، يخص مجال تعاوننا إداريًا أو ماليًا ، ولكنى أعفى نفسى من الاطلاع ، أو التدخل فيما تقوم به من الأعمال الفنية ، لأنى أجهلها .
وفى مقابل هذا التفويض منى ، لى عليك الالتزام بكافة الخسائر الناتجة عن الأعمال التى تقوم بتنفيذها ، ولك نصف الأرباح الصافية ، بعد تكلفة المشاريع .. وعلى أن أقوم بتمويل عشرة فى المائة من أى مشروع . إلى حين استلام أول دفعة له ، وبعدها سيغطى المشروع نفسه بنفسه ، وفى النهاية العملية أستعيد أنا ما دفعته مع نصيبى من الأرباح ، كما هو متفق عليه .

وبعد وقفة قصيرة ، استأنفت :

ـ إذا كان هذا العرض يوافق طموحاتك ، فلنناقش التفاصيل .

فرد ملحًّا :

ـ ولماذا لا تكون الخسائر مناصفة أيضًا ؟.. مثلها فى ذلك مثل الأرباح ؟..

فردت بحزم :

ـ كلا .. كلا .. حتى لو أنك قمت بتغطية نصف تمويل تكلفة المشروع .. لقد شرحت لك وجهة نظرى فى ذلك ، ثم إنى أعطيك تفويضًا بإدارة المشاريع ، تفويضًا يتيح لك التصرف فى إدارتها .. وأى خطأ فى التنفيذ أو التخطيط لها سيكون نتيجة لقصور منك ، ولذا يجب أن تكون حريصًا وواثقًا فى تجنب أية مزالق تؤدى إلى الخسارة .

صمت لفترة ، كأنه يقلب الأمر فى ذهنه ، ولكنه كان حريصًا ، فلم يتسرع بالرد ، إذ قال : سأفكر .. وأرد عليك غدًا .

سمعته وهو ينزل الدرج ، يقول لصاحبه :

ـ إنها تعلم أنى عاجز عن الإسهام المادى بالنسبة للتكلفة مهما

صغرت ، فما بالك بتغطية نصفها ، الذى ربما يبلغ الملايين ، كما هو الحال فى المشاريع التى تقوم بها هذه السيدة ؟.. لهذا فهى تعرض شروطا قاسية .. إنها تملك كل شىء ، المال والمقر .. والإذن بمزاولة الأعمال .. وليس معى غير الجهد أبذله .

فرد صاحبه .. أو قريبه :

ــ يبدو أنها امرأة داهية .. لا تبخل بالربح ، ولكنها تخشى الخسارة .. ولكن ماذا بشأنى .. فأنت لم تحدثها عنى .

ولم تصل إلى سمعى الإجابة ، فقد بلغا أسفل السلم .. وخرجا إلى عرض الطريق .

أما هى ، فقد قالت لى بيقين تام ونحن فى الطريق عائدين إلى المنزل هذا المساء :

ــ لن يعودا ، شأنهما شأن الذين مرّوا علينا من قبل .. أولئك الذين يرومون الربح السريع عن طريق إلقاء كافة تبعات الخسائر على كاهل المواطن ، بطريقة ما من طرائقهم الشيطانية ، ثم لا يعدموا مخرجًا فى أحد مواد القانون ، يجيدون به تغطية موقفهم .

لم أخبرها بما سمعته منهما ، وهما ينزلان السلم ، كى لا ألفت نظرها إلى تتبعى ما يجرى فى المكتب ، وإنما قلت بعد تردد :

ــ هو ما تقولين يا سيدتى .. كلهم طامعون بشىء ما .. نصابون محترفون وأشرار .

نظرت إلىّ من خلال مرآة العربة الأمامية .

دائمًا مكانى المقعد الخلفى عندما تقلنى إلى المكتب معها ، أو تعود بى إلى المنزل ولم تعلق على ردى ذاك ، أو تستأنف الحديث ، شأنها دائمًا إن لم يعجبها قولى .

المهم فرحت بتحليلها للموقف مع هذا المهندس الجديد ، ونمت ليلتى قرير العين .

٢٢ / ٧ / ١٩٨٩

لم يخطر ببالى أن أراه كرة أخرى .

عدت من دكان البقال المجاور لباب مكتبنا ، أحمل علبة من ورق البلاستيك تحوى سائلاً من الحليب الطازج ــ إن سيدتى لا تشرب الشاى إلا مخلوطًا بالحليب ــ لم أره فى مبدأ الأمر . بيد أنى سمعت صوته ضاحكًا :

ــ إما كل شىء .. أو لا شىء ..

فهمت ، لقد قرر العمل مع سيدتى ، ومع عبارته هذه ، إنه يريد التعبير عن ، إما أن يحقق ربحًا وفيرًا .. أو أنه يستحق أن يتحمل الخسارة كاملة .

ناولت علبة الحليب إلى خادم المكتب لخلطه بالشاى .. ودخلت مكتب سيدتى الخاص ، بحجة إعادة ما معى من باقى النقود ، نسيت أنى أخذت تلك النقود من السكرتيرة ، تحت بند مصاريف المكتب ، وكذلك نسيت سيدتى لانشغال بالها ، فتناولت ما بيدى دون انتباه .

كانت تنظر له باحترام شديد ، لقد تأكد لديها بما لا يقبل الريبة أن الرجل نزيه ، بما يكفى لمزاولة العمل معها . وأن كل همه الربح له ولمن معه ، هذا ما قالته لى ، ونحن عائدان ظهرًا ، بعد أن كتبا عقد التعاون بينهما ، وفقًا لشروطها .

وهكذا بدأت معى رحلة عذاب أخرى لآلام غيرية لا تطاق .

١٦ / ٤ / ١٩٩٠

كانت العربة المرسيدس التى تقلنى تدرج على أسفلت الطريق بنعومة ويسر ، لا يكاد يسمع اهتزاز موتورها .. وأنا شارد اللب ، أسرح فى خواطرى ، متمثلاً شموعًا توقد ، وزينة تعلق ، وأكفًا تلتهب بالتصفيق .

هذا اليوم هو عيد ميلاد سيدتى الثانى بعد الأربعين .. منذ العام الأول من الأعوام الثلاثة عشر الماضية ، وأنا أحتفل بهذا التاريخ منفردًا ، منذ رأيت بطاقتها الشخصية فى غفلة منها ، ومنذ ذلك الحين وهو لم يمر علىّ دون أن أحس به ، مع كون الزمن متوقفا فى حسبانها ، فهذه الذكرى تمر ولا تحفل بها .. ولا تقيم لها وزنا .

أعتقد أن هذا النسيان للزمن ، أو هذا الركود العدمى فى الشعور بوقعه عليها ، أحد أسباب استمرار نضارتها ، فهى فى كل يوم تزداد عن سابقه رونقا وجمالا وأناقة .

كما قلت إن هذا التاريخ لا يمر علىّ دون وقفة احتفاء من أجله ، يوقد له قلبى الشموع ، ويهتف له وجدانى ويصفق . وطيلة الطريق فى هذا اليوم لم ينصرف ذهنى عن الشعور به ، إلا عندما أوقفت العربة تحت المظلة على الرصيف أمام الباب الخارجى ، ثم وهى تفتح باب العربة المكيفة بالهواء وتقول :

ـ أف لحر هذا اليوم .. لقد أتى الصيف مبكرًا هذا العام .

أظن أن لفحة من هواء السموم الحار صفعت صفحة وجهها وذراعها الأيسر ، لقد بان ذلك من تعابير وجهها ، وهى تمسح ذراعها بيدها اليمنى ، بعد قولها ذاك .

فى الواحدة تمامًا من ظهر كل يوم ، وفى درجة حرارة عالية ، إذ تقارب أو تبلغ الخمسين درجة مئوية فى أشهر الصيف الطويلة ، أو فى درجة منخفضة جدًا فى أيام الشتاء ، نكر عائدين ، أنا وهى من مكتبها التجارى ، المبنى اسمه على اسمها . إذ كان يدعى (مؤسسة هراس للتجارة والمقاولات) . بعد ضحى من العمل المرهق . لقد ازدهر العمل فى المكتب وازداد نشاطه ، وضم العديد من الموظفين ، مهندسين ، محاسبين ، سكرتارية ، موزعين ، وعمال ، بعد أن تدخل المهندس (لبين) فى إدارته .

لقد تيقنت أنه حاذق فى تصريف الأمور التجارية ، والتعهدات الإعمارية ، بمثل حذقه فى كسب ثقة سيدتى .

لقد كرهته من أول يوم دخل فيه مكتبنا ، واستمرت كراهيتى له إلى يومى هذا ، ولا أظن أنى سأتخلى عنها فى يوم من الأيام . على الرغم من أنه لم يبدر منه ما يريب تجاه عواطفه نحو سيدتى ، على شدة مراقبتى له ، بيد أنى كنت متخوفا دومًا ، من أن يتحول الاحترام المتبادل إلى استحسان ، ثم ميل .. وهلم جرًا ، فأنا مازلت أنوء بعبء الحبيب السابق الذى لا يريد أن ينهزم . ثمة من يشاركنى هذا القلق .

غالبا ما أرد على الاتصالات الهاتفية لزوجة المهندس (لبين) ، فى سؤالها الملح عنه دومًا .. لاحظت فيما بدا لى أنها تحس ببعض من مشاعر الغيرة المتوجسة من سيدتى على زوجها .

حاولت أن أستثمر هذا الجانب الضعيف من شخصيتها ، فأجنده لصالحى ، وهذا ذنب آخر من ذنوبى الكثيرة ، فأخذت أطيل معها فى الحديث ، كيما أعرف من شئون منزله ما يمكننى بعد ذلك من سبر أغوار نفسه ، ومعرفة دواخلها .

المهم ، لنعد إلى أحداث يومنا هذا ، وسوف أعود لشرح علاقتى بالسيدة (لبين) فيما بعد .. ولكن قبل هذه العودة ، يتعين علىّ أن أبين ، أنه لا يوجد فى المنزل سوى سيدتى ، وزوجتى وأنا ، بعد أن تزوج ابناها .. ابنتها (اده) ، وابنها (دارم) .

فى هذا اليوم الشديد الحرارة ، كما ذكرت ، وحينما دخلت سيدتى المنزل متأففة ، بادرتها زوجتى كالعادة بلغة تيوكية ركيكة :

ـ أجهز الغداء ؟..

إن زوجتى إلى الآن ، وعلى الرغم من مضى أكثر من عشرة

أعوام على تواجدها هاهنا ، لم تسع إلى تحسين التحدث بهذه اللغة ، ولم تحاول بذل مجهود لتعلمها والنطق بها كأهلها .

ردت سيدتى عليها بإيماءة من رأسها .. ودخلت غرفتها .. وقفت فى الحديقة ، أتلكأ أمام شباك غرفتها العريض ذى الثلاثة أمتار ، لقد تغير المنزل عن أول يوم دخلته ، لقد أصبح فخما ، بعد أن أعيد بناؤه منذ سبعة أعوام ، بعد ثراء سيدتى المفاجئ .. أظن أنها حصلت على إرث فى ذلك الوقت .

تشاغلت برش حوض الزهور ، سابحا فى لجج من الخيال ، قلت لنفسى : ستلقى الآن بحقيبة يدها على السرير .. حتما ستنظر إلى نفسها فى المرآة ، بعد أن تلقى عنها ثياب الخروج .. أليس من حقها أن تفعل ذلك .. إنها فى أوج نضارتها .. ثم إن حيويتها غير عادية ، ها هى ترفع ستارة الشباك البيضاء .. وتلقى نظرة على الخارج .. لقد بدلت ثياب الخروج بثوبها المنزلى الفضفاض ، ذى اللون الرمادى .. وذى الفتحة الرقبية الواسعة ، التى تزيد من بروز عنقها الزرافى ، كما يزيد ذلك الشريط من اللون الأسود الذى يحيط بتلك الفتحة وبأطراف الأكمام القصيرة التى تنحدر قليلاً تحت رمانة الكتفين ، يزيد من نصاعة جيدها وزنديها .

لمحت ذلك خطفا وأدرت لها ظهرى مع ماسورة المياه أواصل بها الرش ، إنها وهى فى ثيابها المنزلية عادة ما تبدو فى حالة من الرضا .

أكاد أحس رضاءها الآن .. فوجهها مضىء ، لابد أن نظراتها إلى حوض الزهور العامر بالورود ، أعطتها ذلك الإحساس بالراحة والامتنان لكل ما حولها .

إننى أعنى بالحديقة أشد العناية ، لعلمى بشغفها باخضرار

الأشجار ، وتفتح الأزهار . وخاصة هذا الحوض القريب من نافذتها ، أتعهده بالرى دوما ، حتى أزهر وأينع ، وكأن حرارة ذلك الصيف المتقده لا تدانيه . كل ذلك لكى أحظى منها بمثل هذه النظرة الراضية .

ليس فى ميسورى فعل أكثر من هذا .. آه لو فقط تخلت عن كبريائها ، ورضيت بى حبيبا ، لعرفت كيف أسعدها . عندها ساحرقها فى أتون عاطفتى ، وعندها ستجد من السعادة أكثر مما تجده فى الأزهار .. ولكن ما يدريها .. ومن أين لى الشجاعة لإخبارها .. يالى من جبان رعديد .. كلا .. كلا .. فى الحقيقة إن ما يردعنى ليس الخوف ولا الجبن بأى حال ، وإنى لعلى استعداد لخوض غمار الموت من أجلها . بيد أن ما يكبلنى ، ويحد من اندفاعى ذلك الرعب الذى يلفنى لمجرد تصور احتمال فقدى إياها .. خشية أن تطردنى . لهذا السبب وحده رضيت بما أنا فيه .

رأيتها وهى تخطر مجتازة البهو الواسع المبرد إلى غرفة الطعام المكيفة أيضا ، كل مكان فى المنزل يحظى بجو ربيعى ، بفضل تلك الأجهزة المعلقة فى الأسقف ، محولة طقس المنزل إلى ما تهفو إليه الأنفس .. هكذا كل منازل أناس دولة (تيوك) .

كانت زوجتى قد أعدت لها الغداء .. غداء بسيطا لا يتلاءم مع كل هذه الفخامة المحيطة بها .. إنه عبارة عن ست ملاعق من الأرز الأبيض المسلوق ، وإناء متوسط من الصينى مملوء بكمية كبيرة من السلطة ، وقنينة من زيت الزيتون ، وأخرى من خل التفاح البنى اللون ، وسلة صغيرة تحوى بعض الفواكه الموسمية ، وغير الموسمية ، من التى ترد من خارج البلاد . إذ تعتبر دولة (تيوك) من الدول الأعلى استهلاكا لكل ما تحتاجه ، فهى لا تنتج سوى الخام من معدنها الأسود .

ذلك المعدن الذى جعلها فى مقدمة الدول الغنية ، وبالتالى حدا بأبنائها إلى المعيشة الترفية .. وكان من جراء ذلك أيضا أن أصبح شعبها مدلل الشعوب ، وجلب هذا الثراء الذى يرفل به السكان الأصليون ، حقدًا مستترًا يكنه لهم السكان العاملون تحت إمرتهم من الأجانب .

إنى أيضًا لا أعفى نفسى من الإحساس بهذه المشاعر ، خاصة وأن لدى إحساس مكثف بالدونية ، من جراء ترفع سيدتى ، وكبريائها الشديدين ، مما أقام سدًا لا يكسر بينى وبينها ، بيد أن حقدى لم يكن منصبًا عليها قطعًا .. ربما على بنيها ، أو على كل من ينتسب إلى دولتها .. لماذا إذن لم يكن لذلك السبب ؟ فلست أدرى ، قد يكون انحرافا من الشعور العام للأجانب ، أو لأن من دواعى فخر السكان هنا أن ينتمى المرء إلى دولة (تيوك) ، وكان يكفى أن يقول أحدهم إنه (تيوكى) ، كى يفهم من يجالسه من الأجانب أنه ليس ندًا له .

ليذهب كل من فى دولة (تيوك) إلى الجحيم ، ولنعد إلى سيدتى ، يسرنى دائمًا أن أرقبها ، وهى تتناول طعامها ، فمن عادتها أن تمسك بأصابعها المدببة ملعقة الطعام ، تملؤها مرة ونصفا من الزيت ، ومثلها من الخل ، ومن ثمَّ تدلقه على صحن السلطة ، وبعد أن تخلط المزيج جيدًا ، تلقى بالخليط على صحن الأرز المسلوق ، ثم تأخذ فى تناوله على مهل ، ملتذة بطعمه .

هذه وجبتها الوحيدة طيلة النهار والمفضلة لديها ، والتى تحرص على تناولها ، منذ أكثر من عام ، معتقدة أن هذا ما يحتاج إليه بدنها من غذاء كاف لها فى مثل هذه السن ، وفى نفس الوقت تحافظ به على رشاقتها من خلال هذا التنظيم الغذائى .

وما عدا ذلك لا تتناول سوى الشاى المخلوط بالحليب فى مكتبها كإفطار لها ، وبعضا من الفاكهة الطازجة أو المعلبة كعشاء .

تركتها أمام مائدة الطعام ، بعد أن قدمت لها آخر الخدمات ، وهى زجاجة من الماء المبرد ، مع كأس فارغة .. نسيت زوجتى تقديمها .. أو تناسته ، كى تتيح لى هذه الفرصة .

وانسحبت بعد ذلك مسرعا إلى غرفتنا ، كما يتعين علىَّ أن أفعل .. فسيدتى لا تطيق أن يبقى أحد منا إلى جوارها ، ما لم يكن له ما يؤديه لها من خدمات .

استحثثت زوجتى على الإسراع للذهاب إلى غرفة سيدتى لترتيب ثيابها كما هى عادتها .. فنظرت إلى نظرتها إلى معتوه .. إنها دومًا ترمقنى بمثل هذه النظرة .. عندما يتصل الموضوع بسيدتى .

ولكنها دومًا أيضًا تنفذ ما أطلبه منها فى النهاية .

المهم .. عندما عادت .. سألتها أين وجدت حقيبة يدها .

فقالت .. على السرير ..

وأتمت قبل أن أبادرها بسؤال آخر .. وثوبها على الكرسى المقابل للسرير .. وحذاءها فى وسط الغرفة .. هناك ثمة سؤال آخر تود معرفته ؟..

لقد صدق حدسى .. دائمًا يصدق إذا كان من أجلها .. حذاؤها وسط الغرفة يدل على أنها تشعر بالوحدة والضياع ، على الرغم مما يحيط بها من ترف ، وعلى الرغم من انشغالها بتجارتها الواسعة .

رمى الحقيبة على السرير تريد منه أن تسد فراغا فى حياتها ، بعد وفاة زوجها ، منذ سبعة أعوام تقريبًا .

أما إلقاء الثوب على الكرسى .. لماذا .. ما تفسير هذا .. لا يهم .. إنى لم أحدس مكانه من قبل .. لو لم تخبرنى زوجتى ، لما عرفت مكانه .

كانت زوجتى تتكلم .. بيد أنى لم أسمع سوى دمدمة غير واضحة . لانشغال خاطرى بالحوار مع نفسى ، ثم خرجت تصفق الباب .. لتذهب إلى الشيطان .

لتعد إلى سيدتى .

مما لا شك فيه أن الوحدة تعتصرها ، لقد اختطف الموت زوجها مبكرًا .. منذ سبعة من الأعوام .. لقد مات مسرفا على نفسه ، على قدر علمى . كان دون جوان عصره ، رحمه الله .. النساء من كل صنف ولون ، يخضعن لسلطانه ، لجمال صورته ورشاقة قده ، قبل أن يهده المرض ويرحل سريعا .

لقد ذكرت أنى فرحت لموته .. بيد أن فرحى ذاك لم يكن معادلاً للألم الذى عانيته فى حياته . لقد كنت أموت حزنا ، وأحيا تعاسة ، كل يوم ، قبل أن يرحل .

وحتى الآن أحس بذلك الشعور من الألم الممض ، كلما طاف بخيالى مرآهما ، وهما جالسان على نفس مائدة الطعام التى تجلس عليها الآن منفردة .. كانت حينذاك حافلة بكل أصناف الطعام ، من صنع يدى .

طالما تمنيت فى تلك الأيام ، لو انقلبت تلك اللقيمات التى يتناولها إلى سم زعاف يحرق أمعاءه .. لولا هذان الطفلان البريئان اللذان يجالسانهما . البنت فى السادسة ، والابن فى العاشرة . إنهما الآن متزوجان ، ولديهما طفلان هما الآخران .. آه لولاهما آنذاك لربما أنقلبت إلى مجرم فى سورة ذلك الشعور الشديد بالحقد .

يا للأنانية ، وأنا بمثل ذلك الموقف الحاقد .. أضمر لتلك الأسرة السعيدة رغبة عارمة فى الإيذاء .. رغبة مستولية علىّ لتحطيمها ، كى يتيسر لى الاستيلاء على أهم عنصر فيها .

بيد أنه ، وبعد خمسة أعوام تقريبًا ، مرت بى أيام عصيبة ، ولكنها مختلفة عن سابقتها .. حدت بى إلى أن أندم أشد الندم على مشاعر الفرح التى استولت علىّ لموت سيدى .. ولو كان أمر إعادته إلى الحياة بيدى لأعدته إليها مائة مرة ، بدلا من المرة الواحدة .

وكأن ما جاءت به تلك الأيام من الأمور التى أعقبت موته ، ودعت إلى ندمى .. كأنها جاءت عقابًا على مشاعرى ضده .

كان الموضوع سريًا جدًا ، يجرى فى تكتم شديد ، ولولا تلصص زوجتى فى استراق السمع ، لما عرفت عنه شيئا .

جلست إلى جوارى على الفراش ، فى تلك الليلة الليلاء ، متحفزة متحمسة لكونها تنقل لى خبرا جديدًا كل الجدة ، لم يخطر لى على بال مجرد السماع به .

قالت هامسة ، وهى تتلفت من حولها فى نطاق غرفتنا الضيقة ، مع أنه من الواضح أن أحدًا لن يسمعنا ، فسيدتى تغط فى نومها الهانئ داخل (الفيلا) الكبيرة .. وأولادها الصغار ، كل فى غرفته البعيدة عنها .

ثارت قوى الانتباه لدى ، بعد ما كنت أهوّم فى النعاس ، فقلت :

ـ عجلى .. ما وراءك ؟.. إننى أريد أن أنام .

فقالت فرحة .. دون أن تفض بالسر :

ـ لا أدرى ، هل هذا التغيير الذى سيحدث للمنزل قريبًا يحمل الخير لنا أم يحمل العكس .

فقلت بفضول شديد :

ــ فقعت مرارتى أيتها المرأة .. أخبرينى ما الأمر .. وأى تغيير تعنين ؟..

فقالت مندفعة :

ــ سيدتى سوف تتزوج قريبا .. لقد خطبت ..

قفزت من فوق السرير إلى وسط الغرفة .. فكدت أرتطم بالحائط المقابل ، وأظن أن الدم غادر وجهى ، بيد أنه أعادنى إلى وعيى سريعا ، تلك الدهشة المبالغة التى ارتسمت على ملامح زوجتى ، فسيطرت فورًا على فورة انفعالى غير اللائق .. فكتمت ألم الطعنة الثائرة التى سُددت فجأة إلى قلبى دون رحمة .. وداريت الأمر بقولى :

ــ مصيبة ... مصيبة .. ستحل بنا ..

فقالت زوجتى .. وهى لا تزال غارقة فى دهشتها :

ــ ولماذا مصيبة ..؟.. يمكن أن يكون فى الأمر خير كثير ؟..

تمالكت نفسى أكثر .. وأنا أقول :

ــ الغريب أنك دومًا لا ترغبين أن ترى ما هو وراء الأحداث .. ولا تريدين أن تبصرى إلى ما هو أبعد من موطئ قدميك .. ودومًا نظرك محدد فى مدى خطواتك .. أما ما ينتج عن الحدث بعد ذلك .. وأين تنقلين قدمك الأخرى .. وماذا يوجد فى المدى الأبعد من خطوتيك الأولين ، كل هذا لا يدخل فى حيز تفكيرك .. أبدًا .. أبدًا .. لا تستخدمين عقلك على الإطلاق .. لترى ما وراء الأمور الظاهرة ، من أمور خفية مبطنة مفعمة بما لا نرغب ، وبما يتعارض مع مصالحنا ويهدد استقرارنا .. ألا ترين يا امرأة أن رجلاً آخر جديدًا وغريبا علينا ، سيأتى ليمارس سلطته .. يتحكم فينا فى رواحنا وغدونا .. يأمر وينهى .. يبيع ويشترى .. يبقى من يريد له البقاء .. ويزيل من طريقه من لا يرغب فيه .

بعد أن يصبح سيد هذا المنزل .. ألم تفكرى بأن نمط حياتنا سيتغير ، بعد كل هذا الزمن الطويل الذى عشناه ، وسط هذه الأسرة الصغيرة العدد .. المسالمة فوق كل شىء ؟. كل هذا ونحن لا نعرف ، ولا نعلم ما طبع هذا القادم الجديد .. ما سخاؤه .. ما عصبيته .. أى شىء لا ندريه عنه .. إنها الآن بمفردها ، مع هذين الشابين الصغيرين فحسب ، معتمدة علينا فى كل شئونها . ولكن غدًا .. بعدما يدخل أمرؤ غريب بيننا .. عندما يقتحم حياتنا معهم .. ماذا سيحل بنا ؟..

ألا ترين أنه لو حدث مثل هذا الأمر ، ألا تحدث مصيبة ؟.. بل إنها مصيبة كبيرة ..

فقالت مؤمنة على ما سمعته منى :

ــ آه .. حقًا .. لم أفطن إلى كل هذا .. إنك لمحق .. لماذا هذا التغيير ؟.. ليستمر الوضع على ما هو عليه .. ولكن اطمئن .. إن ابنتها ترفض ذلك أشد الرفض ، يؤازرها أخوها .

فقلت :

ــ ولكن كيف عرفت ؟. ومن أخبرك ؟. قصى التفاصيل بكل دقة .

فقالت :

ــ عرفت بالأمر من يوم أمس .. ولم أشأ أن أخبرك ، حتى ألم به أكثر .. وأتأكد منه .

فقلت غاضبًا منفعلاً :

ــ ومن طلب منك أن تتأكدى من أى شىء ، قبل أن تخبرينى به .. يجب عليك أن تطلعينى على أى أمر ، فور سماعك له .. لا يهم إن كان صحيحًا أم غير ذلك .. والآن قصى علىّ التفاصيل بمنتهى الدقة .. وإياك أن تنسى شيئًا .. أى شىء .

كانت معتادة منى مثل هذا الفضول كما تسميه ، وكنت أعمق هذا الانطباع لديها .. ولذلك لم يستفزها انفعالى ذاك . فقالت :

ـ إنها رأت الفتاة الصغيرة تبكى بحرقة صباح يوم أمس ، وتطلب من والدتها عدم إحضار رجل غريب إلى المنزل .. رفضت الذهاب إلى مدرستها الثانوية ، وبعد ذلك سجنت نفسها فى غرفتها ، وهى لا تزال معتصمة هناك ، ومضربة عن الطعام ، لم تذق شيئا منذ الليلة الماضية .

وقالت أيضا .. إنها سمعت السيدة (هراس) تؤكد لابنتها بأنها سترفض الرجال إرضاء لها .. وأنها لن تتزوج إطلاقا قائلة لابنتها .. إنك وأخاك عندى بالدنيا كلها .. سأوقف نفسى على إسعادكما .. إنها فكرة .. مجرد فكرة ، خطرت لأحد الناس ، فعرض علي الزواج .. إن أخاك وهو الأكبر منك سنا لم يمانع فى مبدإ الأمر ، لو لم ير موقفك .. حسن انسى الموضوع .. انسيه .

وقالت زوجتى :

ـ ولكن الابنة لم تقتنع .. ظنت أن والدتها تهدئ من ثائرتها فحسب ، فاستمرت فى غضبها ، كى تبعد أدنى فكرة قد تراود والدتها بالزواج ، وظلت تردد فى حديثها .. لا تصدقيه .. لا تصدقيه .. إنه كاذب .. قطعا لم يحبك فى أى يوم .. إنه فقط طامع فى أموالك .. واسمك وجاهك .

وسكتت زوجتى برهة .. ثم قالت :

ـ أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟..

فسألت :

ـ ماذا حدث ؟..

قالت :

ـ اصفر وجه سيدتى ، اصفرارا شديدا .. ومدت يدها لتصفع ابنتها .. ولكنها توقفت فى منتصف المسافة .. فى اللحظة الأخيرة .. ثم قالت عاتبة :

ـ أهذا رأيك .. لم يتبق فى شىء يحب ، وأنا ما زلت فى السادسة والثلاثين ؟. أخوك أضاف أربعة عشر عاما إلى عمرى .. وهو يناقش إلغاء فكرة الزواج بإيحاء منك .. وبسبب موقفك .. عندما قال بقسوة لم أعهدها فيه : أمى فكرى فى الأمر جيدا .. إن لك من العمر خمسين عاما .. ماذا ترومين من وراء هذا الزواج ؟!

فقلت لزوجتى مقاطعا :

ـ بكل تأكيد .. لابد وأن قوله ذلك حزّ فى نفسها .. إنه طعنة لأنوثتها .. أتمى ماذا بعد ؟

أجابت :

ـ لا شىء آخر .. بانت الدموع فى عينى سيدتى .. ولكنها لم تبك .. وإنما قالت بصوت عال مخاطبة نفسها ، وهى خارجة من غرفة ابنتها :

ـ سأبلغ الخمسين يوما ما .. وحيدة منفردة .. آكل وحدى .. وأنام وحدى .. وسيتزوج كل منكما .. ولن يتبقى لى سوى الفراغ .. على أية حال .. لا بأس .. هناك عملى التجارى .. لولاه لم أعرف كيف أزجى الوقت .. وهناك أشعارى التى لم تتم .. ولا أظنها ستتم .. يكفينى أنكما سعيدان .

وقالت زوجتى متسائلة .. ما هى هذه (أشعارى) التى تقول عنها إنها تكفيها ؟

ولم أجبها ، وإنما قلت بغضب :

ـ إذن .. لماذا أكدت أنها ستتزوج ؟..

ردت :
– قد تصر على موقفها فيما بعد .. وما يدرينا أن كل مـا قالتـه لابنتها لا يعدو كونه تهدئة لخاطرها .. إنها تحب الرجل ..
فجن جنونى .. وأنا أصرخ بها :
– وكيف عرفت ذلك أيضا ؟..
ضحكت بكل برود .. وغمزت لى بعينيها ، وهى تقول :
– ألم توافق على الـزواج منه .. هل الحـب يأتى فـورا .. ويذهب فورا .. لابد أنها ستعانى .. وقد لا يكون فى ميسورها التخلص السريع من ذلك الحب .. بيد أنك لم تجب عن سـؤالى .. ماذا تعنى بقولها هناك أشعارى .. ما هى هذه (الأشعارى) ؟..
ولكى أفرغ لخواطرى ، وأسكتها عن ملاحقتى بسؤالها ، أجبت :
– إنه كلام منظوم .. وذكرت مثالا له فى لغتنا .. وهذا يعنى أنها تنظم الشعر أحيانا .
لست أدرى لماذا ترد فى ذهنى هذه الأفكار فى هذا اليوم بالذات .. ربما لأننى شككت فى ذلك الاتصال الهاتفى صبيحة هذا اليوم .. عندما تغير صوت سيدتى ، فأصبح رقيقا كصوت مراهقة ، وهى تكلم أحدهم .. قد يكون هو .. حتما هو .. إنه لم يتركها أبدا .. لا يزال يحاول وهو عنيد فيما يبدو فى محاولاته .. أربع سنوات مضت ، وهو لا يمل ، ولا يكل من المحاولة .. ربما تجدد عنده الأمل ، بعد أن تزوج ابناها .. من أجل هذا تمنيت أن يعاد سيدى إلى الحياة مائة مرة .
أفقت من تأملاتى ، فذهبت وراء زوجتى إلى غرفة الطعام ، كى أساعدها فى تنظيف المائدة ، كانت سيدتى تضع الملعقة على جانب الصحن ، وتنهض لتنام قيلولتها ، قبل استئناف العمل بعد الظهر ، فقلت لها فى نفسى .. كل عام وأنت طيبة رافلة فى حلل

من السعادة والهناءة .. ولكنها لم تسمعنى طبعا .
فانصرفت دون أن تحس بوجودى ، كان ذهنها مشغولا فيما يبدو فى ذلك الاتصال الهاتفى .
ربما كان منه .. ليتنى أعرف .. لو كان فى ميسورى وضع جهاز دقيق داخل سماعة الهاتف للتسجيل .. أوه إنها فكرة جيدة ، لم ترد على خاطرى من قبل .. ولكن من المؤكد أن تكلفتها المالية عالية .

٣٠ / ٧ / ١٩٩٠

كنت وسيدتى فى المكتب بعد ظهر اليوم مبكرين عن العادة .. عندما رن جرس الهاتف فى المكتب الخاص بالمهندس (ليبن) .
عندما لا تكون السكرتيرة موجودة فى المكتب ، أرد أنا على كافة الاتصالات الهاتفية ، وهى لا تأتى عادة قبل الخامسة والنصف فى دوامها المسائى .
كان على الطرف الآخر من سماعة الهاتف صوت السيدة (ليبن) ، قالت إن زوجها فى الطريق إلى المكتب .
إنها دوما تختار لمهاتفتى،الفترة الزمنية التى تعرف فيها أن زوجها فى الطريق من منزله إلى مكتبنا ، كى تضمن عدم رده عليها .
سألتنى عما إذا كانت سيدتى متواجدة الآن ، يا للغيرة .. كذبت بصوت منخفض .
– إنها لم تحضر بعد ..
فرحت .. ثم قصت علىّ كيف أن زوجها كان متسرعا فى لهفة للحضور قبل سيدتى .
كان بيننا أنا والسيدة (ليبن) ما يشبه اتفاق (الجنتلمان) ، دون تصريح مباشر .. كنت أبلغها بتحركات زوجها .. وكانت تقص علىّ أحداث يومهم داخل المنزل .

وصار هذا الأمر عادة ، فرضتها علينا الظروف .

إنى أخمن الهدف من أسئلتها الملحة عن كل صغيرة وكبيرة عما يجرى داخل المكتب .. إنها تتحرى علاقة زوجها بسيدتى .. ولكنها لا تعرف ما أرمى إليه من استدراجى لها ، للإطلاع على كل شئون بيتها .. ولكى أجعل الموضوع يبدو كما لو كان عاديًا ، وإنما لمجرد الفضول ، كنت أنوع فى أسئلتى لها .. عن نوع الطعام الذى تناولوه اليوم ، وعن طريقة إعداده ، وعن ثياب أولادها ، وأثاث منزلها .. ولكنى لم أتطرق إلى السؤال عن نفسها ، أو كيف تبدو .. أهى جميلة .. أو غير ذلك من الصفات التى تخص شخصيتها ، حتى لا تظن بى الظنون من ناحيتها .

كانت تغرق بالضحك إلى حد القهقهة ، مستغربة من شدة فضولى كما تصفه ، ولكن فى النهاية تفيض بالحديث عن كل شيء داخل منزلها .. وأحيانًا كثيرة حتى بدون توجيه سؤال منى .

ثم تطور الأمر فاستطال إلى علاقتها بزوجها ، وخوفها عليه من سيدتى ، فتحاول أن تتبع نفس النمط الذى أجريه معها فى حوارى لها ، فتدقق هى الأخرى عن تفاصيل كل حدث داخل المكتب .

وكنت بدورى أفيض بالحديث عن كل ما يتعلق بزوجها .

عرفت بعد ظهر هذا اليوم ، أن زوجها المهندس (ليبن) استيقظ من قيلولته القصيرة ، طالبًا فنجانًا من القهوة ، إلى حين ارتداء ثيابه ، وأن ابنته ذات الستة أعوام دخلت عليه قافزة على كتفيه ، وأنه دغدغ لها أضلاعها ، وأن ابنها ذا الثمانية أعوام دخل على أبيه الغرفة يريد أن يشترك فى اللعبة ، ولكن الأب قبل ابنيه ، ثم أزاحهما عنه وشرع فى ارتداء ثيابه على عجل .

قد يقال ما الفائدة التى تعود علىّ من وراء معرفتى لهذه المعلومات العادية ، والتى تحدث كل يوم فى أية أسرة ؟

أجل .. إنها مفيدة لى جدًا .. لقد أبانت لى أن الأب مرتبط بأسرته أشد الارتباط ، متعلق بولديه أشد التعلق .. وهذا بحد ذاته مطمئن لى .

وعرفت أيضًا أنه رفض شرب فنجان القهوة الذى طلبه وهو فى عجالته ، معتذرًا لزوجته بسبب من احتمال تأخره عن عمله .. ذاكرًا لها أنه سوف يتناول القهوة فى المكتب .. وأنها على الرغم من أنها أشعرته بضيقها قائلة .. إن شرب فنجان من القهوة لن يؤخره .. وإذا لم يرد ذلك لم إذن طلب إعداده ؟..

إلا أن قولها ذاك لم يثنه عن عزمه فى سرعة الخروج .. مجددًا اعتذاره بالربت على كتفها ، وبقوله إن شرب القهوة ليس واجبًا عليه الالتزام به .. وإنما للمزاج الرائق المصاحب لجلسة هادئة . وبما أن ليس فى مقدوره الآن الجلوس معها .. إذن لا لزوم له .

خطرت لى عندئذ معاملتى لزوجتى ، التى كنت أحسنها ، كلما فكرت فى غيرها . قلت لنفسى ، قد يكون اعتذاره الرقيق لها وربته على كتفها من هذا النوع من المخاتلة .. ثم ما هذا الفنجان المزاجى الذى يريد أن يشربه فى المكتب عندنا .. إنه كل يوم يطلب لنفسه فنجانًا من القهوة ، يشربه عند سيدتى ، وهو يشرح لها بعض أمور العمل .

والأخطر من ذلك لم لا يهتم بعتب زوجته وتعبها ؟.. لماذا ؟.. أظنه لا يحبها بما يكفى لعصمته من التطلع لغيرها .

أهو (زير) نساء ؟.. يتدرع بزى الرهبنة ؟!

بيد أنى فى حديثى معها ، وافقته على رأيه . فقلت لها :

ـ معه كل الحق .. خصوصا أن شرب القهوة يتخذ للمزاج غالبا ، عند معظم الناس .. وقد يكون المهندس (ليبن) من هؤلاء الناس .

فردت ، وكأنى هاديها إلى طريقة التفكير :

ـ إذن .. إنه فى هذه الحالة يرغب أن يكون شراب المزاج هذا عندها !

كانت تعنى سيدتى (هراس) .

معها حق .. مع كل الزوجات كل الحق .. ولكن ماذا نعمل نحن الأزواج إذا ما وقع أحدنا فى الغرام ؟ هل يقسره الوفاء على البقاء على محبتها وأنوفنا راغمة .

إننى لفى عجب من هذا الطينة غير الملول التى جبلت عليها المرأة ، والتى تعينها على قصر حياتها على رجلها كقطب الرحى ، الذى يدور فى فلك واحد على الرغم من ضيقه . لو كانت طينة الرجل على غرارها ، ماذا كان يحدث للعالم ؟ هل يعم السلام ؟

مرت بى هذه الأفكار خطفا ، فلم تشعر السيدة (ليبن) بأنى لم أكن أصغى إلى ثرثرتها .. لكن سؤالا منها نبهنى :

ـ أثمة موعد مع أحد مهندسى شركة أخرى ؟ أهناك صفقة حقا موضوعا للبحث ، لا يقل ربحها عن نصف المليون دينار ؟..

وقبل أن أجيب عن تساؤلاتها تلك .. تابعت :

ـ إن زوجها ذكر لها ، أن السيدة (هراس) عادة أسبق منه فى الالتزام بالمواعيد فى مثل هذه الأحوال ، أى عندما يكون ثمة أمثال هذه الصفقة الكبيرة .. وألحت مرة أخرى للتأكد .. هل حقا سيأتى مهندس الشركة الأخرى ؟..

فلما أجبتها بالإيجاب ، قالت :

ـ ليس لديها ما يشغلها .. لماذا لا تأتى مبكرة ..

عرفت أنها تعنى سيدتى أيضا .

فاعتذرت لها عن إسراع زوجها إلى المكتب ، دون أن يحتسى قهوته لديها ، بقولى :

ـ عندما يكون لدينا عمل بمثل هذا الصفقة الكبيرة الحجم ، يجب أن يكون المهندس (ليبن) أول القادمين .

فردت مناكفة :

ـ موعد رجل الشركة الأخرى فى السادسة .. وقد قال زوجى : أراهن على أنها الآن فى المكتب ، وعليه أن يجلس معها قبل حضور ذلك العميل للتشاور .. لقد خسر الرهان .. فهى كما تقول لم تحضر بعد .

فكذبت مرة أخرى :

ـ أظن أنها فى الطريق إلى هنا .

فضحكت بقرقرة عذبة .. شامتة بزوجها .

فقلت .. وماذا بعد ؟..

ردت .. لا شىء .. ربت على كتفى مرة أخرى .. وتناول مفاتيح عربته ، وخرج من الشقة مسرعا ركضت خلفه ، وهو لا يزال على أول درجات السلم ، قبل أن ينزل إلى الشارع أسأله :

ـ من سيأتى أيضا .. أثمة غير هذا العميل ؟. ولكنه لم يرد على .. وواصل نزوله ، فعدت أسأله عن مقدار نصيبه .. عندئذ أجاب : لنتمها أولا ، قبل أى تقدير للأنصبة .. أرأيت ؟.. إنه يسمع السؤال الذى يرغب فى سماعه فحسب .

ثم ذكرت لى مشاحناتها معه ليلة البارحة ، بسبب هذا السيدة

(هراس) .. كم تشعر بالخشية من أن تلتهم عقل زوجها ، إن لم تكن التهمته فعلا ، إذ ليس له من حديث إلا عنها ، وعن مكتبها التجارى ، وعن الصفقات التى تتم به .

ثم قالت :

ــ يقول إنها كبيرة فى السن .. فى نحو الستين من العمر .. وقبيحة الشكل ، بدينة داكنة السمار ، وذات حنك يضرب بصدرها لفرط قصر رقبتها . هل هذه الأوصاف لها ؟.. ثم لماذا يرفض أن يعرفنى بها ؟ لماذا لا يدعوها إلى زيارتى أو نزورها نحن فى بيتها ؟.. إنه يرفض حتى أن أزور المكتب الذى يعمل به .. ثم إن صوتها عذب ، وهى تسأل عنه فى الهاتف ، لا يدل على أنها عجوز فى الستين .. وطالما أنه كذب فى تقدير سنها ، لابد وأنه كاذب فى تقدير جمالها .

آه .. لكم أنا خائفة .. إن معظم نساء (التيوك) يتمتعن بإغراء شديد لرجالنا .. حتى وإن لم يكنّ جميلات .

رقبة سيدتى الزرافية تجعل حنكها يضرب فى صدرها !.. ياله من ماكر هذا المهندس .. لابد وأنه يلحظ مقدار الجمال الذى تتمتع به سيدتى .

وضحكت على الرغم من شعورى بالغيرة من زوجها .

فلما سألتنى .. عما يضحكنى .. قلت بنزق دفعنى إليه حقدى على ذلك المهندس الكاذب :

ــ ولغير رجالكم أيضا .. يقال إن أجسادهن تحتوى على وفرة من المادة الأنثوية المثيرة .. نسيت اسمها .. مشابهة لمادة الأدريالين بالنسبة للرجال .

فقالت بانزعاج :

ــ مادة ماذا ؟.. أين تباع هذه المادة ؟..

كانت رئتاى تفتتحان وتغلقان بالضحك المكتوم .. وأنا أقول :

ــ إنها لا تباع .. فهى خلق طبيعى ..

فصرخت بأذنى .. اللعنة عليهن ..

وأغلقت سماعى الهاتف بعنف .

لا أدرى لماذا تعمدت إيذاء مشاعر السيدة (ليبن) .. يالى من رجل شرير .. كنت فقط أريد إشعال سعير الغيرة داخلها .. لعلها تساعدنى على إبعاد زوجها عن سيدتى .. خاصة وقد تبينت سوء نيته ، من معرفة طرائقه فى إخفاء الحقيقة عن زوجته .. وادعائه كاذبا فى تقدير جمالها .

وبقيت طيلة هذا المساء أحس انقباضا فى قلبى ، لا أعرف كنهه ، إلا إذا كان ذلك الذى نقلته لى السيدة (ليبن) عن زوجها ، هو ما قادنى إلى هذا الانقباض النفسى ، الذى دفعنى إلى النقمة على سيدتى ، والحنق عليها أيضا .

إنى لا أرى سببا يدعوها إلى الاستعانة بأحد من الناس .. لا أدرى لماذا لا تعمل بمفردها ؟ هل مرد ذلك إلى كونها امرأة ؟.. هل أنا كفء لمساعدتها ؟.. ليتها ترانى كذلك ، لأغنيها عن كل امرئ آخر ..

ولو كنت كذلك ، فهل أنا حقا أرغب فى تقديم هذه المعاونة ؟.. فأنا لا أريد أن أجهد عقلى وأتعبه .. وأمضى كل الوقت فى مزاولة مثل هذه الأعمال السخيفة .. ماذا يعنى كسب النقود بوفرة تزيد عن الحاجة ؟..

١٩٩٠ / ٧ / ٣١

عندما عدنا ، أنا والسيدة (هراس) إلى المنزل فى الساعة

الثامنة من مساء هذا اليوم كعادتنا ، وجدت لدهشتها الشابين الصغيرين ، ابنتها (اده) ، دون زوجها ، وابنها (دارم) دون زوجته .. منتظرين عودتها . جالسين حول المنضدة البيضاء فى الشرفة الأمامية من حديقة المنزل المطلة على حوض الزهور ذاك .

يبدو أنه سرها مرآهما فى غير موعد الزيارة الأسبوعى ، إذ قالت لهما ضاحكة ، وملتفتة لكل منهما على حدة :

ـ ما هذا .. ما هذا .. أهى مؤامرة على الأطراف الأخرى .. هل اتفقتما على أن تأتيا لى كل بمفرده ، دون زوجتك ، ودون زوجك ؟..

فانبرت الابنة بسرعة وغضب مكتوم قائلة :

ـ قرى عينا .. سأبقى إلى جوارك وإلى الأبد .. لن تشعرى بالوحدة بعد الآن .

عرفت السيدة (هراس) ، إن ابنتها تلمح إلى قصة مشروع الزواج الذى لم يتم منذ ستة أعوام ، والذى ما زال تهديده قائمًا .. ويبدو أنه قصة حب كبيرة لا تريد فيها عرى العلاقة .

وكانت الابنة لشعورها بذلك التهديد ، تديم إثارة هذا النقطة لفرط حساسيتها تجاهها ، فى كل نزاع يكاد ينشب بينها وبين والدتها . وكأن لذلك الأمر قوة تدعم بها حججها ، لتسفه أحكام والدتها عليها .. أو كأنما تدينها لخطأ فادح لا يغتفر كادت الأم أن ترتكبه ، من ثمَّ ليس من حقها بعده أن تمارس أية سلطة لها على ابنتها .. أو كأنه عقاب على جرم كادت الأم المسكينة أن تقترفه فى يوم من الأيام .

وعلى الرغم من أن موقف الابنة المعارض لزواج والدتها ، جاء مساندًا لما أنا أرغب فيه ، إلا أنى أتخيل أحيانًا كأن هذه المعارضة موجهة لى أيضًا . وأنها تقف سدًا حائلا بينى وبين أمها ، على الرغم أيضًا من معرفتى باستحالة زواجى منها ، وأنه فى غير حاجة إلى مثل هذه المعارضة كى لا يتم .. ويبدو أنها أحلام .. أحلام فحسب ، ومع ذلك لا أريد تخيل الحيلولة بينى وبينها بالمعارضة .

نظرت سيدتى ناحيتى ، كأنها تنبه ابنتها إلى وجودى .. كنت أتلكأ منحنيًا على قدمى ، كأنى أخرج ما يؤلمنى فى حذائى .. لمحت نظرتها لى فأسرعت إلى غرفتى .

خمنت سريعًا أنها ستدعو ابنتها إلى الدخول .. فكنت أسبق منها وصولاً إلى البهو عن طريق الالتفاف من الباب الجانبى المؤدى إلى الملحق الذى أسكنه مع زوجتى .. ووضعت جهازًا على المقعد الفخم .. وحالما فتح باب البهو ، ليهموا بالدخول .. كنت أتظاهر بالتقاط منافض السجائر لتنظيفها .. برغم أنها نظيفة ، إذ إن سيدتى لا تدخن ، ولم يزرنا أحد منذ مدة ، وكانت زوجتى تساعدنى فى ذلك .

ثم انسحبت معها إلى غرفتنا ، حتى زوجتى أصبحت تشعر بالإثارة ، عندما ترانى مثارًا .. أظن أنها رأت الأمر مسليًا .

فى حوالى الساعة الحادية عشرة من هذا المساء ، تركت زوجتى تغط فى نومها ، وتسللت إلى حيث وضعت جهاز التسجيل .

وبعد أن أفرغته من الشريط .. أعدته إلى مكانه ، معبأ بشريط جديد ، كى ألمّ بالموضوع كله . فى صباح الغد . قررت أن أدع لزوجتى إدارته بعد أن أغادر إلى عملى .

أمـا هذا الشريط الملـيء ، فسأسمعه حـالا ، مستخدما جهـاز المذياع القديم .

هأنذا أعيد ما دار من حديث ، وأسجله فى أوراقى .

أبدًا .. أبدًا .

هذا صوت الابنة فى نهاية حديثها ..

جاء صوت سيدتى :

ــ شكرا لهذا الشعور الطيب .. مطلقا لم أشعر بالوحدة فى أى يوم مضى .. فهأنتم تملئون علىّ حياتى .

كان الحديث بلهجة ساخرة .. ويبدو أنه موجه إلى ابنتها ..

أظنها الآن التفتت إلى ابنها تتساءل .. ما الحكاية ؟..

وسمعته يرد بغضب :

ــ إنها مجنونة .. لقد أفسدتها بتدليلك لها .. إنه تصر على طلب الطلاق من زوجها .

ظلمها ابنها أيضًا فى هذا القول .. طيلة بقائى معهم ، لم أشهد فى أى يوم أنها تدلل أيًّا منهما .. إنها تعاملهما معاملة رقيقة بعيدة عن القسوة ، ولكن ليس بها ذلك النهج من معاملة الدلال .

ردت السيدة (هراس) ، موجهة الحديث إلى ابنتها فيما يبدو :

ــ ما هذا الطلب الغريب ؟! وما السبب الداعى إليه ؟..

بيد أن الفتى أجاب عن أخته ، متحولا من لهجة الغضب السابقة إلى الفكاهة .. إذ قال ضاحكا :

ــ بسبب الغيرة .. ها .. ها .. تقول إنه على علاقة بامرأة أخرى .. تريد أن تعد عليه أنفاسه .. لقد اتصل بى هاتفيًا بعد خروجها من منزله مباشرة .. وشرح لى الموضوع برمته .. إنه سبب صبيانى .. وضحك مردفا :

وهأنذا جئت ، قبل أن تسمم فكرك بادعاء أسباب مضحكة ، وقبل أن أشرح لك حقيقة الموقف .

فردت أخته بهياج :

ــ لأنك رجل مثله .. إنك تدافع عن نفسك .. كلكم سواسية .. جميعكم من طينة واحدة .. انظرى كيف يدافع عنه .. وكأنه يتخيل نفسه مكانه .. كلهم خائنون ، لا يعرف الوفاء طريقه إليهم .. ومع ذلك مهما كان السبب تافهًا فى نظرك .. فقد قررت عدم العيش معه .. لا أريد التعايش بصحبة رجل لا يعرف الإخلاص إليه طريقا .. أريد أن أنفصل عنه .. سوف أطلب الطلاق .. سواء وافقتمانى على ذلك .. أم لم توافقا .

وتداخل الصوت الساخر للسيد (دارم) مع صوت أخته الغاضب الجاد :

ــ وهل تريدين أن نكون من طين مختلف كى نتباين .. طين رملى ، طين صخرى ، طين ترابى ، أو غرينى .. إنك أيضًا من نفس طينتنا لو تعلمين .

فقالت السيدة مقاطعة ابنيها :

ــ هل هدأتما ، حتى يمكننا مناقشة الأمر ؟..

ثم استأنفت ، بعد أن رضخا .

ــ اسمعى يا (اده) .. إن من البداهة ، أن لا أحد سيقوم على إرغامك للتعايش مع من لا ترغبين فى التعايش معه .. وأنت تعرفين أنك أصبحت فى سن يؤهلك لتملك زمام أمرك ، فى مثل هذا المنحى من الحياة ، حتى وإن لم تبلغى سن الرشد بعد .. إذ بقى لك أقل من نصف عام كى تبلغى الحادية والعشرين من عمرك .. إنما يتعين عليك مراعاة لمَ يفرضه القانون ، فى مثل هذه الأحوال

عادة .. أهو معك أم ضدك .. أما بالنسبة لى ، ليس لى أدنى اعتراض على أى قرار ترينه مناسبا لحياتك .. اجلسا لنناقش الأمر .

عرفت أنهم ما زالوا وقوفا .. وبدت حركة تدل على أنهم يجلسون ثلاثتهم . واستطردت الأم بعد أن هدأت الحركة ، بنفس الروح الديمقراطية التى بدأت بها الحديث ، كما عودتهما عند فض مشاكلهما ، بعكس دكتاتوريتهما عند التعرض لمشاكلها الخاصة . قالت :

ــ لن أسأل عن سبب الخلاف ، سواء أكان صبيانيًا ، أم غير ذلك .. ولنتبين وجهة نظرك أولا .. ولنر مردودها عليك على المدى القريب ، أو البعيد .

قال الابن مقاطعًا ومشاكسا والدته فى لهجة إعجاب :

ــ يالك من أم حبيبة .. ماكرة .. لعل هذا الالتواء فى الوصول إلى الهدف جاء لك من الخبرة فى مزاولة العمل التجارى .

ويبدو أنه أيضًا تذكر ذلك الخاطب الأزلى ، الذى لا يريد أن يهزم ، وشعر بالرثاء لوالدته ..

فأردف :

ــ بيد أنك مع كل هذا لم يتيسر لك الالتفاف حول أزمتك الخاصة .. يا لأمى المسكينة . ليتنى لم استمع إلى اعتراضات (اده) .

ساد الصمت برهة .. والشريط يلف دون أن ينطق .. أظن أن الأم ترسل وابلا من نظراتها الحادة التى كنت أرى بعضًا منها ، كلما احتاج الأمر توجيه ذلك التأنيب الصامت كما هى عادتها . ثم قالت أخيرًا ، متجاهلة ذلك التعريض بها ..

كان الحديث موجهًا إلى الإبنة . قالت :

هل حصولك على الطلاق يبدو فى تصورك من الأمور السهلة ؟.. لو كان هذا ما تعتقدينه ، تكونين عندئذ أوقعت نفسك فى خطأ من سوء التقدير .. يتعين علينا أولا التعرف على الوسيلة المؤدية إلى هذا الغرض ، قبل التهور فى مطلب ، قد لا يكون فى ميسورنا الحصول عليه .. ثانيًا حسبما أعرفه من الإلمام ببعض من الجوانب فى قانون الأحوال الشخصية ، أنه إذا كان الزوج متمسكا بزوجته ، ويقدم ما يبرهن على حسن معاملته لها ، أو هى تعجز عن تقديم ما يبرهن على إساءته إليها ، فإن النتيجة سالبة لمثل هذا المطلب ، هذا من وجهة النظر القانونية .. إلا فى حالة واحدة ، إذا كان زوجك يوافقك على ما تطلبين .. ونحن لم نستطلع رأيه بعد .

فردت الشابة بعصبية :

ــ لا تلق بالحجارة فى طريقى .. إنه لا يحسن معاملتى .. وهذا سبب كاف لأحصل بموجبه على الطلاق .

فردت الأم بغضب :

ــ من ذا الذى يلقى بالحجارة ؟.. إنى لعلى استعداد لأن أضحى بعمرى كله لأفتت كل عثرة تتعثرين بها .. لا تظنى إطلاقا أنه يمكن أن أكون ضد ما يتفق مع مصلحتك .. أنت قلت إنه لا يحسن معاملتك .. كيف ؛ وأنت بنفسك من ذكر لى عكس ذلك مرارًا عديدة ، قبل أن تنبت فى ذهنك هذه الفكرة عن الطلاق ؟

وصاحت الابنة :

ــ إنه على علاقة بامرأة أخرى .

فقالت الأم بتؤدة :

— هل اعترف ؟.. أم أن الأمر مجرد سوء ظن ؟..

وقالت (اده) باكية :

كلا لم يعترف .. ولكن الموضوع يبرهن على نفسه .. لدى رسائلها إليه ..

فقالت السيدة (هراس) بجدية كأنها قاض فى محكمة :

لا تكفى رسائلها إليه .. كى تعتبر إدانة فى حقه .. قد تكون هى التى تلاحقه .. أو قد يكون ثمة من يحرضها على الإيقاع بينكما .

فقالت الشابة منفعلة :

— لا أريده .. وهذا يكفى .. لا أريد حتى أن أراه .. مجرد رؤيته لا أطيقها .. إنك تتحدثين بمنطقه ، تتبنين وجهة نظره .. لقد اعتذر بنفس هذا المنطق .. هل اتصل بك هاتفيًا فى المكتب ، قبل مجيئك إلى هنا ، كما فعل مع (دارم) ؟..

فصرخت بها الأم .. وقد تخلت عن هدوئها :

— قلت لك مرارًا ، أن لا أحد سيرغمك على التعايش معه ، على العكس مما يتعارض ورغبتك .. بيد أن الأمر ليس وفقًا لما نرغب ، أنا أو أنت .. ثمة ضوابط لتنظيم الروابط الزوجية .. لماذا لا تحاولين أن تفهمى ذلك .. ثم إنه لم يتصل بى .. ولو فعل لن أسأله عن موضوع الخلاف .. المهم الطرق المؤدية لفضه .. ثم ثمة شىء آخر ، يتعين عليك أن تعيه ، وهو أنه حتى لو كانت تلك الرسائل المنكودة ، التى تطلبين بموجبها الطلاق ، صادرة حقًا بيده ، هو لا غيره ، وموجهة إليها منه ، لا تعطيك حق إدانته . بل فى ميسوره التحدى عندما يريد ذلك . فيتزوج منها دون أن يكون لك الحق فى مطالبته بالطلاق .. وأنت تعلمين أن له الحق فى أربع زوجات .. إنه عالم الرجل .. أم أنك تجهلين هذا أيضًا ؟..

يبدو أن الابنة شدت شعر رأسها .

عرفت هذا من قول أخيها :

— ستصبحين صلعاء ..

غير أن صراخ الشابة علا على تضاحكه :

ليتزوجها .. إنى لا أريد أن أرى وجهه .. ليطلقنى .. سأجبره على تطليقى ..

وصرخت الأم بدورها :

— اصغى إلى آخر ما أقول .. وبعدها قررى ما تريدين .. سأترك لك القرار .. سيكون لك دومًا .. ولكن لنفرض أنه تزوج منها ، ومع ذلك لا يطلقك .. عندئذ ستكون لك ضرة معترف بها .

فتساءل الابن سريعًا :

— ما الحل إذن ؟

وردت أخته .. لا حل .. لا حل ..

فقررت السيدة (هراس) :

بل الحل فى محاولة تصديقه .. وإن كان كاذبًا ، كى لا تتسع هوة الخلاف ، إلى درجة أن يتزوج منها معاندًا .. أقبلى توبته ، أو تظاهرى بتصديق إنكار معرفته بها .. استمعى إلى نصحى يا بنيتى ولا تتهورى .. لا تخربى حياتك بيدك .. ثقى بأنه لو كان على علاقة بها سيقطعها بعد هذا الموقف .. ولكن احرصى على أن لا تدعيه يعترف بهذه العلاقة مطلقًا تحت أى ظرف .. إن الاعتراف بالشىء جواز المرور للتمادى فيه .. اسمعى نصحى ، ولا تتهورى .

فبكت الابنة مرة أخرى .. وعلا نشيجها ، وهى تقول بانكسار :

ـ إنك لا تفهمينني أبدا .. إنك تعاملينني كما لو كنت موضوعا تجاريًا .

فردت السيدة (هراس) بصوت أقرب إلى الغضب :

إنما أنت التى لا تفهم نفسها ، لصغر سنها ، وقلة تجربتها فى الحياة .. كلنا نعلم غرامك بزوجك ، كما أنك دون ريب تحبين لابنتك أن تنشأ فى أحضان والدها .. ولكنها الغيرة العمياء قاتلها الله هى التى أعمت بصيرتك .

فقالت الابنة متوسلة :

ـ أمى .. ألا ترغبين وتحبين لى أن أمضى العمر بصحبتك ؟.. ألم ترددى مرارًا أنك تشعرين بالوحدة إلى الدرجة التى دفعتك إلى قبول عرض أحدهم بالزواج ؟

فقالت الأم بلهجة ساخرة :

إذا كانت الوحدة أحد الأسباب التى دفعتنى لقبول عرض أحدهم على حد قولك ، فهى ليست كلها . ثمة الكثير مما حرمت نفسى منه لكى أرضيك وأخاك .. أقل ما فيها حرمانى من رفيق أسر له ما لا يسر للآخرين .. ولكن من أين لك أن تفهمى مثل هذه الأشياء ، وأنت لا تعرفين كيف تحافظين على حياتك الزوجية ؟.. ثم متى كانت بى الأثرة إلى الحد الذى أقبل فيه تحطيم حياتك ، كى أحظى بمتعة بقائك إلى جوارى ؟. أريد أن تعرفى ، وتتذكرى دومًا ، أنى ضحيت من أجلك بالكثير مما أرغب فيه أكثر من مرة واحدة ، كما يخيل إليك وما زلت .

ربما لفظت كلمتها الأخيرة فى إيماءة إلى أن الخاطب ما زال يلح فى طلبه .

فاهتاجت الشابة وصرخت :

ـ كلا .. كلا .. لم لا تقولين إنك ترومين إبعادى ، لكى يخلو لك الجو فتتزوجى منه .. إذا كان غير ذلك لم لم تقطعى علاقتك به حتى الآن ؟.. أين التضحية التى دومًا تتشدقين بها ، وفى كل وقت ؟.

حدثت حركة .. لا أدرى من الذى وقف .. أو تحرك .. ولم ألبث أن سمعت صوتًا أشبه بالصفعة القوية .. أظن أن تلك الصفعة وقعت على خد (اده) . بيد أنى لم أعرف من هو الصافع .. ربما يكون الشاب هو الذى فعل هذا دفاعًا عن والدته .. أو ربما هى الأم من فعل ذلك .. لقد علا صراخها .

اغربى عن وجهى الآن .. اذهبى إلى غرفتك .

ثم حدثت حركة وساد الصمت قليلا .. أظن أن السيدة (هراس) ، انصرفت هى الأخرى إلى غرفتها .. لتغيير ثيابها .. إن الشريط يلف ، ولا أسمع سوى تنفس الابن ، وهى ينفث دخان سيجارته ، أو وهو يضرب أصبعه فى المنفضة لإلقاء الرماد وذلك بضرب أصبع الإبهام بأصبع الوسط كعادته .

ثم سمعت بعد ذلك وقع أقدام .. أظنها الأم قادمة .. ها هى تقول .. ما حكاية الرسائل تلك ؟..

لقد استغرب الفتى التحول السريع الذى طرأ على والدته ، فمن الغضب الشديد من الابنة إلى القلق عليها .. إذ قال :

ـ آه .. ذهب الغضب ليحتل القلق مكانه .

ثم أردف :

ـ كم أنت أم طيبة .. ما أسرع ما يزول توترك ـ وضحك ـ لقد كانت عيناك تكاد تخرج من محجريهما .. أما شرايين رقبتك ، فقد قفزت من مكانها تريد أن تنفجر بدمائها لشدة انفعالك ..

وهاتذى الآن هادئة كعادتك .. لا عليك منها .. إنها هوجاء عصبية ـ وضحك مرة أخرى وهو يتابع ـ يا لغيرة النساء !!

وجاء صوت الأم جادًا :

ـ لا تقل عن أختك .. إنها هوجاء .. إنها صغيرة السن فحسب ، لم تتمرس ، ولم تلوثها المعرفة بخيانات البشر ، ولذا كان الأمر فوق طاقة احتمالها ، أن تأتيها الخيانة من مأمنها .. من الذى أصدقته العاطفة وأحبته أكثر من أى امرئ آخر .. ثم إن المرأة تبقى متوقدة فى عاطفتها تجاه من تحب ، لأن طبيعتها الاستقرار العاطفى ، مهما طال الزمن معها فى صحبة من اختاره قلبها . على العكس من الرجل الذى ما إن يتملك المرأة التى ذاب غراما بها ، حتى تهدأ عاطفته نحوها ، ويجد فى البحث عن الإثارة فى نوع جديد من النساء ، لأنه النزوع إلى التغيير والمغامرة .. هذا هو الفرق بيننا وبينكم يابنى .

إنى أعلم أن حديثها ذاك جاء بوحى مما تجده فى نفسها .. ولا يعم النساء .. بيد أنها تخيلت بخلتها الوفائية أنه طبع لكل امرأة .

سأل الابن :

ـ أهذا قدح .. أم مدح ..

فقالت :

ـ سمه ما شئت .. قد يكون الاثنين معًا .. ما حكاية الرسائل تلك ؟..

فرد السيد (دارم) بجدية ، أصيب بعدواها من موقف والدته ، قال :

ـ إن الواقعة حقيقية .. لقد اعترف لى زوجها بذلك ، عندما حاصرته أطالبه بالحقيقة كاملة .. ولكنه أقسم إنه لم يحب المرأة

الأخرى ، ولم تكن معرفته بها جدية ، وإنه لم ولن يفكر فيها .. وإنما كان الموضوع مجرد عبث .. وإنه قطع علاقته بها منذ شهرين ، عندما اشتدت ملاحقتها له بشكل جدى ، وخشى أن تهدد حياته مع أختى .

فتساءلت سيدتى .. والرسائل ؟..

قال :

إنها تضع له تلك الرسائل فى الصندوق المعلق على جانب الباب الخارجى للمنزل مع كل بريد تقريبًا .. ولكنه أقسم إنه كان يهمل الرد عليها .. وكان أيضًا حريصًا على ألا تقع هذه الرسائل بيد زوجته ، فكان يفتح الصندوق بيده ، ويعيد قفله محتفظًا بالمفتاح معه ، وإنه كان يمزقها دون أن يقرأها .. لقد أقسم على ذلك أيضًا .

وتساءلت الأم مرة أخرى :

ـ وكيف عرفت (اده) بها ؟..

فرد الابن :

ـ لسوء الحظ كما قال زوجها ، أن تصادف وصول رجل البريد عند خروجها من المنزل فى الساعة العاشرة من صباح اليوم ، فتناولت منه الرسالتين المرسلتين بتاريخين مختلفين ، قبيل أن يضعهما الرجل فى الصندوق .

فقالت السيدة (هراس) :

ـ يا للئيم .. إنها محقة .. ولكن ليس من الأخلاق أن تفتح رسائل زوجها ..

فضحك الشاب ، مبديًا تعجبه من التغير الطارئ على حديث والدته ، بعد تلك المحاضرة التى تلقتها أخته منها . فقال :

ـ محقة .. أم غير محقة ؟.. نريد أن نعرف .. لقد ذكرت غير ذلك منذ قليل .

فردت بمرارة :

ـ إن المرأة فى مجتمعنا مغلوبة على أمرها دوما .. هل لديك حل غير ما طرحته .. فى الحق لو كنت مكانها ، وفى مثل سنها ، لم أستطع أن أفعل إلا ما فعلته هى الآن .. إنها لإهانة عظمى لأنوثة المرأة ، أن ترى رجلها مفضلا عليها أخرى .

فرد الابن مستغربا :

ولكنه لم يفضلها عليها .. لقد أقسم على ذلك .

قالت الأم :

مهما يكن .. هذا يدل على أن اختك لم تسد كل جوانب عاطفته .. ويكفيها الشعور بذلك ، ليسدد طعنة غائرة لكبريائها .

ضحك (دارم) ، وهو يقول :

ـ يا لعالمكم الغريب .. لقد تغيرت من النقيض إلى النقيض فى غضون دقائق فحسب ، ما بين خطواتك فى البهو وبقائك فى غرفتك .. لم يذكر لى أحد من قبل عن هذه المتناقضات فى طبع النساء .

كان صوت السيدة (هراس) باسما على الرغم منها ، وهى ترد :

ـ صه .. لا تدعها تسمعك .. سوف أرى ما يمكن عمله معها .

وبصوت باسم ، هو الآخر ، قال :

ـ وهل ستغيرى جلدك مرة أخرى ؟..

فقالت أمه .. باستنكار :

ـ ماذا ؟..

رد :

ـ عفوا .. أعنى هل ستعاملينها بحزم بعيدا عن العاطفة التى تستحوز عليك كما أرى الآن ؟..

لم تجبه .. بل رفعت صوتها منادية .. (اده) .. (أده) .. وعندما تردد صوتها فى أنحاء البهو الواسع .. ولم تسمع ردا من ابنتها ، قالت جزعة :

ـ أين هى ؟..

فقال الابن مطمئنا والدته :

ـ لا تقلقى .. لقد ذهبت إلى سريرها القديم لتنام .. وهى تتظاهر بأنها لا تسمعك ، كى تزيد من توتر الموقف ..

ويبدو أنها تذكرت طفلة ابنتها الآن فقط .. فتساءلت :

ـ ولكن أين (هراس) الصغيرة ؟..

كان اسم الطفلة على مسمى جدتها .. فرد :

ـ فطنت أخيرا .. لقد رفض إعطاءها الطفلة .. يقول إنه يريد أن يشعرها بالحرقة على فراق الصغيرة ، كى تعود إلى منزلها سريعا .

فقالت السيدة (هراس) بلهجة مختلفة :

ـ من حق (اده) حضانة صغيرتها فيما لو حدث بينهما فراق .. إنه أيضا يجهل القانون فى مثل هذه الأمور .. لا بأس دعها معه لتنم الليلة منفردة .. وسوف أحدثه غدا ؟..

فقال الابن متوقعا :

ـ سوف تقسين عليه .. أليس كذلك ؟..

قالت :

ـ أكثر من قسوتى عليها ..

فعاد إلى القول متنبئا :

ــ ستقولين له إن من حقها أن تهجره بسبب فعلته الشنعاء ، وإن القانون والعرف والناس يكونون صفا واحدا إلى جانب زوجته ، وإن الخطأ يركبه من كافة جوانبه .. وإنه لا منجاة له إلا فى مرضاة زوجته عنه ..

ضحكت الأم لأول مرة بصوت عال على الرغم منها ، إذ حاولت أن تكبت تلك الضحكة التى بدرت منها .. وقالت :

ــ أصبحت تعرف كيف تسبر غور أفكارى .. وتعرف كيف تحلل تصرفى ..

جاء صوته مختلفا ، وهو يضحك (أظن أنه نهض واقفا) :

إنى أرى أن كل ما فى الأمر يدعو إلى الفكاهة .. أريد أن أنصرف الآن .. طابت ليلتك .. وصك سمعى صوت قبلة .. ربما وقعت على رأسها أو جبينها ، أو على .. خدها .

قالت السيدة (هراس) لابنها منذرة :

ــ لا تحط زوجتك علما بما جرى هذه الليلة ..

فقال :

ــ لقد علمت ما لم أكن أعلم عن طبع النساء فى هذه الجلسة ، ولست من الغفلة إلى أن أطلع زوجتى على أحداث هذا الليلة ، كى لا أجعلها تشدد من الحصار على .. إن الداعى إلى الإخفاء عندى يختلف عما هو لديك .. ولو كان غير هذا لربما فعلت ما لم أحصل على توصية خاصة بعدم الإخبار .. أما والحالة هذه فأنا أكثر حرصا منك على الإخفاء .

قالت السيدة (هراس) مقلدة ابنتها :

حقا كلكم من طينة واحدة ..

ابتعد صوته ، وهو يضحك مرددا .. كلنا .. طابت ليلتك .

هانذا أسمع دبيب أقدام تبتعد .. أظن أنها هى الأخرى ذهبت لتنام .. هذا باب الغرفة يوصد .

هكذا إذن تمضى بهم الحياة .. ليتنى جزء منها .

١ / ٨ / ١٩٩٠

بقى المهندس (لبين) فى المكتب إلى الساعة الثانية عشرة من مساء يوم أمس ، يناقش مهندس الشركة الأخرى ، ويتدارس معه تكلفة المشروع .

هذا أول ما أخبرتنى به زوجته ، بعد رفعى سماعة الهاتف للخط الثالث فى المكتب ، إنه الخط المباشر الخاص بالمهندس (لبين) الذى تتصل عليه زوجته عادة ، وهو بعيد عن متناول يد سيدتى ، ولذا يتاح لى دائما التحدث مع السيدة (لبين) ، وأنا مطمئن .

قالت لى أيضا .

ــ هاتفته ثلاث مرات ، خلال تأخره فى المكتب طالبة منه العودة إلى المنزل ، مذكرة إياه فى كل مرة ، بأن لدينا ضيوفا وصلوا لتوهم من المطار ، وكان فى كل مرة أيضا يستمهلنى لمدة ربع الساعة ، ثم يستغرقه العمل ناسيا الموضوع برمته .

ثم سألتنى عرضيا :

ــ متى انصرفت مع السيدة (هراس) ؟.. فلما ذكرت لها أن ذلك كان فى حدود الساعة الثامنة مساء .. اطمأنت إلى صدق زوجها . ثم قالت :

ــ وأخيرا عندما قرر المجئ ، هم بأخذ مخطط المشروع معه ، كأن لم يكفه ذلك التأخير ، ولكنه أعاده إلى الدرج كما يقول عندما تذكر الضيوف الذين فى المنزل ، وأنه لم يتبق متسع من الوقت لمراجعته .. وقالت : لك أن تتصور أن لاهم له إلا مشاريع السيدة

(هراس) ، وكأن ليس له أسرة يرعاها .. إنه مبهور بهـا .. بل هو مبهور لكل ما فى دولة تيوك .. لو سمعته وهو يصف لضيوفنا شوارع المدينة الفسيحة المتلألئة بالضياء ، فى أثناء عودته إلى المنزل ، والليل ساج ، والحركة قليلة .. لقد رسم لوحة شاعرية وصفية .. بل استمر يصف ازدهار التقدم فى مجالات عديدة ، حتى بهر الضيوف ، فتكون لديهم انطباع بان مدينة (تيوك) هى جنة الله فى أرضه ، حاولت أن أحد من اندفاعه دون جدوى .

قد تعجب إذا عرفت أنه فى هذه المدينة منذ ما يقارب الاثنى عشر عامًا ، شأنه شأن الكثيرين من الأجانب الذين أمضوا نصف أعمارهم فى هذا البلد الغنى ، ومع ذلك تراه دومًا يجد نفسه متأملاً معجبًا بمعالم حضارتها من شوارع فسيحة ، وأبنية ضخمة ، وحوارى نظيفة . وكل ما يجد فيها من أشياء ، أو من أناس ، كلما رأى نفسه منفردًا ، عائدًا إلى منزله ، أو ذاهبًا منه إلى عمله فى مقر شركة هذه السيدة (هراس) .

تخيل أنه عندما نسافر إلى موطننا بضعًا من الوقت ، وبعد العودة منه إلى هنا ، يجد نفسه وكأنه يدخل مدينة (تيوك) ويراها لأول مرة . فيعاوده الانبهار بجمالها ، ويأخذ بترديد عبارات مثل ما هذا الازدهار الذى لا يتوقف !!

السيدة (هراس) أيضًا لا تفقد جدتها فى نظره ، على الرغم من مضى قرابة العام على عملهما معًا ، فهو دائم الامتداح لحصافتها وأمانتها فى التعامل التجارى معه ، ومع غيره من الناس .

وبعد ضحكة صغيرة ساخرة .. أضافت متسائلة :

ـ وأنت .. هل ترى فى دولة تيوك وأهلها ما يراه ؟..

فقلت متملصًا :

ـ لكل امرئ ما يناسبه .. إذ له فكره وذوقه الخاص .. لا تعتدى بمثل هذه المقارنة .

ولكنى قلت لنفسى .. ماذا لو أعلمتها بشدة ولعى بكل ما فى دولة (تيوك) ولعًا يفوق بملايين المرات ولع زوجها الذى تصفه .. قطعًا لن تفهم دوافعى .. إلا إذا شرحت لها ما يعتلج فى صدرى ، مما قد يزيد من مخاوفها على زوجها من سيدتى عن الحد المطلوب .

قطعًا إنى لا أخشى عليها من هذه المخاوف فى حد ذاتها ، بقدر خوفى من أن تدمر تدابيرى .. إنى أريدها على درجة من النار الهادئة ، إلى إتمام نضج الطبخة ، وليس إلى زيادة النار بصورة مفاجئة مما قد يؤدى إلى إحراقها قبل أن تنضج ، فيؤدى بنا الأمر فى النهاية إلى الافتضاح .

قلت متهربًا :

ـ وأنت .. ألا تحبين دولة (تيوك) ؟..

أجابت :

ـ إطلاقًا .. أتمنى اليوم الذى نعود فيه إلى موطننا .. إن لهذا البلد سحرًا عجيبًا لا يقاوم فى نظر الرجال .

نسيت نفسى .. فقهقهت ، وأنا أقول .. إنه سحر الذهب .

فردت :

ـ بل قل إنه سحر أسود ..

نادتنى سيدتى .. فأسرعت أكذب على السيدة (لبين) ، قبل أن أضع سماعة الهاتف :

ــ يبدو أن سيدتى جاءت .. مع ألف سلام .

سألتنى سيدتى :

ــ مع من تتحدث بالهاتف ؟

فقلت :

ــ مع ابن عمتى ..

فقالت ساخرة :

ــ ابن عمتك .. أم ابن خالتك .. إنهم كثر .. يبدو أن كل ما فى دولة تيوك من مواطنيها ينتمون بصلة القرابة إليك .. ثم لم لا يحدثك ابن عمتك هذا على الخط العام ؟ لمَ يطلبك على الخط المباشر للمهندس (لبين) ؟..

كان من حقها أن تسخر ، لسبب بسيط ، إن كل أبناء بلدتنا ها هنا دأبوا ينعتون بعضهم بعضًا بأنهم أقارب ، لكل من يسأل عن صلة المعرفة ، فكان ذلك من عوامل التندر علينا عند أناس (تيوك) . لا يقول أحدهم هذا صديقى أو زميلى قط ، بل يقول إنه قريبى ، وغالبًا أخى أو ابن عمى .

فقلت معتذرًا :

ــ أنا الذى طلبت منه أن يهاتفنى على الخط المباشر للمهندس (لبين) كلما أراد محادثتى ، ولكنى حددت له الوقت مشترطًا أن يكون ذلك مبكرًا ، قبل مجىء المهندس ، وذلك كى لا أشغل الخطوط العامة ، لأن الطلب عليها كثير .

يالى من ماكر .. إذن كيف أهرب من هذا المطب ، وأنا أروم الاستمرار فيه .. قالت :

ــ وماذا لو طلبك قريبك هذا ، والمهندس (لبين) موجود فى مكتبه .. ألا يتسبب ذلك فى إزعاجه ، وتأخير عمله ؟..

أغاظنى حرصها على راحته .. ولكنى كتمت ما بى ، وقلت بثقة ، مبعثها أن السيدة (لبين) هى التى تطلبنى ، وهى تعرف حتمًا تقدير الوقت الذى يستغرقه زوجها فى الطريق إلى مكتبنا . قلت :

ــ محال لن يفعل ذلك إطلاقا . حتمت عليه أن يهاتفنى مبكرًا ، قبل موعد مجئ المهندس ، وإلا فلا ، مهما كانت الأسباب الداعية لذلك .

فردت بإيجاز وضيق :

ــ دع ابن عمك يوجز .. اعمل لى شايًا مخلوطا بالحليب .

إنها تريد أن تفطر بهذا الكوب من الحليب المخلوط بالشاى .. ومع أن الخادم المختص بذلك موجود ، إلا أننى فضلت أن أعمل مطلبها بنفسى ، إنى دائمًا أقبّل فنجان الشاى قبل أن أصبه فيه .

الساعة الآن الثانية ظهرًا .. لقد فرغت لتوى من تدوين أحداث هذا الصباح ، ولقد انصرفت سيدتى وحدها إلى المنزل .. يبدو أنها لن تأتى ظهر هذا اليوم .. وإلا لأخذتنى معها .. ربما حتى تتمكن من حل مشكلة ابنتها مع زوجها .. سأعرف ذلك من جهاز التسجيل .. أوه .. حتمًا سيكون الشريط قد توقف .. مستهلكا دورته .. كنت قد أدرته هذا الصباح قبل خروجى بدقائق .. وسيستمر لمدة ثلاث ساعات ثم يتوقف .. كنت آمل تغييره ظهرًا .. فى أثناء قيلولة سيدتى وابنتها .. ليت تلك الغبية زوجتى تفهم ما عليها ، فترتب الأمر .

ليس ذلك فقط ما يشغلنى .. إنى أشعر بالقلق فى كل مرة أخبئ بها الجهاز فى البهو ، أو فى غرفة سيدتى ، خاصة إذا لم أكن متواجدًا فى المنزل .. إذ تتضخم الوساوس عندى ، وأنا على البعد .. لو كنت هناك سأعرف بوقوع المحظور من أول ما يقع .. ثم إن أصعب ما فى الموضوع أن الأمر لا يتعلق بسيدتى فقط ،

فهى عادة لا تنتبه كثيرا إلى مثل هذه الدقائق من الأمور ، خصوصا وقد كسبنا ثقتها على هذا المدى من الزمن . بيد أنى أخشى الابنة .. وهى متفرغة الآن جالسة فى المنزل .. ربما تعبث فى أركانه .. ماذا لو عثرت عليه ؟

المهم أنى أمضيت فترة ظهر هذا اليوم كلها تقريبا فى حال من القلق وانشغال البال ، حتى اقتربت الساعة الرابعة عصرا ، عندما أنقذنى مما أنا فيه رنين جرس الهاتف فى مكتب السيد (ليبن) ، لأجد زوجته على الطرف الآخر من الخط . قالت : إن زوجها فى الطريق إلى المكتب . سألتنى عن سيدتى ، فقلت لها .. إنها لن تحضر بعد ظهر هذا اليوم .

فرحت ، واسترسلت فى الحديث :

ـ قضينا ليلة ممتعة يوم أمس مع ضيوفنا .. إنها ابنة خالى ، لقد حضرت من موطننا حديثا .. كانت ترغب فى العمل هنا منذ أمد . بيد أن رسالة الدكتوراة فى طب جراحة المسالك البولية كانت تعوقها عن الحضور ، تلك الرسالة التى كانت تعدها منذ سنتين .. حصلت أخيرا على الموافقة بالسفر إلى هنا على أن تعود إلى موطنها فقط عند مناقشة هذا الرسالة .. يتعين عليها أن تذهب غدا إلى المستشفى لاستلام مهام وظيفتها .. ابن عمى الطبيب أعد لها كل شىء هنا .. قدم أوراقها إلى الجهات المختصة ، ولم يتبق سوى توقيع العقد معها .. ومن ثم تتسلم العمل كطبيبة .. سيتم ذلك غدا .. كانت فرحة ، وكأنها ملكت الدنيا ، خاصة بعد إصاختها السمع إلى (ليبن) ، وهو يكيل المدح كيلا عن مزايا العمل فى هذا البلد المعطاء كما يقول . لقد أخذت ابنة خالى تنظر إلى خطيبها نظرة انتصار .. إنه الآخر يعمل فى دولة (تيوك)

منذ ثلاثة أعوام ، ولكنه لم يصل إلى درجة الإعجاب بهذا البلد وأناسه كالذى يملكه زوجى عنها . كذلك لم يصل إلى الدرجة الوظيفية التى ستكون عليها خطيبته الآن .. لقد قال وشعور بالحسد يلون ملامحه :

ـ سيكون مردودك المادى من وظيفتك الجديدة يزيد على ما آخذه أنا من وظيفتى .

قال ذلك مشيرا إشارة خفية إلى ما تملكه خطيبته من وسائل الوساطة .. مما جعلها تمتاز عليه .. ولكنى أفهمته أن الكادر الوظيفى محدد لكل درجة علمية .. وأن الوساطة لا تنفع لمثل هذه الأمور .. وإلا لكانت الفوضى عامة .. وقلت له : لو أنك كنت طبيبا لحصلت على مثل ما تحصل عليه الآن .. على أية حال إنه خاطئ . يجب أن لا ينظر إلى مثل هذا المسائل بين الزوجين .. المهم التعاون بينهما لبناء عش سعيد .. هذا ما قلت لهما .

فقاطعت استرسالها قائلا :

ـ وماذا كان رأى السيد (ليبن) ؟..

ردت شاكية :

ـ أبدا .. نحن فى واد وهو فى واد آخر .. لقد قال تعليقا على حديثنا ..

إنه تطبيق عادل للمساواة التى تطالب بها السيدة (هراس) .. حتى أن ابنة خالى ردت ضاحكة :

ـ ومن هى السيدة (هراس) .. إننا لا نطالب بالمساواة .. لقد حصلنا على كافة حقوقنا ومنها الحقوق السياسية .

فقال مصححا :

ـ بل اقصد المرأة التيوكية .. إنها تطالب بالمساواة .. آه لو

تعلمين أو تسمعين قائمة الحقوق المسلوبة التى تطالب بها السيدة (هراس) .. ثم إنى فى حالة استغراب ، مع كل ما حصلت عليه ، ومع ذلك تعتقد أن لها حقوقا مسلوبة .

ثم أردفت السيدة (لبين) بحنق وهى تصف حال زوجها :

ـ ألا تعجب .. نحن نتحدث عن حالة ابنة خالى .. وهو لم يكف عن تمجيد مدينة (تيوك) وأناسها ، حتى أقحم فى الحديث المساواة التى تطالب بها السيدة (هراس) .. إنه لا يكف عن التفكير فيها ، حتى وهو معنا .. تراه يجدّ فى البحث عن سبب لكى يتحدث عنها ، غير فاطن إلى أنه يعرى نفسه أمامى . بل الأنكى من ذلك أنه عاد إلى الحديث عن التقدم الذى لا يجارى بكل المقاييس ، الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية ، كما أنه لم ينس أن يمتدح الديمقراطية المطلقة والتنظيم المذهل ، مقارنا كل ذلك مع أفضل المجتمعات ، قائلا .. إن دولة (تيوك) قفزت .. وتقفز بخطى متسارعة مذهلة نحو الرقى ، متجاوزة كل السلبيات الأخرى .. حتى أن قوله ذاك دعا ابنة خالى إلى التساؤل :

ـ إذن .. لماذا هم يستعينون بخبراتنا ؟.. أتدرى بماذا أجاب ؟..

فقلت متسائلا .. بماذا أجاب ؟..

قالت السيدة (لبين) :

ـ برر ذلك بقلة الكثافة البشرية ، فتعداد سكان دولة (تيوك) لا يزيد على ثلاثة أرباع المليون .. ولذا فإنهم يستعينون بالأجانب بطريقة غير رسمية ، هذا إذا علمت أن تعداد الأجانب يربو على المليونى نسمة .. وهؤلاء الأجانب محتاجون إلى خدمات مختلفة طبية وهندسية واجتماعية ، وغير ذلك ، ولذا فنحن نقدم الخدمات لأنفسنا بأنفسنا عن طريقهم .. ياله من اكتشاف لم أكن أعرفه من قبل .. ولأن ابنة خالى مثلى فى ذلك ، فقد ردت :

ـ إذن أنا هنا لأطببكم . ولكنى لم أدع الأمر يمر بسهولة فقد قلت ساخرة :

ـ إذن فهم يكملون عددهم بنا .. لماذا إذن لا نحصل على نفس الامتيازات التى لهم .. طالما نحن مهمون لهم بمثل هذه الدرجة .. أو لماذا ـ من باب أولى ـ لا يمنحون العدد الذى يكملهم الجنسية التيوكية .. هذه الوريقة التى تمثل عندهم ما هو أرقى من التصريح لدخول الجنة ، بدلا من إكثار العدد بطريقة غير دستورية ! بل الأغرب من هذا ، لماذا سمحوا أن تتكون لديهم هذه الفئة التى يدعونها (بدون جنسية) ، طالما أنهم محتاجون إلى الوفرة فى العدد ؟ لماذا لا يجعلونهم مواطنين بدلا من ترك هؤلاء الناس معلقة مصائرهم بخيوط واهية ؟.. أسمعت أو رأيت فى أى مكان على وجه الأرض أناسا ليس لهم وطن ، وأن الدولة التى تستضيفهم لا تريد أن تعترف بهم فى نفس الوقت ؟! لماذا لا تقوم دولتك ـ ذات الديمقراطية المذهلة بصورة مطلقة كما تقول ـ لم لا يكون لها ذرة من الإنسانية ، فتقوم بإقرار هؤلاء المنفيين فى أرضها ، ومنحهم حق العيش فى أمان ؟

لقد أفحمته بردى هذا .. فجعلته يتخبط بردوده ، إلى درجة أنه ابتعد عن الموضوعية حين أجاب متخذا وضعنا نحن كأجانب موضوعا للحديث :

ـ ليس بالمعنى الحرفى .. حاجتهم لنا .. ثم إنهم لم يتركوا كبيرة أو صغيرة إلا ويرعونها من أجلنا .. فماذا نريد أكثر من ذلك ؟. لو كان الأمر يتعلق بهم فقط .. فهناك الكثير من الأطباء

والمهندسين من أهل البلد ، ولكنهم لا يسدون الحاجة مع وجودنا .

رددت عليه وأنا أتميز غيظا وغضبا لتهربه من الموضوع الذى طرحته ، قلت له :

ـ إنهم لثرائهم مدللون ، لا يطيقون الأعمال الشاقة التى تتطلب جهدا عظيما .. أتدرى بماذا أجاب ؟

كان رده وكأنه يتحدانى .. قال :

ـ لذلك ظهرت بينهم نسبة كبيرة من الأطباء والمهندسين والمفكرين ، وذوى الثقافة العالية ، لتفرغهم لهذا المنحى من جوانب النشاط .. والشىء الوحيد غير الموجود بينهم هو طبقة العمال .. فأهل (تيوك) يترفعون عن مثل هذه الأعمال .. فالرفاهية المادية جعلتهم كلهم أصحاب عمل يستعينون بعمال من دول أخرى لخدمة أعمالهم وخدمتهم .. وهذا شىء طبيعى فى كل مجتمع غنى .

تصور دولة كلها رؤساء ومرءوسوهم من أبناء الجاليات لدول أخرى .. هل رأيت عنصرية أكثر تميزا من ذلك .. ومع ذلك زوجى يقرّها بفخر ، ولا فخر السكان أنفسهم .. مما دعا ابنة خالى ، بعدما سمعته إلى القول مستغربة : أرزاق !.. أنا لست مثلها .. إنى أعرف جيدا كل شىء عن هذا البلد .. ولكن الذى أعجب له .. أنى لم أر رجلا يقدس المتعالين عليه بهذه الطريقة سوى زوجى .. والأعجب من ذلك هذه العاطفة الجياشة التى تتملكه لكل ما فى دولة (تيوك) .. لشوارعها .. وأبنيتها ، وحتى شمسها الحارقة ، وأتون صيفها المتوقد ، أطلق عليها صفة مفيدة .. (إنها تقضى على الميكروبات هذه الحرارة) .

وبدلا من أن يسأل ضيفتنا عن بلدنا وأهلنا .. انهمر كالسيل الجارف يكيل المدح كيلا غير موزون لكل شىء هنا .

ثم أردفت وقد بلغت أوجها من الحقد :

ـ لن يهنأ لى عيش ، حتى أجعل زوجى يترك العمل لدى هذه السيدة .. ألست معى ؟..

فقلت بآلية .. وأنا أفكر فى حديثها : معك .

فقالت .. حسن لندبر أمرا .. لنفكر بطريقة ما نستطيع من خلالها التفريق بينهما .. ما رأيك ؟..

أجبت : نفكر .. نفكر ..

وقبل أن أتم عبارتى هذه ، وصل إلى سمعى صوت المهندس (لبين) يحادث السكرتيرة طالبا منها موضوعا ما .

إذن سرقنا الحديث ، فلم نقدر الوقت الذى مرّ ، وتلافيا للموضوع ، فقد رفعت صوتى مناديا .. مهندس (لبين) .. مهندس (لبين) .. إن السيدة زوجتك تطلبك على الهاتف ..

فقالت هامسة فى عجالة :

ـ أحضر .. سريعا ؟. ماذا عسانى أقول له ..

ناولته سماعة الهاتف .. وانصرفت .

لست أدرى كيف دبرت له موضوعا للحديث .. سوف أعرف منها ذلك غدا .

٢ / ٨ / ١٩٩٠

الساعة الآن السادسة صباحا ، لم أستطع النوم بطريقة جيدة .. كان حديث السيدة (لبين) قد أقلقنى طوال مساء أمس وليلة البارحة .. لماذا يهتم زوجها كل هذا الاهتمام بسيدتى ؟.. أهو مجرد إعجاب لكل أهل (تيوك) كما يحاول أن يبديه .. أم أن هذا الإعجاب يحمل صفة خاصة ؟.. أم ماذا ؟

بيد أن الموضوع الأشد نكاية فى نفسى من كل ذلك هو أن ما كنت خائفا منه قد حدث .

عندما سألت زوجتى ليلة البارحة عن جهاز التسجيل ، قالت .. إنها لم تلحظه فى أثناء عملية التنظيف ، على الرغم من أنها قلبت المقاعد ، لكى تنظف تحتها ، فكان من جراء هذا القول أن انتظرتُ حتى رقد الجميع ، وتسللت إلى الصالة فى حوالى الساعة الثانية ، بعد منتصف الليل ، باحثا منقبا ، فلم أجده فى المكان الذى وضعته فيه يوم أمس .

أيكون أحد عثر عليه ؟.. حتما إنه وقع بيد السيدة الصغيرة .. إنها دائمة العبث بأثاث المنزل .. إنى أعرفها وأذكر حركاتها التى لا تهدأ قبل أن تتزوج .. ماذا ستظن بى .. لماذا لم تسأل زوجتى عمن وضعه هناك .. أتكون تعد خطة للإيقاع بنا .. أم ظنت أنه لوالدتها ؟.. هل أخبرت والدتها عنه .. أم أنه لم يتبق المزيد من الوقت بعد مناقشة الشجار بينها وبين زوجها .. كان زوجها فى المنزل ، كما أخبرتنى زوجتى مساء أمس ، وأنه خرج غاضبًا .

لو أخبرت والدتها عنه .. حتمًا سيدتى سوف تسألنى هذا اليوم .. ماذا يتعين علىّ أن أقوله حينذاك ، كى أرأب الصدع ؟.. يجب التأكد .. سأدع القلم بضع لحظات ، كى أفحص المكان مجددا .. قد أكون لم أره لاشتداد الظلام ليلة البارحة .

آه .. ما هذا الدوى .. كأن زلزالا يحدث فى مكان قريب من هنا .. لو لم أر السماء صافية من موقعى فى غرفتى ، لقلت إنه قصف الرعود .. هأنذا ذاهب لأفحص مكان جهاز التسجيل مرة أخرى .

كان القلم بيدى وقد نسيتُ أن أضعه بين دفتى (الكشكول) ، والوقت لا يزال فى السادسة والربع على وجه الدقة ، وكنت أهم

بقلب المقعد الكبير لأبحث تحته ، عندما شاهدت السيدة الصغيرة ، تفتح باب غرفتها بعجالة ، وتندفع بسرعة كبيرة ، وهى تصرخ كمن لدغته عقرب ..

ماما .. ماما .. أمى ..

لم تنتبه إلى وجودى فى الصالة ، فى مثل هذا الوقت المبكر .. حتى لو رأتنى .. فأنا دائم المساعدة لزوجتى فى عمليات التنظيف ، حقا إنه ليس فرضا علىّ ، ولكن غالبا ما أقوم بهذا العمل التطوعى .

فتحت سيدتى باب غرفة نومها ، على إثر طرقات ابنتها العنيفة فى حال من الانزعاج الكبير ، فبانت لى بشعرها غير المرتب ، وثوب نومها الأبيض الهفهاف .. قالت برعب :

ـ أجرى لأخيك شىء ؟

مسكينة السيدة (هراس) .. إنها لا تفكر إلا فيهما .. وطالما أن ابنتها ماثلة أمامها ، فلابد وأن الآخر البعيد عنها ، هو ما يجب القلق عليه .

قالت الابنة كلامًا غريبًا ، شد انتباهى بقوة طاغية ، قالت :

ـ إن دولة (قارع) احتلت البلد .. وإن جنودهم يملئون الشوارع والأزقة .. وإن الطائرات تغطى السماء .. والبوارج تملأ البحر .

تذكرت سماعى للدوى قبل لحظات .. فأصخت السمع .

قالت سيدتى :

ـ ولكن كيف عرفت كل هذا ؟.. أكنت تحلمين ؟..

صرخت البنت بانفعال :

ـ كلا .. كلا .. إنه (رصان) .. الذى أخبرنى .. إنه لا يزال على الهاتف ..

وتركت سيدتى فى موقفها حيرى .. وركضت إلى الهاتف تريد أن تتم حديثها مع زوجها ، وهى تعتذر لوالدتها .

لقد نسيته على الهاتف .. أخبرنى قبل لحظات .

يبدو أن الخبر المفجع أنسى سيدتى أيضا ارتداء (الروب) فوقَ قميص النوم الهفهاف .. أم أنها لم ترنى ، على الرغم من أنى أنتصب فى منتصف البهو .. إذ خرجت من غرفتها ونيدة الخطى ، تشنف أذنيها ، كى تلتقط الدوى ، وتحدد موقعه ، وجلست على أريكة ليلة البارحة .. يبدو أيضا أن سيدتى نسيت فى غمرة الحدث ، أن ابنتها وزوجها متخاصمان ، فلم تسأل من الذى بدأ بالاتصال ، وعندما عادت الشابة ، جلست لصق أمها على الأريكة ، قائلة :

ــ يقول (رصان) ، إنهم آخذون فى ضرب كافة الإدارات العامة الداخلية ، والخارجية ، وقد ضربوا كافة قصور الإدارة الحاكمة بعد منتصف ليلة البارحة ، وفجر اليوم .

قالت سيدتى :

ــ لم يخطر لى ببال قط أن مثل هذا ممكن الحدوث .. أجل ، كان بين الدولتين شىء من الخلاف ، ولكن هذا لا يبرر ، ولا يستدعى غزونا .. أهذا ممكن ؟. بعد كل ما قدمنا لهذه الدولة الناكرة للجميل من مساعدات فى حروبها المستمرة .. فعلا ، لقد كنت سامعة لهذا الدوى مبكرًا من صباح اليوم .. ولكن ليس بمثل هذه الشدة .. ربما لأن النعاس كان يغالبنى .. ظننت أن الخدم هم الذين يصفقون الأبواب ، فقررت لفت أنظارهم عند الاستيقاظ .. أوه ، لقد قامت الحرب ، ونحن ننام آمنين .. يالسخرية القدر !

تخيلتها ، وهى تتقلب فى فراشها الواسع إثر سماعها ما أزعجها .

اتجهت نظراتهما ناحيتى ، حيث كنت لا أزال مسمرا فى وسط البهو ، فقلت مبررا وقوفى :

ــ جئت أسأل عن مصدر هذا الدوى .

أى منهما لم تعط انتباها إلى قولى ، أو تلتفت إلى عباراتى ، بسبب أنه فى اللحظة ذاتها ، صاحب قولى ذاك دوى هائل لقصف مدفعى رج جدران منزلنا ، فتطاير على إثره الغبار من حيطانه هنا وهناك ، كأن عاصفة هبت داخل المنزل ، وكادت تسقطه على رءوسنا ، وقد تناثر بعض من زجاج النوافذ ، وتصدع بعضه الآخر ، فى هذه اللحظة من الفزع المميت ورد على خاطر سيدتى مصير ابنها ، فصرخت مرعوبة هلعة ، تخاطب ابنتها :

أخوك .. أين هو .. إن منزله بالقرب من الهيئة العامة للداخلية .. آتونى بالهاتف .. هاتوا الهاتف ..

وهنا أطلت زوجتى بسحنتها المصفرة خوفًا وقد استيقظت أخيرًا .. وكأن لا يوقظها إلا ذلك الضرب المدفعى الشديد .. ووقفت على باب غرفة الطعام على الجانب الأيسر من الأريكة التى تجلس عليها السيدتان ، وكانت مبهورة الأنفاس .. تتساءل بعينيها عما يجرى .

فقالت لها سيدتى وبصوت زاعق :

ــ هات الهاتف ..

سحبت الهاتف بخيطه الطويل إلى حيث تجلس سيدتى ، واتجهت ناحيتى تتساءل بعينيها .. فهمست لها .. بأن غزوًا من دولة (قارع) وقع علينا .. وطلبت منها التزام الهدوء ، فالكل فى حال من التوتر لا يقبل فوقها المزيد .

قال لها ابنها :

ــ إن منزله يهتز بعنف من فعل ارتداد الهواء الناشئ عن

القصف المدفعى المستمر .. وقال ان المنطقة التى يوجد بها المنزل ملتهبة .. وإنه وزوجته وابنه والمربية كلهم منبطحون تحت الطاولة فى غرفة الطعام .. وإن الخروج من المنزل غير مأمون العواقب .. وهو لذلك ليس فى مقدوره الحضور إليها .

هذا ما فهمته من ردود سيدتى السريعة على حديثه ، ولذا فقد طلبت منه عدم التحرك قائلة له :

ــ ابق .. ابق .. حيث أنت ، لا تغادر مكانك .. أين دفاعاتنا .. لماذا لا يتصدى لهم أحد ؟..

والتفتت إلى ابنتها قائلة :

ــ افتحى المذياع .. يقول أخوك .. إنهم جيش جرار لا قبل لنا بهم .

نسيت سيدتى أن تنهى الحديث مع ابنها ، فوضعت سماعة الهاتف .. فما لبث أن رن .. يبدو أن السيد (دارم) أفزعه إغلاق الخط قبل أن تنهى والدته الحديث معه .. وقالت له : سأهاتف خالتك . كانت الساعة تشير عندئذ إلى الثامنة والنصف ، والكل ما زال مسمرًا فى مكانه دون حراك ، منذ ما يزيد على الساعتين .

قالت لأختها :

ــ أسمعت بالخبر المشئوم .. ماذا يريد هؤلاء الأشرار ؟. لا تعرف ماذا يحدث .. وما هو حاصل .. فقط الاستماع إلى دوى المدافع .

وعندما أغلقت الخط ، دون أن تنهى الحديث مرة أخرى ، قالت موجهة الحديث إلى ابنتها :

ــ أعادوها مشيًا على الأقدام .. خالتك .. بعد أن استولوا على

عربتها ، قالت انها كانت ذاهبة إلى عملها فى مجمع الهيئات دون أن تعرف بخبر الغزو ، لم يقل لها أحد عنه ، لم يخبرها أحد أن غزوا وقع على دولتنا ولذا خرجت من منزلها غير عالمة بشىء مما يحدث ، على الرغم من سماعها للقصف .. ظنت المسكينة أنه بعيد .. وأنه ربما لأمر ما لا يخصنا .. فاعترضوها فى الطريق ، وأنزلوها من عربتها .. إنها منهكة لا تستطيع الوقوف على قدميها .. تقول إنهم استولوا على كافة عربات الموظفين النازحة إلى مجمع الهيئات .. فكونوا سدًا من العربات يمنع أى هجوم مضاد يأتى من جهة البحر .. يبدو أنهم كانوا يتوقعون هجومًا مضادًا من تلك الجهة .. كل من ذهب إلى عمله فى هذا الصباح المشئوم ، عاد راجلا ، بعد ما كان راكبا ، فاقدا لعربته ، متورمة قدماه .. يالهم من أنذال .. يروج الغزاة ، أنهم جاءوا بناء على طلب من المعارضة المحلية ، هكذا سمعت منهم .. وأن ثمة انقلابًا للحكم سوف يتم ، يتزعمه جماعة المعارضة .. يالهم من كذبة .. إنها ذريعة لاغتصاب (تيوك) .. افتحى .. افتحى التلفاز .

قالت هذه الأنباء لابنتها ، وفى نفس الآن أمسكت بسماعة الهاتف لتعاود الاتصال بابنها .. قالت له :

ــ القصف مستمر .. المنزل يرتج كلما دوى انفجار فى أحد المواقع .. منعوا الناس الذاهبين إلى أعمالهم ، استولوا على عرباتهم ، فعادوا متورمى الأقدام .. ابق على اتصال مستمر معى .. يجب أن أطمئن عليك .

وأقفلت الخط بتشويش كامل .

كان من دواعى السخرية ، أن زوجتى فى ذلك الموقف العصيب ، سألت سيدتى بلهجة الخلى :

ـ ماذا أطبخ لهذا اليوم ؟..

فردت عليها سيدتى باستنكار :

ـ ماذا نطبخ ؟.. ومن ذا الذى سيأكل ؟..

وأشارت بيدها بعصبية . وكأنها الآن فقط ، فطنت إلى وجودنا :

ـ ابقيا هنا .. ابقيا هنا فى غرفة الطعام . قريبين منا .

انتبهت السيدة الصغيرة أخيرًا إلى وجودى .. فهتفت :

ـ ليأت لنا بالخبز ، من الفرن القريب ..

ركضت إلى غرفتها ، لتمد لى نقودًا وقالت :

ـ خذ هذا الدينار .. هات به كله خبزًا .

فقالت سيدتى باستنكار ، وكأنها غير مصدقة أن شيئًا سيحدث ، لدولتهم الصغيرة الأنيقة ، فيمنع عنهم الطعام مع وفرته :

ـ لماذا المبالغة فى تصور الأحداث .. حتمًا سيندحرون .. حتمًا ، إننا قادرون على إخراجهم .. لن يطول الأمر أكثر من أيام قليلة .

ولكن الابنة أصرت قائلة :

ـ سيختفى الطعام قريبًا .. يجب أن نشترى خبزًا على الأقل ..

والتفتت إلىّ .. أحضر الخبز سريعًا ..

ومع هذا بقيت سيدتى غير مصدقة أن ما يجرى يمكن أن يبقى له أثر على المدى الطويل .

عندئذ رن جرس الهاتف مرة أخرى .. يبدو أنه زوج ابنتها ، إذ سمعت ردها عليه :

ـ لا نعرف شيئًا ، دوى المدافع يقترب من المنطقة .. إن المنزل يرتج مع كل صوت قذيفة .. رجل فى المذياع يطلب النجدة .. حتما ستزول الغمة .. لا بد أن ثمة وسيلة لردعهم .. ماذا ترى أنت ؟..

ـ ما زلنا بخير ، لم يسقط المنزل بعد ، ولكن إذا استمرت الحال يومًا آخر ربما سقط .

بعدما أغلقت خط الهاتف .. انتبهت .. فالتفتت إلى ابنتها .

ـ نسيت أن أعطيك إياه .. إنه زوجك ..

فردت السيدة (اده) :

ـ أوه .. لقد طلبت منه أن يحضر ابنتى .. حالما يرى لحظة مناسبة للخروج .

يبدو أن سيدتى تذكرت أخيرًا سوء التفاهم بين ابنتها وزوجها ، فقالت :

ـ اطلبيه .. ادعيه للحضور .. ليبقيا معنا هو والصغيرة .. لا أحد يعرف ماذا سيحدث ، يتعين علينا أن نبقى كلنا قريبين من بعضنا .

اتصلت السيدة الصغيرة بزوجها ، الذى بدا كأنه قريب من الهاتف ، إذ سرعان مارد ، قالت له :

ـ تعال .. تعال سريعًا .. إنى وأمى خائفتان .. كلا .. كلا .. لا تدع أخى يأتى معك .. إن القصف عند منزله .

اختطفت الأم سماعة الهاتف من يد ابنتها ، وتوسلت :

ـ انصحه أن يبقى حيث هو .. لا تدعه يخرج من المنزل .. اتصل به ، تأكد أنه لن يخرج ، حتى يهدأ القصف .. وأنت إذا رايت خطورة فى خروجك .. ابق مكانك .

وأغلقت الهاتف بتشويش كامل ، آخذة فى فرك يديها طويلتى الأصابع إحداهما بالأخرى ، كعادتها عندما تشعر بالقلق .. إن قلقها الآن أكثر من أى فترة مرت عليها .. لم أرها على مثل ما هى عليه من الفزع ، قالت :

ـ ليس فى ميسورى السيطرة على ارتعاش عضلات جسدى .. أتظنين أننا سنتغلب عليهم ؟

قالت قولها هذا ، وهى تلتفت إلى ابنتها .. ولكن السيدة الصغيرة لم تجب ، وإنما بقيت شاردة اللب مستغرقة فى التفكير .

ولم تنتبه أى منهما إلى أنى لم أتحرك من مكانى ، لاستحضار الخبز .. كنت مشدودًا معهما إلى الأحداث .. ولكن عندما تناولت سيدتى الهاتف مرة أخرى ، وأخذت تحدث إحدى قريباتها ، مكررة ما قالته لأختها انصرفت أستجلب الخبز .

وهكذا استمر بنا الوضع طيلة النهار .. لم يتوقف رنين الهاتف مستقبلا أو مرسلا .

الساعة الآن تشير إلى الحادية عشرة ليلاً .. الكل أوى إلى فراشه ، بعد يوم حافل بالرعب ، مرهق من الفزع ، ومن الوساوس بالموت والدمار ، لم يغادر أىّ منّا المنزل .. سوى ذهابى مرارًا إلى الفرن المقابل لمنزلنا ، لجلب المزيد من الخبز برغم اعتراضات سيدتى فى كل مرة أحاول فيها ذلك .. كانت ترفض التصديق بأنه من الممكن أن تحدث مجاعة فى هذا البلد الوفير .. بيد أن السيدة الصغيرة ، كانت كلما أحضرت رزمة من الخبز ، ودفعت لى بدينار آخر طالبة جلب المزيد .. قالت لها سيدتى : لم كل هذا ؟.. لن تطول الأزمة .. لا يعقل أن تطول !...

كانت جالسة على المقعد العريض فى صدارة البهو ، ترتجف كورقة فى مهب الريح ، وابنتها لصيقة بها ترتجف معها .. بيد أنها تطمئن والدتها على أخيها كلما رأتها نافذة الصبر .

وفى الحادية عشرة مساء قامتا إلى غرفة الابنة لتناما ، وطلبت منا أن نذهب نحن أيضًا إلى النوم .

إنها الآن ترقد فى أحضان ابنتها .

٣ / ٨ / ١٩٩٠

استيقظت صباح اليوم مبكرًا كعادتى .. ولكنه كان يومًا مختلفًا عن الأيام السابقة . قلت لزوجتى عندما تحركت للنهوض ، سأعد الإفطار بنفسى .. فلا داعى لنهوضك مبكرة . فارتدت إلى الفراش سعيدة .

إن القصف لا يزال مستمرًا من يوم أمس ، ولكن على فترات متقطعة وبدوى أقل .. يبدو أن الوطيس لم يحم بعد .

عندما دخلت بالصينية إلى غرفة الطعام ، وخرجت منها إلى البهو ، لأرى أين يجب تقديم الإفطار . كانت السيدتان جالستين على نفس أريكة الأمس . الابنة تطوى إحدى قدميها تحتها ، وتتكئ بخدها على ظاهر يدها اليمنى ، التى تستند بها إلى ظهر المقعد الواسع .. أما والدتها فقد كانت تستند بظهرها على الذراع الآخر المقابل لنفس المقعد ، محتضنة ركبتيها إلى صدرها بإحدى يديها ، وتمسك باليد الأخرى سماعة الهاتف .. أما ذيل ثوبها فقد كان مطويًا تحت قدميها .. كانت تقول ليس فى المنزل مكان أكثر أمانا من الآخر .. آه .. صحيح ، إن الممر الواقع بين الغرفتين ، إنه يتمتع بسطح مزدوج ، وكذلك جدرانه ، سوف نجلس هناك .

أقفلت الهاتف .. ونهضت بسرعة ، وهى تخاطب ابنتها :

ـ تعالى .. تعالى هنا .. يقول إنه أكثر أمانا من أى مكان آخر فى المنزل .. لقد كان زوجك على الهاتف .. نسيت أن أوصلك به .. لا أدرى ماذا جرى لى .. اطلبيه إن شئت .

ثم فطنت إلى وجودى .. فتابعت موجهة لى الحديث :

ـ ناد زوجتك .. لنجلس كلنا فى هذا الممر ..

فقلت لها عندئذ .. أحضر الفطار إلى الممر ؟..

فقالت :

ـ الفطار .. آه .. إن (اده) لم تذق طعامًا من أول يوم أمس .. لا بأس آت به هنا .

فقالت الابنة :

ـ وأنت كذلك ، لم تذوقى طعاما .. ستأكلين معى .. وإلا لن أطعم شيئا .

فرشت ورقتين من ورق إحدى الصحف على أرضية الممر ، وجدتها ملقاة على المقعد فى البهو ، وتحمل تاريخ اليوم الأخير قبل الغزو . ونقلت إليها الصينية التى حاولت أن أرصّ عليها كل ما وجدته فى الثلاجة من أنواع الأجبان بالإضافة إلى البيض المسلوق .. والشاى المخلوط بالحليب .

نظرت إلىّ السيدة (اده) ممتنة .. يبدو أنها فى غاية الجوع .

عندما جاءت زوجتى ، بناء على مناداتى إياها ، كان وجهها مصفرًا من الفزع . يبدو أنها لم تنم ليلة البارحة جيدًا ، مع استمرار ذلك الدوىّ . بيد أن ذلك الخوف لم يمنعها من أن تسأل سيدتى سؤالها الغبى .. عن ماذا تطبخ لهذا اليوم ؟ وكأن سيدتى لا يؤرقها إلا أن تفكر فى الطبيخ .. لقد ظننت أن مناداتى إليها من أجل ذلك .. إنها دومًا غبية .

فقالت سيدتى باستنكار :

ـ أى طبيخ ؟! من ذا الذى سيطعم !! يكفينا الإفطار طوال اليوم . اجلسا معنا درءًا لحظر شظايا القذائف .. ليس مستبعدًا أن يصاب المنزل بقذيفة ما .

وأشارت بيدها إلى الركن الآخر من الممر قبالتها . قرب الباب الذى يفتح على غرفة السيد (دارم) عندما كان صبيًا .. وجلست هى وابنتها قرب الباب ، الذى يفتح على غرفة (اده) عندما كانت فتاة .

جُلّ ما أصبو إليه أن أجلس معها فى فزعها وخوفها ، وبى رغبة عارمة ، فى إحاطتها بذراعى ، لأحميها وابنتها .

رن جرس الهاتف ، فأشارت لى أن أجلبه .. كانت ابنة خالتها تتساءل عن أخبارهم وتطمئن عليهم . آه .. إننا سالمتان .. لم يحدث لنا شىء بعد .

طلبت السيدة الصغيرة منى فتح التلفاز . على الرغم من أنه بعيد عن موقع جلوسنا . كانت ساعتى تشير إلى التاسعة ، وهو موعد البث عادة .. إلا أن شاشته كانت بيضاء لا تطبع شيئا ، مثلها يوم أمس .. فلما أخبرتها بذلك قالت .. أظنهم استولوا على المبنى .

كانت تعنى مبنى البث التلفازى .

فى هذا الممر الضيق ، كانت سيدتى وابنتها تستندان إلى باب غرفة السيدة الصغيرة .. وأنا وزوجتى نستند إلى باب غرفة السيد (دارم) .. والهاتف الأقرب إلى سيدتى .. وما عدا ذلك لا شىء ، بعد أن رفعت صينية الإفطار ، وقطعتى الصحيفة .

لكأن زوجتى مصابة بداء البول السكرى .. لم أفطن لها إلا فى هذا اليوم .. كل هنيهة تنهض ذاهبة إلى الحمام .. بيد أن سيدتى من خوفها منعتها من الذهاب إلى الملحق الذى نسكنه لبعده ، طالبة منها أن تستخدم حمامها الخاص ، فى الممر الآخر ، المقابل للممر الذى نجلس فيه بين غرفتيها غرفة نوم سيدتى ، وغرفة ملابسها .

لم يجرؤ أحد منا على استعمال حمامها من قبل ، ولكن الأحداث تصنع الكثير من المتغيرات ، فى التفكير والسلوكيات .

عندما نهضت أنا ، أشارت علىّ بنفس الكلام .. وابنتها ، وهى ،

كلنا ذهبنا إلى حمام سيدتى .. قلت لنفسى ساخرًا .. لتعش المساواة بين السادة والخدم .

الممر الذى نحن جالسون به ، يحتوى على حمام لولديها .. ولكن لا يعقل أن يستخدمه أحد منا ، والباقون جلوس عند بابه .

فى الساعة السادسة من مساء هذا اليوم ، هدأ القصف قليلاً ، فحضر زوج ابنتها السيد (رصان) وابنته ، وكذلك السيد (دارم) مع زوجته وابنه ..

كنا لا نزال جلوسًا فى الممر ، عندما رن جرس الباب الخارجى .. أمسكت بى زوجتى ، تمنعنى من فتحه .. ولكنى نفضت كمى منها ، وأنا أزجرها .. كانت سيدتى تنظر فى هلع إلىّ وإليها ، وقالت قد يكون بعض الجند .. يقال أنهم يقتحمون المنازل ، ويعتدون على من فيها .

فقلت .. لابد من فتحه .. حتى لو كانوا جنودًا .. إذا ما امتنعنا قد يكسرون الباب .. لتختف سيدتى وابنتها تحت السرير .

وأشرت بعينى إلى زوجتى للاختفاء معهما .

عندما ذهبت لفتح الباب ، كنت أضع روحى على راحة كف يدى .. لن تمتد يد إلى سيدتى ، إلا على جثتى . بيد أنى وجدت نفسى لفرحتى أمام الرجلين والطفلين وزوجة أحدهما .. فحمدت ربى .

حالما دخل الجميع ، انهمرت دموع سيدتى فى بكاء شديد . لكأن ينابيع تفجرت فجأة من مآقيها .. ساعدتها فى ذلك ابنتها .. حتى زوجتى حزّ فى نفسها الموقف فدمعت عيناها .

خرجنا جميعًا إلى الجلوس فى البهو ، وكأن مجىء الرجلين شدّ من أزر المرأتين المرعوبتين ، ولكن عندما انطلقت فجأة

قذيفة شديدة الدوى تراكض الجميع نحو الممر ، وبطريقة آلية اتخذت النساء أحد الركنين ، وتكومنا نحن الثلاثة فى الركن الآخر .

وبعد أن ساد الهدوء مرة أخرى ، قالت السيدة (هراس) :

ــ إننا نطلب النجدة عبر الإذاعة .. يبدو أن الغزاة لم يتيسر لهم السيطرة على المبنى .. ولكن لماذا التوسل بطلب النجدة ؟.. أليس لدينا دفاعات ؟..

وانهمرت تبكى بحرقة أشد .

أثارت دموعها حماس الشابين ، وغضبهما من الغزاة ، فهما واقفين ، وقد تفاهما بالنظر ، ثم أعلنا أنهما ذاهبان للتطوع .

حاولت سيدتى والسيدتان الصغيرتان إثناءهما عما اعتزما ، وأمسكن بهما . ولكن عبثًا ، فقد تفلتا ، وأسرعا إلى الخارج .

أنحت الشابتان باللوم على السيدة (هراس) ، لبكائها الشديد ، وشدة انفعالها .. قالتا ، لولم يرياها تبكى بحرقة لما جازفا بالخروج .. والظلام يكاد يخيم ، وعندما ازداد بكاء سيدتى خوفًا على الشابين هذه المرة ، غيرت الزوجتان موقفهما منها وأخذتا تحاولان طمأنتها دون جدوى .

ولكن لم تطل الشدة ، فقد عاد الشابان بعد قليل ، قائلين :

ــ لم نجد سلاحًا فى هيئة البوليس الخاص بمنطقتنا .. لقد قال الضابط : لم يؤت بالسلاح بعد .. لتزويد المقاومين .

وأردف السيد (رصان) .

ــ ولكننا قيدنا اسمينا فى سجل المتطوعين للمقاومة .. ثمة طابور طويل ينتظر قيد اسمه . ووجه الحديث إلى أم زوجته .

ــ اطمئنى لن تطول الأزمة .. نحن واثقون .

مضى النهار بطوله ، لم يذق أحد طعاما ، غير ما قدمته من إفطار لسيدتى وابنتها .. وأكلنا أنا وزوجتى ما فاض بعدهما فى المطبخ .. ولذا قال السيد (دارم) :

ـ لنأكل شيئا ، ونخلد إلى النوم .. إننا فى أمس الحاجة إلى الراحة .. وقد يكون فى ميسورنا الأكل والنوم الآن .. بيد أننا لا ندرى ما يأتى به نهار الغد .

فقالت النسوة الثلاث : لا نريد طعامًا ..

فأجاب السيد (رصان) .. حسن نحن نريد .

مشيرًا بيده إلى نفسه وأخى زوجته ..

عندما جهزت لهما عشاءً خفيفًا شاركتهما السيدة (دارم) متراجعة عن موقفها الرافض ، يبدو أنها قد قرصها الجوع عند مرأى الطعام .

من العجب أنهما دعوانى وزوجتى إلى مجالستهم لتناول العشاء معهم .. متخلين عن كبريائهم فى معاملتى .. عجبًا . لكم تفرز الحرب من متغيرات .

بعد ذلك ، دعت السيدة (هراس) الجميع إلى النوم فى غرفة واحدة ، هى إحدى الغرفتين المطلتين على الممر الذى كنا نجلس به .. قالت لينم الشابان على السرير العريض .. أما نحن الثلاث مع الطفلين فسنفترش أرض الغرفة .. يجب أن يكون بعضنا قرب البعض .

والتفتت إلىّ قائلة .. أما أنت فنم مع زوجتك فى الغرفة الأخرى قريبًا منا .. لا ندرى ما يحدث فى أثناء هذه الليلة .. هل أغلقت الباب الخارجى جيدًا ؟

فلما أومأت برأسى .. أن نعم .. قالت :

ـ أغلق باب البهو جيدا أيضا .. إنه من الزجاج ومن السهل كسره سريعا .. مهما يكن فسوف ننتبه عند حدوث شيء من هذا .. أوصد باب الممر قبل أن تنام .. لدينا حمام داخله ، لا داعى لخروج أحد فى أثناء الليل .. هل أحضرت زجاجات من الماء ؟ هات أيضا بعضا من الخبز .. قد يستيقظ أحدهم جائعا .. لا أحد منا تناول غذاء كافيا .. ضع الخبز فى ثلاجة الغرفة عندك .

كانت كل غرف النوم مزودة بثلاجات صغيرة .. وكانت تلكما الغرفتان اللتان اقتسمناها تخصان ابنة وابن سيدتى ، قبل أن يتزوجا ، كما ذكرت .. وكانتا مغلقتين ، لا يفتحان إلا فى حالة مجيء أحدهما لزيارة سيدتى ليوم كامل .

انفردت وزجتى بغرفة الابن واستغلوا هم غرفة الابنة ، ما كدت أستقل بالغرفة ، وأغلق بابها علينا ، حتى أخذت أدون ما لم أدونه من أحداث اليوم .. الساعة الآن تشير إلى الحادية عشرة تقريبًا .. زوجتى تطلب منى إطفاء النور .. مستغربة سعة صدرى ، وصفاء مزاجى ، لقيامى بتدوين ما يحضرنى على الرغم من سوء الظروف .

نسيت جهاز التسجيل ، لم أبحث عنه خلف المقعد الكبير للمرة الثانية كما كنت عازمًا يوم أمس .. ليس من داع إليه الآن ، بعد أن بت على مقربة منها بهذا الشكل .. ثم لو فرض أن ابنة سيدتى وجدته ، فالأحداث المرعبة يتضاءل إلى جانبها كل حدث آخر ، فليس هناك ما يخيفنى الآن ..

أوه .. نسيت أيضًا فى غمرة الأحداث زوجة المهندس (لبين) .. لدى رغبة عارمة لأعرف ماذا حل بهما ، هى وزوجها .. فتحت باب الغرفة خلسة ، وفى عزمى أن أسحب الهاتف من الممر ،

حيث تركناه .. بيد أن سيدتى كانت قد سبقتنى إلى سحبه بخيطه الطويل إلى غرفتهم .. لن أعرف كيف أحصل على أخبارهم .

٤ / ٨ / ١٩٩٠

كان ابن سيدتى السيد (دارم) ، يكن لى نوعا من النفور ، ظهر وتطور هذا الأمر معه بعد أن كبر ، وتعدى طور المراهقة ، لست أدرى سببًا لذلك ، ولا أعرف لماذا هذه الكراهية ، فأنا لم أقدم له إلا كل خدمة مخلصة ، لعل هذه الكراهية تولدت لديه إرثا من والده .. أو يكون أبوه أوصاه بها .. هذا الظن الأخير طبعا ليس صحيحا ولا صادقا .. لأن الأب مات بأزمة قلبية لم تمهله حتى إلى أن يرسل نفسا أخيرا ، فما بالك بأن يوصى بشىء ما ؟. أو لعلى أكون واهمًا ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تعالى مخدوم على خادمه ، كعادة أناس (تيوك) فى التعالى .

المهم شعرت فى هذين اليومين أن طبيعة عواطف السيد (دارم) تغيرت تجاهى من الضد إلى الضد .. إنه يناديني بالأخ .. أو يخاطبنى بقوله يا أخى .. زالت كبرياؤه تمامًا ، بعد غزو دولة (قارع) لهم .. لم يعد بيننا خادم ومخدوم ، أو سيد ومسود .

معروف عن أناس دولة (تيوك) إحساسهم بالصلف والكبرياء ، إلى حد الاستعلاء على غيرهم من الأجناس الأخرى .. ربما مرد ذلك إلى أثر الثروة العريضة ، هى التى أعطتهم ذلك الطابع من الشعور بالسيادة على كل من يتعامل معهم .. إذ لا يجد المرء من بينهم من يعمل خادمًا ، أو عاملاً ، أو حتى موظفا بسيطا ، كلهم رؤساء لغيرهم من الأجانب العاملين لديهم ، ممن كان يستحق تلك الرئاسة ، أو لا يستحقها .. مما سبب حقدًا دفينا لدى أولئك النازحين إلى دولتهم فى طلب الاسترزاق ومما أعطى المواطنين لدولة (تيوك) الشعور بالتميز والتفرد .

أردت بهذا الوصف ، بيان الفارق بين معاملة السيد الصغير لى فى الحالة الأولى قبل غزو الدولة المعتدية لدولتهم الصغيرة الأنيقة ، وبين معاملته لى بعد ذلك .

لقد أوصانى بأهله قائلاً :

ــ اسمع يا أخى ، لو جرى لى أى حادث .. كان أقتل بيد الغزاة ، أو أقع أسيرًا .. أرجوك أن ترعى والدتى وأختى .. صحيح أن هناك زوج أختى السيد (رصان) ، ولكن حاله ليس بأفضل من حالى ، فهو عرضة للخطر فى أية لحظة .

قال هذه الوصية ، بينما كان يعد نفسه مع زوج أخته للانضمام إلى مجموعة سرية تشكلت سريعًا لإدارة معركة مع العدو ، وأطلقت على نفسها لقب (المقاومة) .

كان انضمام الشابين ، دون علم السيدات ، اللواتى كن يبكين داخل الغرف ، وهن يجهزن بعض لوازمهن استعدادًا للخروج من المنزل ، والالتجاء إلى منازل أخرى لأقربائهم ، أبعد عن منطقة القصف المدفعى ، لأن منزلنا كان يرتج بعد كل ضربة مدفع .. ربما يسقط بكامله بين لحظة وأخرى .

هذا ما قاله السيد (دارم) لسيدتى ، كى يحثها على الخروج ، ليتخذ منه وكرًا ومخبأ لبعض أفراد المقاومة ، نظرًا لكونه ملكا لسيدة ، فلن تحوم حوله الشبهات .

سمعته يسر بهذا القول إلى السيد (رصان) ، زوج أخته فى غفلة منهن .

قاموا بعد ذلك بتقسيم أنفسهم إلى قسمين . الأول يضم سيدتى وابنتها وزوجها وأنا وزوجتى ، كلنا نرحل إلى منزل السيدة الصغيرة وزوجها .

أما زوجة الابن فتذهب إلى منزل ذويها مع زوجها ، والطفلان .. كل مع أمه . وكان الكل فى حميا الخوف فى عجلة من أمره .. وأنا أقول مطمئنا سيدى الصغير :

ــ لن أدع والدتك تتعرض ولو للحظة واحدة لأى خطر ، مالم أكن فداء لها ، طالما أنا حى أرزق ، ومالم يحدث لى ما يقسرنى على البعد عنها .. ثق بذلك تمام الثقة .

فرد .. وهو يشد على يدى :

ــ شكرا لك يا أخى .. شكرا ..

لو كان الظرف على غير ما نحن عليه ، لما تجرأت على مثل هذا القول ، ولربما استغرب السيد (دارم) قولى ذاك ، وشك فيه أيضًا ، ولكن زمن الحرب ليس مثل كل الأزمنة .. إنه يجيز ما لا يجاز فى الأيام العادية .

حقًا وصدقا ، ودونما حاجة إلى إسماعى أية وصية من أى إنسان . كنت أنوى تقييد حياتى تبعا لحياة سيدتى ، وأربط وجودى بوجودها ، فأفديها . كان هذا قرارى ، وتصميمى قبل أن يوصينى ابنها بذلك الرجاء .. لذلك جاء قولى تحصيلا لما هو حاصل .

نسيت سيدتى هى الأخرى ، تحفظها وكبرياءها ، فى نفس مساء اليوم ، الذى كان فى صباحه يوصينى ابنها بشأنها .. قالت لى ، بعد وصولنا إلى منزل ابنتها مباشرة ، وذلك بعدما أنزلنا السيد (رصان) من عربته ، أمام منزله ، وانصرف لا أدرى إلى أين ، ربما إلى المقر السرى للمقاومة .

قالت لى :

ــ لى عندك رجاء .

فقلت فزعا :

ــ سيدتى ترجونى ؟..

فقالت :

ــ لم أعد سيدة لأحد .. إننا متساوون فى مثل هذا الموقف .. بل ربما وضعك أفضل منى الآن .. رجائى أن ترعى ابنك (دارم) وابنتك (اده) ، فى حال ما إذا حدث لى حادث .. أعنهما على الهرب خارج البلاد .. فيما لو تأزمت الأمور إلى أكثر مما هو حاصل الآن ، ولم يستطيعا المقاومة .. حاول أن تقنع (دارم) و (اده) وزوجها بالهرب .. إنهما يعرضان نفسيهما ــ ذينيك الشابين ــ للإعدام فى أية لحظة .. لقد أعدم خلال هذه الأيام الثلاثة الكثير من الشباب والرجال لمجرد الاشتباه فى أنهم من عناصر المقاومة .. إنهم ولداك أيضًا .. لا تنس أنك ربيتهما معى ، بعد وفاة والدهما .

كان قلبى يخفق بشدة وعنف ، وهى تقول ذلك ، فلم يكن فى ميسورى أن أرد بغير ..

ــ أعاهدك يا سيدتى .. أعاهدك ..

ولم يكن فى مقدورى بيان على أى نوع من ذلك العهد .. إذ ارتج علىّ ، فصمتّ .

٥ / ٨ / ١٩٩٠

هذا اليوم أصعب من الأيام التى مضت منذ الغزو . طيلة النهار ، والمدافع الثقيلة تدك المدينة دكا عشوائيًا غير منظم ، برغم هربنا البعيد عن وسط المدينة ، إلا أن القصف يزحف فى كل اتجاه ، حتى أن المنزل المجاور لمنزلنا خرقته قذيفة عشوائية ، وقتلت كل من فيه .. أغمى على ابنة سيدتى .. وانهارت سيدتى

بالبكاء .. احترت أنا وزوجتى للعناية بهما .

أما الشابان ، فقد خرجا منذ الصباح الباكر ، ولم يعودا بعد .

إن زوجتى فى أشد حالات الرعب ، قالت لى ظهر هذا اليوم :

ـ لماذا نحن نتحمل كل هذا الخوف المؤلم ولسنا مجبرين ؟. لم لا نرحل إلى موطننا ؟!

فقلت عاتبًا :

ـ ونتركهم فى أحلك الظروف .. وهم فى مسيس الحاجة إلينا ؟!

ردت بأنانية مجحفة :

ـ إن البلد موطنهم .. إذا كان لديهم مكان آخر ليرحلوا إليه .. أما نحن فيجب ألا نعرض أنفسنا للخطر الداهم من أجلهم .. فى الحق لم أعد أحتمل كل هذا الفزع .. إننا نعمل من أجل الأجر .. وأظن أننا لن نأخذ أجرًا بعد الآن .

خطرت لى فكرة لامعة .. فأسرعت إلى القول :

ـ إن الغزاة يحشدون العمالة الوافدة على هذا البلد فى إحدى المدارس بمعاونة هيئة العلامة الحمراء .. وذلك لترحيلهم إلى موطنهم .. إنى أراك راغبة فى الذهاب إلى أبنائك .. سأصحبك غدًا إلى هناك .

فقالت :

ـ وأنت ؟..

قالت هذا التساؤل باستنكار شديد .

فأجبت :

ـ لن أتركهم فى مصابهم .. من الواجب أن نشاركهم مصيرهم حياة أو موتًا .

فقالت بانفعال شديد ، وقد أفلت زمام صبرها :

ـ كنت دائمًا أظن بك الجنون .. أما الآن فقد تأكد ظنى ..

لا ريب فى جنونك .. لتبق لمواجهة الموت ، وسوف تموت حتمًا .. إن دولة (قارع) قوية .. لن يكون فى مقدور هذه الدولة الصغيرة مقاومتها .

فقلت مهاودًا :

ـ ظنى بى ما شاءت لك الظنون .. بيد أن تصميمى حتمى ، لن أتخلى عن مروءتى .. غدا سترحلين .. اجمعى حوائجك هذه الليلة .. لتكن كلها فى حقيبة واحدة ليس أكثر ، لأن هيئة (العلامة الحمراء) لن تقبل حمل أكثر من ذلك .

كنت أعرف مقدار الطمع الذى تمتلكه زوجتى ، خاصة وأن لديها مخزونا كبيرًا من الثياب والأغراض ، التى كانت تستغنى عنها سيدتى باستمرار .

فقالت مصرة على رغبتها فى اصطحابى :

ـ ألا ترغب فى رؤية أبنائك ؟..

أجبت فى عناد أكبر :

ـ سأراهم لو قدر لى رؤيتهم .. ثم هم ليسوا فى حاجة إلىّ ، لقد كبروا وتزوجوا .. وذهابى إليهم دون عمل سيكون عبئًا عليهم .. إنى لا أطيق العيش دون عمل .. أما النقود التى جمعناها معًا .. فهى هبة منى لك .. لا أروم أن أبدأ بها مشروعًا جديدًا ، وأنا فى مثل هذه السن .. إنى أكره البداية .. لقد ألححت على دومًا بفعل ذلك ، وطالما رفضت ، ولا أزال رافضًا .. قد تقولين ما شاء لك القول .. أو تظنين ما شاءت لك الظنون .. ليس مهما ، كل شىء بات غير ذى جدوى الآن .. خذى النقود كلها ، لتعينك على الحياة .. دونما حاجة إلى أحد من بنيك .. أنت تعرفين أين نختزنها ، وأوراق البنك معك .. لا تعطى أحدًا من بنيك شيئًا من

ثروتك الصغيرة ، بعد موتك سيرثون ما تتركينه منها .. هذا كل ما فى مقدورى مساعدتك به .

فقالت باستغراب :

ــ إنك تقول كلامًا .. وكأننا لن نراك بعده .

فقلت يجب أخذ الحيطة لكل ما يستجد من أمور .. إن مصيرى ارتبط بمصير أناس هذا البلد .. ولن أفرط فى هذا الرباط أبدًا .. فإن شئت أن ترحلى ، فارحلى لك مطلق الحرية .. وغدًا سوف أذهب بك إلى مركز الترحيل .. وسوف أساعدك فى حجز أفضل مكان لك .

فقالت ، وكأنها غير آسفة علىّ :

ــ والأجر الذى نستحقه عن هذا الشهر ؟..

فزجرتها :

ــ أى أجر ؟.. وأية نقود ؟.. ألا ترين أن كل أناس (تيوك) أضحوا معدمين .. بعد أن فقدوا بلدهم ، ونهبت البنوك والمنازل والمتاجر .. إذا كان لديهم بعض من المال فى المنزل ، لندعه لهم يتدبرون به أنفسهم .. أليس فى قلبك رحمة يا امرأة ؟..

قبل أن أنهى جدلى مع زوجتى سمعت صوت سيدتى مناديًا ، قالت من خلال دموعها :

ــ انتبه جيدًا للفتاتين .. سأذهب إلى منزلى للبحث عن ابنى .. أظنه هناك .. لقد هاتفنى فى الصباح الباكر منه .. أخشى أن يكون اتخذه وكرًا للمقاومة . وعلمت الآن أن الضرب كان مكثفًا فى منطقتنا ظهر هذا اليوم ..

فقلت جزعًا :

ــ كلا .. كلا .. لا تخرجى يا سيدتى من المنزل .. إن فى خروجك منتهى الخطر عليك .

فردت بإصرار :

ــ أعرف ذلك .. ولكن لابد أن أعرف مصير ابنى .. يقال إن الضرب المدفعى واقع على منزلنا ، وإن المقاومة الوطنية كانت شديدة فى منطقة (نافيك) .. لابد أن أذهب .. أخشى أن يكون الشابان قد تعرضا للخطر .

منطقة (نافيك) هى المنطقة التى يقع فيها منزل سيدتى والمقاومة الوطنية فى تلك المنطقة كانت على أشدها .

فقلت بعد أن رأيت أن من المستحيل أن تغير عزمها :

ــ حسن يا سيدتى .. سوف أقود عربتك بنفسى ، لاضطراب يديك أولاً .. ولحراستك ثانيًا .

نظرت إلى يدها .. وكأنها تحس لأول مرة بارتعاشها ، ثم نظرت لى نظرة طويلة ممتلئة بالعرفان .. وتقدمتنى دون كلام ، بعد أن ناولتنى مفاتيح العربة .

كان المنزل مهدمًا ، خرابًا يبابًا ، وكأنه لم يكن عامرًا منذ أيام قليلة فحسب .

قال لنا الجندى الواقف قريبًا منه .. إنه منزل لأحد المقاومين ، عرفنا ذلك من عنوانه فى مقر هيئة البوليس ، بعد استيلائنا عليها .. لقد كان متطوعًا عندما سجل عنوانه هذا فى دفاترها ، ثم تساءل موجهًا الحديث إلى سيدتى .. هل هو ابنك ؟..

كانت سيدتى ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها .. فلم يكن فى ميسورها أن تحر جوابًا .

وقال الجندى مردفًا :

إذا كان ابنك ذلك الذى سجل اسمه فى سجل المقاومين ، فقد قتل جزاءً له ، إنه يستحق ذلك .. لقد قتلنا كل من فى المنزل .. دككناهم بالمدافع .

أسرعت أتولى الرد عنها . قلت :

ــ إنه منزل عمتها .. تخشى أن تكون ماتت .. إنها سيدة مسنة .. ليس لها رأى فيما يجرى .. دعنا ندخل لنبحث عنها .

ولم يكن لسيدتى عمة حية أو ميتة حسب علمى .

لم نجد أحدًا فى المنزل .. بحثنا كل ركن فيه ، حتى الركام نبشناه .. التفتت إلىّ قائلة :

ــ دعنا نذهب ..

عند خروجنا من المنزل بعد ساعتين من التنقيب ، كان المساء مخيمًا . اعترضنا جندى آخر . مصوبًا فوهة البندقية ناحية صدغ سيدتى .. يبدو أن النوبة تغيرت .. صرخ بنا :

ــ عودا إلى المنزل .. ممنوع التجوال منعًا باتًا .

فقلت له بصوت تعمدت أن أظهر به لكنتى الأجنبية ، لعلمى أن مواطنى البلد ، هم فقط المستهدفين من قبل الغزاة ، قلت :

ــ المنزل متهدم كما ترى .. لا يلائم البقاء فيه .. ثم هو ليس منزلنا . ونحن أتينا منذ ساعة فقط ، لنبحث فيه عن سيدة مسنة . ونحن الآن ذاهبان إلى والدتنا ، إنها وحيدة .. ولو غبنا عنها أكثر من ذلك ستقلق علينا .

كانت والدتى ترقد بسلام فى تربتها منذ ربع قرن .. فلم تسمع قطعًا عن هذه الأحداث المخيفة . سألنى الجندى .. أنتما أجنبيان ؟

فلما أجبت بالإيجاب من إيماءة من رأسى .. أشار إلى المدفعى الواقف على الدبابة فى أول الشارع .. أن يسمح لنا بالمرور ، ولم نكد نبتعد إلا قليلا ، حتى انفجرت سيدتى بالبكاء ، فقلت لها أطمئنها :

ــ كما رأيت يا سيدتى .. ليس هناك أحد فى المنزل .. وهذا يدعو إلى الاطمئنان .

فردت :

ــ ولكن أين نجدهما ؟ ــ كانت تعنى ابنها وزوج ابنتها ــ من يدرى أنهما لم يقعا فى أيدى جند دولة (قارع) .. لقد عرف أسماهما وعناوينهما .. ليتهما لم يذكرا ذلك ، عند عملية تسجيل تطوعهما .. ولكن ما يدريهما أن هيئة البوليس ستقع هكذا بيد العدو سريعًا .

ثم تذكرت أن منزل ابنتها أضحى معروفًا لدى الغزاة ، فأردفت :

ــ إن المنزل الذى نحن فيه ، أضحى مهددًا هو الآخر .. لا شك أن (رصان) أعطى عنوانه أيضًا عند عملية التطوع تلك .. يتعين علينا النزوح منه بأسرع ما يمكن ، قبل أن يهدم على رءوسنا .. ولكن أين هما الآن ؟

وهكذا لم يقر لها قرار طيلة ما تبقى من المساء ، وأنا أرقبها وقلبى يذوب أسى من شفقتى عليها من الصدمة المتوقعة ، لو تبين أن حدثًا مكروهًا أصاب الشابين .

عند حلول الظلام .. أقبل الشابان ممزقى الثياب قذرى الوجوه والأيدى .. يكادان يسقطان إعياءً .

بادرت سريعًا إلى تهيئة الحمامين لكل منهما .. وأعددت لهما ثيابًا نظيفة ، جهزت كل ذلك بنفسى .

فالسيدات الثلاث ، لم يعدن يحسن سوى البكاء الصامت ، أو النهنهة ، وهن جالسات ، وكأن أطرافهن شلت عن الحركة .

إنها أول مرة التى أدخل فيها غرف النوم .. وأفتح الدواليب لاستخراج الثياب .

بت أتحرك بحرية كاملة ، داخل المنزل ، أخرج وأدخل فى كل مكان وأى مكان .. لم يعد لى حدود معينة لا أتجاوزها كما كنت فى السابق .

تقبل الشابان تدبرى شئونهما برحابة صدر ، فاغتسلا ، وعندما خرجا من الحمامين ، كانت فى انتظارهما وجبة دسمة ، أعددتها لهما بنفسى .

إنى أعرف أن الطعام سينفد قريبًا ، إذا ما استمر الحال على ماهو عليه ، بيد أنى لم أستطع إلا أن أقدم أفضل ما لدى .. وغدا له أمره .

سمعت سيدتى تحادثهما فى أثناء تناول العشاء ، عن وجوب مغادرة المنزل ، لأن البقاء فيه أصبح من الخطر بمكان .. خاصة بعد أن عرف مقر المنزل الأول .. وقدمت اقتراحا بالرحيل إلى دولة (دوعس) المجاورة .. إنها دولة صديقة وشقيقة لدولة (تيوك) .. ومن الضرورى الالتجاء إليها .

هكذا قالت لهما .. بيد أنها لجأت إلى الحكمة المراوغة كعادتها عند حل المعضلات لمثل هذه المواقف ، عندما رأت إصرار الشابين على البقاء ، ومتابعة أعمال المقاومة .. قالت :

ـ بات البقاء فى أى من المنازل الثلاثة ، بعد معرفة عناوينها يشكل خطرًا داهمًا ، ليس على الحياة فحسب ، فهذا أرخص ما يقدم ثمنًا لدولتنا ، بيد أننا كلنا نعرف أن ثمة مداهمات بحثًا عن المقاومين والأسلحة ، يصاحبها اعتداءات على الفتيات والنسوة ، لذا يجب علينا إخراج الشابتين .. أختك وزوجتك بأسرع ما يمكن .. عودا إلى المقاومة إذا أردتما ذلك بل هو واجبكما ، ويجب أن تؤدياه .

اقترح ابنها أن يخرج زوج أخته السيد (رصان) مع الشابتين والأم .. ويبقى هو لاستمرار أعمال المقاومة .

فاعترضت الأم قائلة :

ـ كلا .. يجب أن نترافق بقيادة عربتين ، فعربة واحدة لا تكفى ، مع حمل ما نحتاج إليه من مؤن ، ومع وجود هذين الطفلين .. وقد تكون عربة واحدة عرضة للعطب ، فتكون الأخرى جاهزة بين أيدينا عوضا عنها .

منطق معقول ، قبله الشابان .. وهكذا قرّ عزمهما على إخراج النسوة من البلد ، ومن ثم العودة إليها بعد ذلك خفيفين .

فتدخلت فى الحديث الدائر قائلا :

ـ أقترح أن أذهب للبقاء مع النسوة لحمايتهن .. وتلبية طلباتهن فى الغربة ، خاصة وأنتما تعتزمان العودة ، ولن يبقى معهن أحد .

وكان لقولى ذاك صدى طيب فى نفس الشابين ، ولكن بان الضيق على وجه سيدتى .. أظن أنها خشيت أن يعدل أحد الشابين عن مرافقتنا .. ويقرر البقاء حيث هو مستعيضًا عن نفسه بى . بيد أنه لم يحدث ما كانت تخشاه إذ اقترح ابن سيدتى أن أقوم بقيادة العربة الثالثة الخاصة بسيدتى .. وأسايرهم فى عملية الخروج .. وسألنى عن زوجتى ، وعن وجوب إخبارها عن الرحيل لتعد نفسها بما نحتاجه أنا وهى من ثياب ومؤن .

فلما أخبرته ، بأنها ترغب فى العودة إلى ولديها .. وأنى سوف أصحبها غدًا إلى حيث هيئة (العلامة الحمراء) ، لكى تأخذ مكانًا لها مع الخارجين من الأجانب ، دهشوا جميعًا لتضحيتى .. بيد أن وقع زخم الأحداث أثر فى نفوسهم ، فلم يعط أيًا منهم فرصة لإطالة أمد تلك الدهشة .. فتقبلوا حديثى بعد ذلك ، وكأنه شىء عادى لوجوده بين تلك المتغيرات من الأحداث غير العادية .

منعت سيدتى ابنها من الذهاب إلى منزل أهل زوجته فى مثل هذا الوقت من الليل ، وكانت الساعة لا تزال التاسعة والنصف ،

ولكنها تعتبر متأخرة جدًا ، للخروج فى مثل هذه الظروف غير الآمنة . واكتفى بالاعتذار لها بالهاتف ، كى لا تقلق عليه ، وطلب منها أن تعد ثيابها ، وتجهز نفسها للخروج غدًا للسفر ، واعدًا إياها بأنه سوف يذهب إليها من صباح الغد لاصطحابها .

وتفهمت الزوجة الطيبة الموقف ، فوافقت على أن ينام زوجها فى منزل أخته لخطورة خروجه ليلا .

وهكذا عدنا إلى تقسيم أنفسنا للنوم داخل المنزل ، كما حدث ليلة الأمس ، عندما كنا فى منزل سيدتى قبل أن يهدم .

أهم ما لدى سوف أستحضره غدًا ، وهو لا يتعدى ملء حقيبة صغيرة تحوى كل ما عندى من أوراق وأقلام .. أما أوراق هذه المذكرات فسوف أحزمها على بطنى قبل عملية الخروج .. إنها أعز ما لدى من متاع .

٦ / ٨ / ١٩٩٠

اتصلت بنا زوجة السيد (دارم) مبكرة من صباح هذا اليوم ، تحث زوجها على الذهاب إليها ، لأخذها قبل الرحيل ، وكأنها كانت تخشى نسيانهم لها فى زخم الأحداث .

أيقظته من نومه بناء على طلب من سيدتى ، التى كانت تتناول طعام الإفطار الذى أعددته باكرًا ، مع ابنتها فى غرفة نوم الطفلة الصغيرة ، التى كنت أنام بها مع زوجتى ، منذ وصولنا إلى منزل السيد (رصان) .

سيدتى وابنتها تناولتا الإفطار هنا ، حرصًا منهما على عدم إزعاج الشابين بعد إرهاقهما لنفسيهما فى يومهما الماضى .

معًا هبا سريعًا غاضبين ، لتركهما ينامان إلى هذا الوقت من الصباح . وهما على أهبة السفر ، كان غضبهما ذاك على الرغم

من أن الساعة لا تزال تشير إلى السادسة .

نادتهما سيدتى ليتناولا كوبًا من الحليب .. ولكنهما رفضا .

لبس السيد (دارم) ثيابه على عجل ، وتناول سلسلة مفاتيح عربته ، وخرج مسرعًا لجلب زوجته وابنه من منزل ذويها .

واتجه السيد (رصان) إلى الغرفة التى تجلس بها زوجته وأمها ، لحث الأولى على تجهيز نفسها ، ثم لسؤالها عن الأوراق الخاصة بهم ، مثل جوازات المرور ، وحثها على وجوب وكيفية إعدادها فى حقيبة (السمسونايت) التى يجب أن تكون قريبة من متناول أيديهم .

ورفعنا أنا وزوجتى الأوانى بسرعة .. وأخذنا أنا وهى فى حزم الحقائب المعدة لأخذها معنا فى جانب .. والأغراض المعدة لتأخذها زوجتى معها فى جانب آخر .

ونحن فى حمياء الإعداد لكل شىء ، خشية أن ننسى ما هو ضرورى منها ، عندما صك أسماعنا جميعًا طرق شديد على الباب الخارجى .

قالت السيدة (اده) تطمئن الجميع ، عندما رأت الهلع يطل من العيون المشدوهة :

ـ أظنه أخى قد عاد ..

فردت سيدتى بشك خائف :

ـ كلا .. ليس هو .. لديه مفتاح للباب .. أنسيت أنك أنت التى أعطيته ليلة البارحة نسخة منه .. لقد رأيته وهو يربطه إلى سلسلة مفاتيح عربته .

نظر بعضنا إلى البعض والطرق يتوالى بشدة أكثر .

فقالت سيدتى :

ـ أظن أنهم جند العدو .

ركض السيد (رصان) ، يهم بفتح الباب ، بيد أن زوجته أمسكت به قبل أن يجتاز منتصف الصالة ، تحاول منعه .

نظرت أنا إلي سيدتى ، أستأذنها فى فتح الباب . فقالت ووجهها تفور دماؤه قليلا .. قليلا :

ـ دعهم .. لعلهم ينصرفون .. أحمد ربى أن (دارم) ليس هنا .. ثم أردفت :

ـ هذا ما كنت أخشاه .. ليتنا بكرنا فى الخروج .

كنا أنا وزوجتى داخل الغرفة .. أما السيدة الصغيرة ، فكانت لا تزال تمسك بتلابيب زوجها فى البهو ، وتصرخ فى همس :

ـ دعهم .. دعهم .. سينصرفون .. أرجوك لا تفتح لهم .. سوف يقتلوننا .. أرجوك .. أرجوك ..

لم نلبث سوى ثوان قليلة ، ثم صك أسماعنا صوت داو لطلقات نارية من مدفع رشاش ، سلط على قفل الباب ، ارتج على أثره زجاج باب الصالة العريض ، متناثرة قطع من أجزائه إلى داخلها بفعل ضغط الريح .

الكل ساده الصمت والسكون ، حابسًا أنفاسه برهة حرجة ، بتنا بها وكأننا قددنا من حجر فى تلك اللحظة القصيرة .. ثم أطللت برأسى من موقفى فىالغرفة برغم جذب زوجتى لكمى .

رأيت السيدة الصغيرة لا تزال قابضة على كم ثوب زوجها وصدارته ، وكأنها تجمدت ، حيث هى ، وتسمرت حركاتها على ما هى عليه .. لا شك أنها كانت ترى الداخلين ، قبل أن أراهم أنا .

رأيت بعد ذلك الضابط ، يرفس بحذائه الضخم ما تبقى من زجاج باب الصالة ، ويدخل تتبعه ثلة قليلة من الجند لا يزيد عددها على أربعة .

افلتت السيدة الصغيرة ثياب زوجها من قبضتها ، بيد أنها لم تتحرك قيد أنملة عن مكانها .. وهى تراهم يقفون داخل الصالة على مقربة منها .. وعلى رأسهم ذلك الضابط الطويل النحيف، المشابه فى الهيئة لنبات شيطانى نما فى غير محله ، بذينيك الخدين الغائرين ، وسحنته المسمرة من لفح الشمس .

أحاطوا بها وزوجها من كل جانب ، ونهرها قائدهم .. لماذا تمنعينه من الخروج إلينا ؟.. يبدو أن رؤيتهم لإمساكها به ، عذر بدا لهم عن تأخره ، وكان سببا لإنقاذه من القتل وإن لم يعفه من الإهانة .

سمعت أحد الجنود يقول للضابط ، وعيناه تبرقان :

ـ سيدى .. هل أتولى تأديب زوجته ؟..

قبل أن يتم ذلك الجندى الوقح ذو الثياب القذرة والرائحة العفنة عبارته ، كان السيد (رصان) يركع عند قدمى الضابط بمسكنة متوسلاً .

أرجوك اقتلنى ، قبل أن تمتد يد إلى أناس بيتى .. إنك رجل ، وتعرف قيمة ومعنى ما أقول .. لقد فعلت زوجتى ما فعلت بدافع من خوفها علىّ .. إنى أستنجد بشهامتك .

سكت الضابط ذو الهيئة الشيطانية هنيهة ، وكأنه يستعذب ركوعه عند قدميه ، ثم رفس خده بركبته وابتعد عنه .. وفى الوقت نفسه أشار إلى جنده لانتظاره خارج الدار .

بعدما خرج الجميع ، التفت إلى السيدة الصغيرة متسائلاً بوجه جامد ، لا يعبر عما بداخله .

ـ أأنت خائفة ؟ أتكرهيننا ؟..

فردت بلعثمة ، وهى ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها .

ـ كلا .. لست خائفة .. أنتم أخوة لنا .. إننا نحبكم جدًا .. جدًا ..

كان منظرها يدعو إلى الضحك ، أو السخرية ، لو كان الظرف يسمح بذلك ، وهى تقول قولا ينقضه واقع حالها .

وضحك الضابط فعلا ، وقد سره تملقها الواضح ، فأراد أن يستزيد منه فقال :

ـ أتريدين سلامة زوجك ؟..

لقد تاه منها الفكر ، فلم يكن فى ميسورها إيجاد قول مناسب سوى ما قاله زوجها ، وبتوسل ومحاولة لتقليده حرفيًا ، ردت :

ـ إنك شهم .. تعرف .. تعرف قيمة .. إننى أستنجد بشهامتك ..

فأكمل الضابط :

ـ تريدين سلامة زوجك .. إذن ادعى لنا بالنصر .. وأنت تقبلين هذا .. وأشار إلى حذائه .

فصرخت ، والدموع المقهورة تقفز من مآقيها مبتعدة عن خدها دون أن تمسه .. قطعًا لم أر فى حياتى دمعًا قافزًا كتلك الدموع :

ـ لينصركم الله علينا .. لينصركم الله علينا ..

وركعت المسكينة على حذائه الضخم المغبر تمسحه بشفتيها .

كم آلمنى ذلك المنظر ، وأنا أرى تلك الشفاه ـ التى طالما صبغتها بالأحمر الزاهى ، وكانت تترك أثرًا مطبوعًا على خد والدتها كلما زارتها ـ تمسح ذلك الحذاء القذر .

أما نحن الثلاثة داخل الغرفة ، فقد تنحت زوجتى ، وقبعت فى أقصاها فى جلسة مقرفصة ، تحيط رأسها بذراعيها ، وتدفنه بين ركبتيها فى جبن عظيم .

وكنت أنا أحتضن بقوة سيدتى المرتجفة ـ كمن به مس كهربى ـ بإحدى يدى ، وأضع اليد الأخرى على فمها ، أمنعها من إصدار

صرخة ، أو أى صوت .. وأهمس بأذنها :

ـ لا تصعدى الموقف .. استعملى الحكمة كعادتك .. لا تخشى شيئا .. ستتغلب سيدتى الصغيرة عليه بحكمتها .. سأندفع لنجدتها عند اللزوم .. ثقى بذلك .. ثقى .

كنت أحدثها بهذا الحديث الهامس ، والدماء تغلى فى عروقى ، وشعور ينتابنى بأن كل خلية فى بدنى تتحفز للوثوب للدفاع عن السيدة الصغيرة . بيد أن ردة الفعل جاءت معاكسة .. وبصمود المستميت قلت لنفسى ، لأدخر قوتى لما هو أعظم .. لأن خوفى على سيدتى كان أشد .. وكان تصرفى ذلك إجراء جيدًا شكرت عليه فيما بعد .

رفس الضابط رقبة الشابة بمقدمة حذائه ، مما أثر فى رقبتها بعلامة واضحة ، أظن المسكينة تشيخ وتموت قبل أن تمحى .

وقال متسائلا .. ألست خسيسة ؟..

فردت مؤمنة على قوله .. أجل .. أجل ..

والتفت إلى زوجها .. أزوجتك خسيسة ؟..

فردد السيد (رصان) إجابة زوجته بآلية .. أجل .. أجل ..

فضحك الضابط مقهقهًا ، وقد وصل إلى منتهى ما يبتغيه من السرور بإذلالهما .. ثم قال :

ـ بما أنها كذلك .. يتعين عليها أن تدفع ثمن خستها .. دلنى أين تحتفظ بمصوغاتها .

أشارت السيدة (اده) إلى غرفة النوم ، قبل زوجها وكأن طاقة من الفرج فتحت أمامها فجأة فقالت :

ـ إنه هناك .. كل ما لدى من مجوهرات .. وذهب ، ونقود سوف يدلك زوجى عليه .

وقاده السيد (رصان) إلى الخزانة الضخمة فى الغرفة الثانية .. غرفة نومه وزوجته ، ولكنه نسى أن المفتاح مع زوجته .. ولأنه خشى أن يستدعيها خوفا من أن يغير الضابط رأيه بالنسبة لها . لذا فقد صاح مناديًا اياى لجلب المفتاح .

هرعت إليه .. ففوجئ الضابط ، وفتح عينيه على سعتهما دهشة ، عندما رآنى ، وقال متسائلا :

ـ أين كنت .. أيوجد غيرك فى المنزل ؟..

وكى أحصل على الأمان استعدت لكنتى الأجنبية ، وقلت له فورًا :

ـ إنى الخادم .. هناك زوجتى .. وأم السيدة ، وهى عجوز مسنة مريضة .

قلت له ذلك ، وأنا أتولى فتح باب الخزانة على مصراعيه سريعًا ، كى أحول اهتمامه إلى ما فى داخلها .. وفعلا فقد ذهب منظر الجواهر بلبه .. فقال يالغناكم .. كل هذه الأموال فى دولتكم المشرذمة ، ونحن محرومون !! ثم أخذ يغترف منها ، مفرغا كل ما تحتويه ، حتى نظفها تمامًا .

كوم ذلك بصرة من القماش ، عبارة عن كيس لأحد الوسائد ، بعد أن نفضه مما يحتويه ، رافضا حقيبة (السمسونايت) التى قدمها له السيد (رصان) ، قائلا :

ـ كلا .. هذه الصرة أفضل .

ثم تساءل بلهجة ودية :

ـ كم تساوى هذه المصوغات ؟

فقال السيد (رصان) ، بلهجة الناصح ، مضاعفا من ثمنها فيما أظن ، كى يزيد من قناعته قرابة المائتى ألف دولار ..

فابتسم الضابط لأول مرة فى دمائة .. ولم ينس وهو خارج

إلى جنده أن يشكر السيد (رصان) على ما امتلأت به يداه .

رددت الباب خلفه ، لعدم استطاعتى قفله بعد أن كسر . لقد رفدته بصخرة انتزعتها من السياج .. وعندما عدت إلى الداخل ، لم أجد السيدة الصغيرة فى الصالة ، لقد كانت تحتضن أمها ، وأمها تحتضنها فى غرفة نوم الطفلة .. وزوجها وحده يبكى فى البهو .

ربتّ على كتفه .. وأنا أقول له :

ـ لا تبتئس .. كنت رجلا شديد الحكمة .. أنقذت النسوة بحفنة من الذهب .

فقال :

ـ إنى لا أبكى الذهب .. إنما لتقبيل زوجتى حذاءه القذر .. لماذا لم أقتله وقتها ؟..

فقلت :

ـ جيد أنك لم تفعلها .. لقد كان مسلحا ، وأنت أعزل .. ثم أنسيت الجند الواقفين فى انتظار إشارة منه .. هلمّ .. لقد زالت الغمة ، ولو مؤقتا .. لنرحل سريعًا .. من يدرى ، قد يعود أحد جنده .. خاصة ذلك الجندى الوقح .. لنرحل بمجرد أن يعود السيد (دارم) بزوجته .. سوف أصحب زوجتى فى هذا الوقت الضائع إلى هيئة (العلامة الحمراء) ، لترحيلها . وأعود سريعًا .. أرجو انتظارى .. إننى مطمئن عليها ، سترحل فى حماية الهيئة .. ولكنى غير مطمئن عليكم .. ويسرنى مشاركتكم عبء حماية النسوة .

تركت زوجتى بعد أن ودعتها مع جمع من الخدم ، الذين حشروا فى عربات كبيرة ترفع أعلامًا بيضاء مطبوعًا عليها علامة

حمراء هى شعار الهيئة .. كانت تلك العربات معدة سريعا لترحيل الأجانب عن دولة (تيوك) الملتهبة بالنيران ، بعد غزو دولة (قارع) لها .

أظن من المفيد أن أنوّه ، بأن كل الأسر فى دولة (تيوك) الغنية بدون استثناء يستعينون بالخدم ، ولذلك كان تعدادهم كبيرًا ، بل يكاد يكون موازيًا لعدد سكان البلد الأصليين .

كانت زوجتى تمسك بيدى فى أثناء عملية وداعى لها ، مستعملة أرق وسائل التوسل لتغرينى بالرحيل معها .

فى ذلك الموقف الذى ربما يتحدد مصير ارتباطى بها بطريقة لا رجعة فيها . فى تلك اللحظة الحاسمة ، كانت على براعة لفظية لا سبيل إلى وصفها ، براعة لم أعهدها فيها من قبل .. ولا أدرى من أين تفجرت لديها . وهى تحاول بكل جهدها إقناعى بمصاحبتها . والتخلى عن جنونى كما تصف .

ولما لم يجد معها أبلغ اعتذار أصدرته لها .. لجأت إلى دهانى أستنجد به .. مستخدمًا الغرض الذى يرضيها دومًا .. قلت لها :

ـ إنك ما زلت على براعتك الساذجة ..

فلما أثرت فضولها .. تابعت :

ـ إنى أبيّت أمرًا .. ولم أرد التصريح به لك خوفًا عليك من القلق .

ثم ذكرت لها أنى سأفيد من حالة الفوضى التى تعم دولة (تيوك) ، مثلى فى ذلك مثل غيرى . وقد أخذ جمع من الأجانب ينتهز هذه الفرصة .

وقلت لها ، بما أن عربة سيدتى ستكون بقيادتى ، وبما أنى سأحصل على تصريح بخط يدها تكلفنى فيه بقيادة عربتها ، لذا لن يعترضنى

أحد ، أو يتهمنى بسرقتها .. وسوف أشحنها بكل ما خف حمله وغلا ثمنه ، ثم أرتحل إلى موطننا تابعا لها .

عارضت أن أعرض نفسى للخطر أولا ..

فقلت لها :

ـ إن هذا ما كنت أخشاه .. قلقها علىّ هو ما دعانى إلى إخفاء الأمر عنها .

ثم عارضت السرقة ثانيا ..

بيد أنى ذكرت لها أن لى خدمات فى البلد مدتها ثلاثة عشر عامًا .. وأن ما أقوم به ليس إلا استردادا لخدماتى ليس غير .. ثم إن البلد كلها عرضة للسلب ، فإن لم أفد ، فأنا الوحيد الخاسر . فعمليات السرقة قائمة بها على قدم وساق .. ولن يفيدها إحجامى عن استرداد حقوقى .

منطق معوجّ .. ولكنها قبلت به أخيرًا ، لأنه صادر منى ، بيد أنى على ثقة من أنها عندما تراجع الأمر مع نفسها ، وتستعيد حديثى السابق لها سوف ترى ما يناقضه الآن ، حتمًا عندئذ ستكتشف أين موطن الكذب ، ولكن عندئذ لن يهمنى ، فإنها تكون قد قطعت شوطًا طويلاً للعودة إلى موطننا .

مسكينة زوجتى ، إنها مغرمة بى .. مسكينة الزوجة ما حيلتها إذا ما زهد فيها زوجها .. ومع ذلك فالأمر خارج إرادتى .. إنى أعشق سيدتى .

وهكذا تملصت منها ، تملصت من زوجتى .

عندما عدت بعد ذلك .. رأيتهم يحمّلون العربتين بالأمتعة ، التى أعددتها ورتبتها منذ الصباح الباكر .

ركبت سيدتى فى المقعد الخلفى لعربة زوج ابنتها وفى حضنها

الطفلة (هراس) التى لا يتجاوز عمرها الثلاثة أشهر ، وفى المقعدين الأماميين جلست ابنتها وزوجها الذى تولى القيادة .

وكان السيد (رصان) يتصدر عربته ، وبجواره زوجته التى تحتضن ابنها . كنت أنا أحتفظ بعربة سيدتى بعد أن أوصلت زوجتى بها ، وضعت بها أمتعتى الخفيفة ، وأشرت للسيدين ، بأنى سأتبع عربتيهما ، فأوما لى الشابان بالفهم .

إلا أن سيدتى رمقتنى فى دهشة ، أظن مبعثها إصرارى على مرافقتهم .. لعلها عجبت لماذا تركت زوجتى ترحل بمفردها .. وما الدافع لى من وراء ذلك ، ولماذا لست خائفا من مصاعب الرحلة المحفوفة بالمخاطر وفى إمكانى النجاة بنفسى ، ولماذا أجازف بحياتى من أجلهم .. أو غير ذلك من الأسئلة التى ربما كانت تطوف بدماغها ، دون أن يكون فى ميسورها إيجاد جواب عنها أو تخمين سببها .

ثم لم تعد تنظر لى ، بل لم تعد عربة ابنها مجاورة لنا فى الطريق ، وهى آخذة فى التلفت متلهفة ، تريد أن تستكشف مكانها منهم .

حال بيننا وبين عربة السيد (دارم) بعض العربات ، التى كانت تتدفع كالسيل هاربة ، والكل منشغل بنفسه عن غيره بمصاعب الطريق ، وخطورة جند دولة (قارع) الغازية .

لسنا نحن فقط على ذلك الطريق ، كان هناك زخم كبير من العربات الهاربة بحمولتها من الناس ، والكل يسابق الريح ، ويزاحم غيره على موطئ قدم من الطريق ، يجازف بنفسه وبمن معه فى سبيل النفاذ السريع ، وكأن غولا يطارده ليعود به إلى الجحيم ، وكنا نحن بعرباتنا الثلاث لا نقل عنهم هوسا فى القيادة ،

فالسيد (رصان) يطارد الرياح ، وأنا من خشيتى لفقد مساره لا أكاد ألمس الأرض بعجلات العربة التى تحتى . أما السيد (دارم) فقد تاه منا أثره . ربما هو يسبقنا ، أو أنه تخلف عنا لسبب من الأسباب .

ونحن فى هذا الاضطراب توقف سير العربات فجأة ، لست أعلم بأى قدرة حافظة استطاعت تلك العربات تفادى الاصطدام ببعضها .

يبدو أن الجند صدوا ، أوائل تلك العربات المتقدمة عن العبور إلى الطريق المعبد المؤدى إلى دولة (دوعس) المجاورة ، بقوة المدافع الرشاشة .

ويبدو أيضا أن قادة تلك العربات ، لا يريدون اليأس ، وأن الموت أهون عليهم من العودة إلى نيران الغزاة .. ها هو سيل من العربات ينحرف نحو منعطف رملى غير معبد يؤدى إلى الهدف المنشود ، بحثت عن العربة التى تقل سيدتى . عندما تأكدت من انعطاف عربة السيد (رصان) ، تبعتها ، داخلا ذلك المنعطف .

كانت الكثبان الرملية ، تعترض القوافل الهاربة ، وذرات الرمال الناعمة تقيم أستارا كثيفة أمام الزجاج الأمامى والخلفى للعربات فتعوق الرؤية عن السائقين . والكل خفض زجاج نوافذ عربته ، وأطفأ المكيفات الهوائية ، فلم يعد هناك مجال للرفاهية أو الراحة .

هاهى ذى الرمال تصفع الخدود بخشونة ذراتها ، وهأنذا أحسها تضرب أذنى وصفحة خدى ، لقد امتلأ بها شعرى وياقة قميصى . بيد أن لا أحد يعبأ بذلك ، فالكل لا هم له إلا الوصول إلى الهدف .

وأقسى ما فى الأمر هذا الوهج الشديد من أشعة شمس أغسطس التى لا ترحم ، إنها عمودية على هذه المنطقة فى مثل هذا الفصل من العام .

إن العربات من أمامى ، ومن خلفى تكاد تتطاير ، وكأنها فى (رالى) ، الكل مسرع خائف من الجند ، أو خائف من الدفن فى هذه الرمال ، أو من أى شىء آخر لا يعرفه ، أقله أن يضل فى هذا التيه القاحل .

أين عربتها ؟ تلفتّ يمنة ويسرة .. نظرت أمامى وخلفى ، لم أرها .. أوه أضعتها هى الأخرى .. لا بأس سأجدهم على حدود دولة (دوعس) ، ولكن جلّ ما أخشاه أن تكون فى حاجة إلى المساعدة ، فلا تجدنى قريبًا منها .

ليس معى قطرة ماء .. ولا حتى كسرة خبز .. وباختصار شديد ، ليس معى ما أقيم به أودى .

كان تقديرى للأمر ، بأن أكون ملاصقًا للعربتين ، عندما أحتاج لشىء أجده لديهم .. ماذا لو انقطع بى الطريق ؟. سأموت عطشًا .. آه لو ضللت فى هذا التيه ، لن يلتفت إلىّ أحد .. الكل فى شاغل من نفسه ، وكيف ينقذها ، يتعين على أن أستمر فى القيادة دون توقف إطلاقا ، وبسرعة كبيرة مثل الجميع .

هذا ما قلته لنفسى ، وأنا أصارع تلك الرمال ، ذلك اليوم الذى ليس مثله يوم آخر .

٨ / ٨ / ١٩٩٠

وصلت إلى حدود دولة (دوعس) منذ يوم أمس ذهبت إلى أحد ضباط المركز الحدودى ، قدمت له أوراقى ، وما يثبت ملكية العربة لسيدتى ، وسألته عما إذا كان مرّ عليه أحد بهذا الاسم .

لم تكن بـه رغبـة جادة فـى البحث فـى الأوراق التـى أمامـه ، خاصة وهى كومة ، لحصيلة يومين .

وهو لا يلام فى رأيى على ذلك ، لقد كـان زحـام الوافدين من دولة (تيوك) ، هروبًا من الغزاة لا يدع له مجالا حتى للرد على أسئلتى . ولكنه مع هذا قلب فى الأوراق التى أمامه سريعًا . وقال لم يمر أحد علىّ بهذا الاسم .

غاص قلبى بين أضلعى .. ترى ماذا حدث لهم .. كنت على وشك البكاء .. بيد أنى تماسكت ، ورجوته أن يسمح لى بالبقاء على مقربة ، حتى يتيسر لى أن أكون على معرفة ، عندما يصلون إلى الحدود ، وقلت له إن العربة تخص سيدتى ، وهى أمانة فى عنقى ، لا أستطيع التصرف فيها حتى تأتى .

نظر لى طويلاً ، مستغربًا وغير مصدق ، أن أحتفظ بالأمانة فى مثل هذا الإصرار ، فى وقت تسهل به السرقة للفوضى التى تعم أرجاء الدولة التى أتيت منها ، وعلى الرغم مما يبدو على من حاجة إلى النقود .

له عذره ، فهو لا يعرف دخيلتى ، وسبب أمانتى التى بدت له عجيبة .. ابتسم لى بود مشجعًا ، وأومأ لى بالموافقة .

كـان لدى أمل طفيف بـأنهم عبروا الحدود ، وأرجعت عدم وجود أسمائهم بين أوراقه ، ربما إلى سبب أنه لم يدقق فيها جيدًا ، هذا هو ما حال دون معرفة زمن وصولهم .. ثم هناك عدد آخر من الضباط المشـابهين لـه فـى العمل فـى هـذا المركز الحدودى الضخم . قد يكونون نفذوا من خلال أحدهم .

قلت لنفسى : لأوطد علاقتى بهذا الضابط الطيب ، وبعدها لن أعدم مخرجًا لمعرفة الوقت الذى مروا بـه ، من أى من هؤلاء الضباط .

أما إذا لم يمروا حتى الآن ، فهذا أتعس ما فى الأمر ، بل إنه الطامة الكبرى . إذ لابد وبدون ريب يكونون قد هلكوا فى الطريق مع من هلك ، وهم كثر .. إذ من غير المنطقى ، ولا من المعقول أن يستهلكوا كل هذا الزمن فى العبور دون أن يكون قد حدث لهم ما يعوقهم ، والمسافة بين الدولتين يقل زمن عبورها عن ثلاث ساعات .. هأنذا برغم كل المعوقات ، فقد وصلت منذ فجر أمس .

وضعت مفتاح العربة أمام ضابطى الطيب ، وقلت له إنى سأخرج مجولا فى الجوار ، عسانى أجد أحدا منهم .

رمى المفتاح فى الجرار أمامه ، مشيرا إلى مكانه ، فيما لو احتجت إليه .

ما كدت أبتعد عن الضجيج ، وأتجه إلى الصحراء فى عملية استطلاع . حتى التقيت به .. التقيت بالسيد (رضان) ، كانت فرحتى به موازية لحزنى على من لم أره منهم ، بيد أن طبعى المتفائل أمدنى بالأمل ، فلم يتخل عنى الرجاء أبدا .

كان المسكين جالسا على الرمال على مبعدة قليلة من حدود دولة (دوعس) ، وبقربه حقيبة (السمسونايت) التى عرضها على ذلك الضابط الغازى الشيطانى الهينة لحمل الذهب فيها .. إنها الآن تحمل كل الأوراق الثبوتية لأفراد الأسرة التى تقلها عربته .

انكببت عليه أقبله ، وقلبى على الرغم من خيوط الأمل التى يحاول التشبث بها ينبئنى بشر مستطير ألمّ بهم .

لقد كان وجهه مصفرا ، كأنه خلا من الدم ، وكتفه ملطخة بالدم بسبب ما كان ينزف منها دون ريب ، لقد كانت بقع الدم المتخثر تغطى كمه الأعلى ، ومعظم صدار القميص ، حتى ياقته لم تخل

من الرذاذ .. كأن رصاصة اخترقته ، وكانت كتفه مربوطة برباط غير محكم .. أما أصابع يده ، فقد كانت ترتجف كريشة فى مهب الريح .. ومع ذلك كان يضغط بإصرار بين سبابته والوسطى على نصف سيكار ، يحاول جاهدا إيصاله إلى شفتيه بين حين وآخر ، ناسيا أن السيكار منطفئ . لم ينس السيكار فقط ، إنه آخر من نسى كبرياءه .. وهو فى غمرة فرحته بى ، فقط فى هذا الموقف العصيب ، نسى أنه زوج ابنة سيدتى ، وأنى الخادم .. زالت الفوارق بيننا فى ذلك الموقف الرهيب ، كما زالت من قبل مع السيدة (هراس) وابنها .

عاملنى كصديق حميم ، بل كأنى فرد من عائلته .. بيد أنه لم يشأ أن يرد على أسئلتى المتلاحقة بالسرعة التى كنت أرغب فيها ، وإنما أخذ يسرد على تسلسل الأحداث معهم ، وكأنه يعمد إلى تأجيل إخبارى بالفاجعة لعدم جرأته . أو لكأنه يجدّ فى البحث عن مبرر لدوره فيها .

ومع أنى لم أفهم دوافعه إلى ذلك السرد التسلسلى للأحداث ، إلا بعد أن أتم قصته .. إلا أنى صبرت عليه ، على الرغم مما بى من حرقة وشوق لمعرفتها ، وذلك بدافع من حكم العادة فى احترامى الشديد لرغبات أفراد الأسرة التى كنت أخدمها .

قال :

– عندما منعنا جند دولة (قارع) من اجتياز الطريق المعبد المؤدى إلى دولة (دوعس) ، مصوبين رءوس بنادقهم الرشاشة تجاه المتقدمين أمامنا .. اضطررت إلى التراجع إلى الخلف مع الجمع ، ثم انطلقت بالعربة عائدا ، وإحساس بالعجز عن مقاومتهم يفرى كبدى ، ويعمى بصيرتى . قالت لى زوجتى الجالسة إلى جوارى متألمة :

— ألن نخرج من هذا الأتون ؟..

لم يكن فى مقدورى الرد عليها ، بعد أن جف سقف فمى ، وباتت أبسط الكلمات أصعب على الانطلاق من لسانى ، بيد أن والدتها التى كانت تجلس فى المقعد الخلفى ، وتهدهد طفلتنا فى حضنها تولت الرد عليها .. حسبنا الله .. حسبنا الله ..

حاولت ألا أدع زوجتى تشعر بمعاناتى الأليمة ، وجاهدت أن أقول :

ليس أمامنا إلا العودة .. فأنت كما ترين لا يسمحون لأحد بعبور الحدود ، والهرب إلى دولة (دوعس) بيد أنى قبل أن أتم حديثى ، شاهدت رتلاً من العربات العائدة مثلنا فى حال ارتداد خوفا من فوهات البنادق ، وهى تنحرف عن الطريق العام ، وتدخل طريقًا متفرعًا غير معبد تكسوه الرمال الناعمة ، ولا يحظى بحراسة من جند العدو .

لقد سمعت أحد قائدى تلك العربات يصرخ مخاطبًا زميلاً أو قريبًا له ، يقود عربة أخرى محاذية له ، محملة بالنسوة والأطفال :

— اتبعنى .. اتبعنى .. إياك أن تفلت منى .. سنجد مخرجًا من هذا المنعطف .

فقلت لزوجتى وأمها ، وكأنى وجدت الفرج الذى يعوضنى عن الشعور بالهزيمة :

— سنتبعهم .. لنهرب من هذا الطريق الرملى .

فقالت زوجتى بقلق :

— والطفلة .. أخشى أن تنغرز العربة فى الرمال ، وقد لا يتيسر لنا استخراجها ، فنموت عطشًا فى مثل هذه الدرجة المرتفعة من الحرارة فى هذا الطقس الصيفى الملتهب ، والوقت لا يزال فى ضحاه .

كانت الساعة لا تزال الحادية عشرة كما تعلم .. فعربتك كانت تسير خلف عربتنا مباشرة ، ورأيتك وأنت تنحرف بعربتك فى ذلك الطريق الرملى خلفنا قبل أن تتيه منا . قلت لزوجتى موضحًا لها الأمر الواقع :

— ليس أمامنا بُد من المجازفة ، هذا هو الخيار الوحيد الموجود أمامنا ، وأنا شخصيًا أفضل الموت على أن نعود إلى منزلنا معرضين حياتنا فى أيةّ لحظة إلى مثل ذلك الخطر الداهم ، الذى تعرضنا له اليوم . ولم أكن أعلم أن الموت يتربص بنا على نفس الطريق .

تدخلت والدة زوجتى فى الحديث قائلة إنها لا يمكنها أن ترحل دون ابنها ، وإنها تفضل الهلاك على النجاة بدونه .

فكذبت عليها بأنى أراه خلفى .. وهو حتمًا سيتبعنا ، وقلت أطمئنها لا تخافى شيئًا إنه هناك بين العربات .

وتلفتت ، لكنها لم تر شيئًا وكذلك فعلت زوجتى وهى تقول :

— ولكنه محفوف بالمخاطر .

فتدخلت أمها للمرة الثانية بعد أن صدقت بأنى أرى ابنها فقالت :

— لنكل أمرنا إلى الله .. لن نموت قبل ما هو مقدر لنا من عيش .. قد نتعذب فى الطريق .. ولكنه لن يكون أشد مما تعرضنا له .. أو فيما سنتعرض له ، فيما لو عدنا .

وهكذا انحرفت عن الجادة السوية ، ودخلت ذلك المنعطف الرملى ، ومعى ذلك الرتل من العربات التى لا تقل أعدادها عن الألف ، يزاحم بعضها بعضًا ، كما كنت ترى .

وقلت مخاطبًا زوجتى معززًا لرأى أمها :

— سنشاركهم فى مصيرهم .. ومهما يكن فهو أفضل مما ينتظرنا

على أيدى الغزاة ، فيما لو عدنا أدراجنا .

وقالت والدة زوجتى معقبة :

ــ فوضنا أمرنا إلى الله .

ثم رأيتك وأنت تنحرف بالعربة خلفنا .. ولكنى لم أر أخا زوجتى السيد (دارم) ، لقد حال زحام العربات بيننا منذ بدء الرحلة .

وكان أصعب الأمور ما أتى بعد ذلك .. إذ ما كدنا ندخل المنغرز ، حتى أخذ سير العربة يتباطأ نتيجة لاحتكاك إطاراتها بذرات الرمال الزلقة ، مما دفعنى مثل غيرى إلى زيادة الضغط على دواسة الوقود ، فارتفع مؤشر السرعة إلى مائة وعشرين ثم مائة وثلاثين .. ثم مائة وأربعين كيلو مترًا فى الساعة .

أخذت العربة تعلو وتهبط وترتج ، وكأنها ستنقلب بنا بين آونة وأخرى ، كانت زوجتى تصرخ بوالدتها باستمرار :

ــ أمسكى الطفلة جيدًا يا أماه .. أمسكى الطفلة جيدًا يا أماه .

وتلفتت إلىّ متوسلة : خفف السرعة أرجوك .. إن رأسى يرتطم بسقف العربة .

لم أفعل .. ولو فعلت سنتخلف عن الرتل .. ولن نجد من يساعدنا فيما لو انغرزت العربة فى الرمل .. كنت فى ذلك الوقت أضعتك أنت الآخر ، ولم أعد أرى عربتك .. إن العربة التى كنت تقودها أكثر استعصاء على الرمال .. ليتنا أخذناها منك ، وأعطيناك عربتى ، لربما نفذنا سريعًا .. على أية حال ، ما حدث مقدر له أن يحدث .. لا مفر من ذلك باللوم .

لقد ارتطم رأس زوجتى بالسقف عددًا من المرات ، وهى تصرخ وتتأوه ، وأظن أن والدتها حدث لها ما حدث لابنتها ..

ولكنها صبورة جلدة .. أوه .. أوه .. لقد حدث المحظور .. انغرزت العجلات فى عمق رملى .. وأخذت عجلاتها تدور وتدور دون أن تتقدم .. أطفأت المحرك .. ونزلت منها ، وبحثت عنك فلم أجدك .. لابد أنك كنت تسبقنا بمسافة كبيرة .. لقد توقف رتل العربات التى كانت تسير خلفى ، وانغرزت عجلات معظمها فى الرمل ، عندما توقفت أمامها .. أما التى كانت أمامى ، فقد واصلت طريقها دون أن تلتفت .

لا أحد يلام فى مثل ذلك الموقف .. أغرب ما فى الأمر أننى لم أكن أعرف الاستدلال على الوجهة المقصودة فىهذا الطريق غير المطروق .. إننى لا أعرف كيف يمكننا أن نصل إلى دولة (دوعس) ، وأظن أن معظم قائدى ذلك الرتل من العربات على شاكلتى من عدم المعرفة به ، إنه لا يعلم سوى أنه هارب من دولة (قارع) الغازية فحسب .

الكل هارب .. وأينما يلقى به الطريق ليس بذى بال . كل ما يدفعه ، أن يهرب من جحيم المدافع المنصب على مدينتنا الصغيرة ، ومن قسوة الجند الغلاظ الأفئدة .

كان لدى أحدهم بوصلة ، قال ربما نضل فى هذا التيه الرملى . عاهدنا بعضنا ، على أن نسير متلازمين ، يعاون بعضنا البعض عند الحاجة ، التزم بعضنا بذلك العهد ، فكنا نتوقف عندما تنغرز عجلات إحدى العربات ، فنساعد فى استخراجها . لأول مرة ، أعرف أن الإقلال من الهواء داخل إطار العربات يجعل الجهة الملامسة للرمل مسطحة فلا تنغرز .

ولكن أريد أن أقول لك شيئا .. إنه عندما احتجنا إلى المعونة الحقيقية ، عندما احتجنا إلى المساعدة النافذة ، لم نجد أحدًا إلى

جوارنا ، كأنهم نقط من الرذاذ تبخرت بسرعة من أمامنا ومن خلفنا ، ومن كل جوانبنا ، تبخرت بسرعة مذهلة لا تصدق .

كان يتحدث ، ويتحدث ووجهه يزداد صفرة ، ويده تزداد رعشة ، ولكنه لا يريد أن يوجه إليه سؤال .. أو لكأنه كان صامتا الدهر كله ، حتى إذا وجد من يصغى إليه ، فتح فاه ، دون رغبة فى إغلاقه .

قاطعت استرساله بصعوبة ، عارضا عليه ، أن يفترش الأرض للراحة ، وسأقوم أنا بإنجاز ما يلزم له من الإجراءات التى يتطلبها الموقف .. علنى أفهم أين البقية منهم ، أو ماذا جرى لهم .

مددته على الأرض وقلت له :

ــ إن الرمال الملتهبة ستكوى كتفك .. ثم خلعت قميصى لأكومه تحت رأسه ، وبما أنى لا أدخن ، فقد تناولت علبة الثقاب من صدارته وأشعلت له نصف السيجار .

وقبل أن يستأنف الحديث ، كنت على مبعدة منه .

عندما عدت إليه بعد قليل ، حاملاً بعضا من الجبن ، وعلبة من عصير البرتقال .. مما كان يوزع مجانا فى حدود دولة (دوعس) على اللاجئين من دولة (تيوك) . رأيته نصف جالس ويده السليمة تسند رأسه .. قال :

ــ لم يكن فى مقدورى النوم ولا حتى الراحة .

قدمت له قطعة الجبن .. وأجبرته على شرب العصير ، وعندما انتهى منه ، سألته عما يشغل بالى فى كل الأمر .. أين سيدتى ؟

أجاب :

ــ لا أدرى .. أظن أنه أغمى عليها .. أو تكون ماتت بيد الغزاة .. أو ربما تكون خطفت من أولئك الجنود الغلاظ .. لا أعرف

عنها شيئا .. ولا عن طفلتى (هراس) الصغيرة التى كانت فى أحضانها .

عندئذ سألته عن زوجته ، فقال وكأنه يتحدث عن واحدة أخرى :

ــ ماتت .. لم أتمكن من دفنها .. المفروض أن أكون مت معها .. ليتها تكون دفنت .. قد تكون مسطحة على الرمال حتى الآن .. ليتنى أعرف .. كان مغمى علىّ .. حتما كان مغمى علىّ .. ضربت نفسى بالرصاص ، بيد أنى لم أمت بدليل أنى هنا .. أو أحدهم هو الذى ضربنى .. الأصح أن يكون أحد الجنود هو الذى ضربنى .. ربما كان أسرع منى لأننى كنت موجها الفوهة إلى قلبى .. ولكنى كما ترى جاءت إصابتى فى كتفى .. أظن أحد الجنود كان أسرع منى ..

وبعد وقفة قصيرة جدًا ابتلع بها ريقه الجاف ، استأنف على الرغم مما يبدو من وهنه ، وكأنه يجد فى إطالة الحديث عزاء له .. قال :

ــ عندما انغرزت عربتنا فى الرمال للمرة الثالثة ، أو الرابعة .. مرت بنا دورية من الجنود الغازية . وجاء سوء الحظ بلمحة من عينى ضابط تلك المفرزة إلى وجه زوجتى الجالسة بجانبى . فأوقف عربته المحملة بالجند والسلاح أمام مقدمة عربتى . وكنت فى تلك اللحظة على وشك المسير بعد استخراج عجلاتها من الرمال ، كانت عربتى آخر ما أخرجناه من العربات ، بعد أن ساعدت فى إخراجها جميعًا .

وفى لمح البصر انفض كل من كان حولنا ، ولوا هاربين من أمامهم ، نسوا العهد الذى قطعناه لمساعدة بعضنا البعض ، وكأن ذلك العهد ، يخص الرمال فقط . على كل لا أحد يلام .. الكل خائف على من معه من النسوة .

فالتفت ورأيت نفسى وحيدا أمامهم .. حتى أرتال العربات المارة ، اتخذت مسارا بعيدا عنا ، وهى ترى مفرزة الجند تحول بيننا وبين المسير ، خشية أن تنتبه لهم فى هربهم .

حاول قائدهم أخذ زوجتى عنوة ، أعجبه جمالها .. وصغر سنها ، وكان الرعب قد أضفى عليها جمالا لا سبيل إلى وصفه ، والحرارة ، وصفع الرمال على صفحة وجهها كسا خديها حمرة الأرجوان .. أذكر منظرها لقد أمست كالجمرة الملتهبة .. المهم أعجبهم كلهم منظرها ذاك .

توسلت إليهم كلهم ، كما فعلت مع ذلك الضابط عندما كنا فى المنزل ، لم يصغ أحد إلى توسلاتى .. إنهم يتفاوتون فى مقدار النذالة والوحشية .. عرضت عليهم كل ما جلبناه معنا ، رفض كبيرهم إلا أن يسحب زوجتى من معصمها على الرغم من مقاومتها له وصراخها فى وجهه ، وكلما ازداد صراخها ، ازدادت رغبته فيها .. فكرت لو أنى قتلت كبيرهم هذا سيقتلنى أحد جنده ، وفى النهاية يستولون عليها .. ليس ثمة إلا حل واحد لخلاصها .

أفرغت ثلاث رصاصات فى صدر زوجتى بضغطة واحدة ، ووجهت الباقى إلى قلبى .. ولكن أظن أن أحد الجنود .. أو هو القائد نفسه كان أسرع من يدى .. أصبت فى كتفى ، ولا أدرى بعد ذلك ماذا حدث .. كنت أظن أنى قتلت نفسى أول ما استعدت وعيي .. حسبت أنى فى اليوم الآخر .. بيد أنى عندما أفقت تماما ، كان أحد قائدى العربات الهارب مثلنا ، يضع حقيبة أوراقى بين يدى قائلا ابق هنا ، لا تتحرك حتى أعود .. سأقلك إلى المستشفى .. ولكن قبل ذلك يجب علىّ أن أعثر على ابنى .. هو الآخر أضاع

نفسه .. والأب أضاع ابنه .. ابتعد ابنه قليلا لقضاء حاجته ، ولكنه لم يعد .. يبدو أنه تاه الدرب بين هذا الجمع الغفير من الناس والعربات المتراصة المزدحمة .. وها قد مضى أكثر من ساعتين والرجل لم يعد بعد هو الآخر .. أظنه ضل عنى أيضا .. أضاع مكانى أو أنه لم يجد ابنه بعد .. كأننا فى يوم الحشر .. ليته يعود ..

إنه سيأخذنى إلى المستشفى ، نزف منى دم كثير .. لن أعيش طويلا هذا إحساسى .. إننى أشعر بآلام رهيبة .. إننى أشتعل بالحمى .. الحمد لله على أنك وجدتنى .. فى ميسورك أخذى إلى المستشفى الآن .. أما زالت عربة السيدة (هراس) معك ؟..

بيد أن ردة الفعل عندى جاءت مغايرة لما توقعه منى ، إذ صرخت بوجهه ، صرخة بدرت منى دونما وعى ، تحمل استنكارًا رهيبًا :

ـ قتلت ابنة سيدتى .. يا لنذالتك ؟..

فقال معتذرًا :

ـ لم أجد طريقة أخرى لحمايتها .. رأيت أن الموت هو الحامى لها فى مثل ذلك الموقف .

كان حزنى شديدًا ، ليس لموت الابنة فحسب ، بل لتخيلى الرعب الذى عانته الأم ، وهى ترى بأم عينيها ابنتها الوحيدة تقتل أمامها ، حقدت عليه ، وقلت له بجفاء :

ـ ليتك تركتها لمصيرها ، كان ثمة أمل فى بقائها حية .. لماذا تدخلت فى منع قدرها ؟!

فقال بانكسار :

ـ ألا تعرف معنى الشرف ؟..

وقلت بقسوة :

ــ بل أعرف معنى الحياة .. لعلك كنت تتوقع وساما على فعلتك هذه .. كان فى ميسورك يا هذا أن تنجو بشرفك الرفيع ، بقتلك لنفسك ..

رد بذلة :

ــ ليتنى قتلت نفسى معها ..

فصرخت به :

ــ بل يجب عليك أن تقتل نفسك بدونها ، إن كان لابد لأحدكما أن يموت فليكن أنت .. كان يجب عليك قتل ذلك الضابط النذل ، وهو أو أحد جنده يتولى أمرك .. ولكنها الأنانية ، لم تدعك تفكر إلا فى نفسك ، حتى فى أحرج الأوقات .. ابق هنا .. سيأتى صاحبك ليقلك إلى المستشفى .. لن أسهم فى إنقاذ قاتل ابنة سيدتى ..

وابتعدت عنه ، وفى نيتى تركه لمصيره .. لن أقدم له يد العون .

أخذ يصرخ خلفى .. لا تتركنى .. أرجوك .. تعال .. تعال ..

ثم خفت صوته بابتعادى .. فلم أعد أسمعه ..

أمسكت برأسى بين يدى ، وأنا جالس على أحد الكثبان الرملية بعيدًا عن كل من اللاجئين والمستقبلين لهم فى تلك النقطة الحدودية ، وانهمرت دموعى كما لم تنهمر فى أى يوم من الأيام .

هأنذا بعد أن عثرت على أثر لها لا أجدها .. أرجو ألا تكون التضحية بزوجتى من أجل لا شىء .. هى الأخرى ضاعت منى ..

ترى هل وصلت إلى موطننا .. لاشك أنها الآن تحتضن أولادها وتحظى بعنايتهم .. آملة أن أدخل عليهم بين آونة وأخرى محملا بالغنائم ، إذا كانت على ثقة مما قلته لها .

وعدت إلى البكاء مرة ثانية .. آه .. لكم أحقد على ذلك الرجل .

التفت إليه .. إنه يبدو على البعد كنقطة سوداء على الرمال ..

دفعنى شعور بالواجب للاطمئنان عليه .. لا يصح تركه مهملا ، يتعين على نقله إلى المستشفى .. هذا ما قلته لنفسى . وسرت إليه وئيد الخطى ، أجر قدمى جرًا .. لأداء مهمة لرجل أكرهه وأحقد عليه . ولكن ما كاد يتضح جسده لى ، حتى انفثأ حقدى ، وحل محله القلق . لقد تركته نصف جالس ، مستندا إلى يده السليمة .. أخشى أن يكون أغمى عليه .. إنه ممدد .

قادتنى عواطفى سريعا نحوه .. ناديته مرات ، فلم يجب .. تلفت أبحث عن ماء أرش به وجهه .. ليس بقربى غير الرمال .. اتجهت راكضا إلى مبنى نقطة الحدود أبحث فيها .. فلم أجد من ينجدنى سريعا .. ابتعت ماء مقطرا فى زجاجة من البلاستيك ، وعدت إليه راكضا .

كان الرجل المسكين قد توفى .. حضنته .. رششت الماء على وجهه ، وسكبت قطرات منه فى فمه المفتوح .. ولكن القطرات بقيت مكانها ولم تتسرب .. يا إلهى ماذا أفعل ؟..

فطنت إلى حقيبة (السمسونايت) التى تحتوى أوراق الأسرة ، والتى كان يحرص عليها أكثر من حرصه على روح زوجته الشابة ، قلبت ما فيها ، وتناولت جميع ما يثبت هوية سيدتى ، أو أية ورقة شخصها ، دسستها فى ثيابى ، وابتعدت . وتركت كل ما عدا ذلك حتى النقود ، التى كنت فى مسيس الحاجة إليها .

سيأتى أحدهم لاكتشاف جثته ودفنه ، لن أعرض نفسى للمساءلة .. قتل زوجته فى الصحراء .. وترك سيدتى عرضة للمهالك .. وقد تكون ماتت هى الأخرى .. ياللمسكينة ، كم ألمها منظر ابنتها وهى تقتل أمامها .. ياللوحش ، ولكنه مع هذا لم يقدر على حماية السيدات .

أخرجت جواز سفر سيدتى ، أنظر صورتها فيه ، بيد أنى لم أرها بوضوح لتكاثف الدمع فى مقلتى على الرغم من رجحان موتها ، نسبة للموقف الذى تعرضت له .. إلا أنه لا يزال لدى تلك الضآلة من خيوط الرجاء .. بصيص يتسرب إلى نفسى ، ربما تكون حية ترزق .

هذه الخيوط الواهية من الآمال التى أصنعها لنفسى ، كثيرًا ما تشد من أزرى ، وتنتشلنى من هوة اليأس التى ربما أتردى فيها .

إنى دومًا هكذا .. أختلق الآمال ، وأضفر من أوهى خيوطها حبالا أتعلق بها ، مبتعدًا . على الرغم من كل ما يشدنى إلى بؤرة الألم . بل إنى لا أرى ولا أحس الأشياء والمواقف المؤلمة ، إلا إذا كانت من الوضوح بما يشابه العمليات الرياضية ، أما ماعدا ذلك فلا أسلم به أبدًا ، طالما أن هناك متسعًا بقدر ثقب إبرة للنفاذ منها .

من هذا الطبع المناضل ضد الألم ، تشبثت بالرجاء ، إنها ربما تكون ما زالت على قيد الحياة .

ومن هذا المنطلق ، اندفعت أجدّ فى البحث عنها ، مجولاً بين تلك الحشود ، معللاً النفس بالعثور عليها ، أو على ابنها ، أو على أى من معارفها .. من يدرى لعل وعسى .

١٧ / ٨ / ١٩٩٠

أمضيت أكثر من أسبوع فى هذا المركز الحدودى . عدت خلاله إلى الموقع الذى كان به زوج ابنة سيدتى ، السيد (رصان) ممددًا .. فلم أجده ، يبدو أن ثمة من عثر عليه .. لقد انتهى الأمر منه .. وانتهى هو من كل الأمور ، لقد كان تركى له على تلك الصورة يؤرقنى ، أما وقد دُفن ، فلم أعد أهتم أو أفكر فيه .

عدت من حيث أتيت ، وكأنى لا أعرف عن أمره شيئا .

حينما خطر لى أن أوطد مكانا لى فى هذا المركز الحدودى ، تفرغت تماما لهذا الخاطر .

فأخذت أؤدى خدمات تطوعية لتنظيم ذلك السيل الجارف من النازحين من دولة (تيوك) ، فى الحيز الذى يقع تحت غمرة ضابطى الطيب . بذلت غاية ما فى وسعى من همة ونشاط فى عملى التطوعى ذاك ، ولا مطلب لى سوى إرضائه ، وعن طريقه يصبح فى ميسورى إثبات وجود لى فى هذا المكان .

حاولت بكل ما فى مقدورى من جهد أن أظهر جدواى فى إنجاز مختلف الخدمات التى تتطلبها عمليات التنظيم للوافدين الجدد .

كنت السبّاق دائمًا فى أداء هذه الأعمال ، رافضًا بإباء وأنفة أى مقابل يقدم لخدماتى . وكان الجميع من العاملين ، أو القادمين يسرون أشد السرور لهذه الخدمات .

حتى أدى الأمر فى النهاية إلى اكتسابى مسمى جديدًا ، أطلق علىّ من أحدهم بدلاً من اسمى ، ولا أدرى من ابتدعه ، وكيف التصق بى . بات كل العاملين ومن سمعهم من المارين ، يناديني بـ يا (إنسان) ، ربما أحدهم سمع آخر يثنى علىّ بهذه الصفة ، فظن أن هذا هو اسمى ، فأخذ بمناداتى به ، ثم تبعه من استمع إليه .

وهكذا أخذت أنادى بالاسم الجديد من الجميع ، ممن عرف اسمى الحقيقى ، وسره الاستبدال الجديد ، أو ممن لم يعرفه وظن أن ذلك ما أسمى به .

هات يا (إنسان) .. تعال يا (إنسان) .. إلى آخره .

وأنا أؤدى كل مطلب ، وأسد كل شاغر .. دون كلل أو تقاعس ، أو حتى ملل .

بيد أننى فى دخيلة نفسى أشعر باللاإنسانية .. أية إنسانية تلك التى تهدف إلى غرض معين من وراء خدماتها للآخرين ؟!

٢٠ / ٨ / ١٩٩٠

كادت تمر بى دون أن أراها ، فى اليوم العاشر من أيام تمركزى هنا .. فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، والزحام على أشده ، وقف رجل لا أعرفه واعترض طريقى ، وأنا عاجل لمساعدة آخر .. سألنى المعونة ، بعد أن رأى أنى أعاون الجميع .

طلب منى أن أرشده إلى الموظف المختص ليكشف له عن وجود امرأة فى عربته ، مريضة ، ولا تستطيع النزول ، وليس معها ما يثبت أو يبين هويتها .

استحضرت له الموظف المطلوب ، ونحن فى الطريق إلى العربة ، التى كاد أن يتيه عنها فى الزحام .. قال يحدثنا :

ـ إنها مريضة خرساء .. لا تنبس بكلمة ، منذ أن وجدناها ، وطفلة رضيعة على حجرها ، كانت جالسة على الرمال شاردة اللب ساكنة سكون الجماد .. اقتربنا منها ، كنا أربعة من الرجال .. رأينا قربها جثتين لشابة ، وشاب .. أكثر ما يؤرقنا إلى الآن .. أننا لم نستطع فى ذلك الموقف الرهيب دفنهما ، لم يكن فى مقدورنا القيام بذلك ، ونحن فى عجالتنا وخوفنا .. لقد فهمنا من واقع الحالة التى كانوا عليها ، أنهم تعرضوا لجنود العدو .

كدت أقول له .. إن الشاب لم يكن ميتا فى ذلك الوقت .. وإن غيركم جاء بعدك وأنقذه ليعيش فترة قصيرة .. بيد أنى سكت فى آخر لحظة .. قد أكون واهما ، وقد لا تكون هى ، فما أكثر الحوادث المشابهة فى مثل هذه الظروف . ثم لو سُئلت عن الشاب ماذا ترانى قائلا .

واستأنف الغريب :

ـ كانت عربة أخرى قد انغرزت عجلاتها فى الرمال إلى جوار عربتنا ، بها رجل وامرأته وطفلاه .. رجوناه أن يأخذهما .. أو يأخذ الطفلة معهم على الأقل ، لوجود امرأته معه .. ونحن نقوم بمساعدة المرأة الخرساء حتى إيصالها إلى المركز الحدودى لدولة (دوعس) .

كان الرجل وامرأته أجنبيين ، وليسا من دولة (تيوك) ، ولكنهما من العاملين بها ، وقد وافقا على أخذ الطفلة بعد مضض ، بسبب معارضة الزوجة ، التى لم تكن ترغب فى حمل الطفلة ، ولا حمل المرأة الخرساء . أما الرجل فقد كان رحيمًا ، بذل جهدًا كبيرًا ليقنع زوجته .. وكان بوده أيضا لو أنه استطاع إقناع زوجته بحمل المرأة الخرساء معهم .. بذل قصارى جهده ولكنه لم يكن فى ميسوره السيطرة على زوجته ، التى ركبت رأسها ، لم أر رجلاً رحيمًا مثله ، مع صعوبة ما نحن فيه ، إلا أنه كان مستعدًا للبذل .

وبعد أن ساعد بعضنا بعضًا فى استخراج العربتين ، سرنا كل فى طريقه .. ولم نفطن إلى أن المرأة معنا ستفقد أثر الطفلة ، ولكن ليس ساعة مندم .. لقد فقدت عقلها . ليس ثمة بد مما فعلنا .. لم يكن لدينا خيار آخر .. كانت الطفلة تتضور جوعا ، وعربة الأجنبى ليس بها مكان يسع المرأة المريضة ، كما تدعى زوجته . وأظن أنه حتى لو كان هناك ثمة مكان .. فإن تلك المرأة القاسية ، تعارض حمل المرأة الخرساء معارضة شديدة خالية من الرحمة كما لو كان لها ثأر معها .. حتى أننى سمعتها تهدد زوجها بقولها .. أقسم بالله يا (ليبن) لو حملتها معنا لأنزلن أنا من العربة مع الأولاد .

فقلت دهشًا :

ــ ماذا كان اسم الرجل ؟..

فقال متسائلاً :

ــ أتعرفه ؟..

ولم تكن بى رغبة فى إطالة الحديث ، أو الشرح ، وكان كل همى رؤية المرأة التى فى العربة ، فقلت له :

ــ كلا .. ولكن اسمه بدا غريبًا على مسمعى .. وغير مألوف .

وقلت لنفسى ، ليس بمستغرب أن ترفض زوجته حمل من تظنها غريمتها .

وسمعت الرجل يقول :

ــ حرى بنا أن نقتسم العبء بعد ذلك .. بيد أننا كدنا نهلك عطشًا والمرأة المذهولة لا تقوم بحركة ما ، فقط تجلس الطفلة فى حجرها .. وهى نفسها جالسة قرب رأس الشابة الصغيرة الميتة ، متربعة على تلك الرمال الملتهبة ، دون حراك ، ودون أن تظلل نفسها بشىء أو تظلل الطفلة المسكينة ، ودون حتى أن تهدهدها ، وتسكت صراخها ، كأنها هى فى واد والطفلة فى واد آخر .. كيف يكون فى ميسورنا مساعدة طفلة فى أوائل السنة الأولى من عمرها ، مع امرأة خرساء ، ونحن لا نملك الحليب أو المئونة التى تقوم بأود الطفلة ؟..

قال ذلك كأنه يعتذر عن التفريق بينهما ، ثم استأنف ..

ــ ليت الأمر وقف عند هذا الحد .. لقد انغرزت عربتنا مجددًا ، بعد فترة قصيرة من مسيرتنا ، ثم عندما استخرجناها ، سرنا عشر ساعات ولم نصل .. أين نحن .. لا ندرى ..

يبدو أننا سرنا فى الطريق المعاكس .. لقد ضللنا فى ذلك التيه

الرملى .. لقد تبين لنا ذلك فيما بعد .. نحن الأربعة مع هذه المرأة الخرساء ، أصبحنا مهددين بالموت عطشًا .

بعد لأى ونحن نغذ السير العشوائى .. أبصرنا نقاطًا سوداء ، على مدى ما يمتد إليه بصرنا فى الأفق البعيد ، عزمنا على التوجّه إليها ، قال أحدنا إنها خيام للبدو من شعر الماعز ، وعارضه البعض منا قائلا .. ربما هى جبال ذات رمال حمراء .. تبدو لأبصارنا الكليلة أكثر اسمرارا لشدة وهج الشمس ، ونصوع الرمال من حولنا .

ليس فى ما يحيط بنا من هدف نستدل به ، غير تلك النقاط السوداء ، بعد أن انقطعت بنا كل السبل .

تمنينا فى تلك اللحظة التى تتساوى فيها الحياة بالموت ، لو أن جند العدو يعترضوننا ، ولكن لا أثر لأى أحد .

عزمنا على السير إلى تلك النقاط ، مهما يكن من أمرها ، وقررنا أن يكون سيرنا فى وضح النهار ، وإلا أضعناها هى الأخرى . فأخذنا ننام ليلا ، ونغذ السير نهارًا ، على الرغم من قسوة اللهب الذى تقذفه لنا الشمس كل ضحى .

كدنا ندفن فى تلك الكثبان أكثر من مرة .. وبعد يومين اثنين من بزوغ الشمس إلى غروبها ، وقد أمسينا أقرب إلى تمييز تلك النقاط .. صدق حدس من قال منا إنها خيام من شعر الماعز .

ونحن على ذلك القرب منها .. توقفت العربة ، وقوفًا نهائيًا .. رأت ألا نسير مقاس عجلة من عجلاتها .. لقد كسرت (الماكينة) نضوبُ الماء من الخزان ، دون أن نفطن ، وحتى لو فطنا فنحن ليس لدينا إلا ما يبل الشفاه .

ليس مهمًا ، لقد أبصر بنا القوم فجاءوا إلى نجدتنا بشهامة البدوى ومروءته .

شربنا من لبن الجمال ، وكسوا المرأة من ثياب نسائهم ، بعد أن تمزق كل ما كانت ترتديه ، ولكن لم يمر الحادث بسلام .. فقد تعرض اثنان منا لضربة شمس فتوفيا . نجا المسكينان ، من ضرب العدو ، ولم ينجوا من ضربة الشمس .

وبعد مضى أربعة أيام فى ضيافة البدو ، أقلنا أحد رجالهم بعربته إلى هنا .. إنه يعرف الطريق .. البدو يعرفون الطريق أفضل منا .

كان الرجل الغريب يتحدث ، وقلبى يغوص ويغوص ، حتى كدت أشعر بأن لا وجود له فى صدرى .. دون ريب إنها سيدتى .. ولو لم يطلب الرجل مساعدتى كان من المحتمل جدًا أن تمر ولا أراها ، بل هى مرت أمام ناظرى ، ولم أرها .

كنت أسرع الجميع فى الوصول إلى العربة ، عندما أشار إليها . كانت تستلقى على الأرضية الخلفية لصندوق الحمولة من عربة البدوى ، الذى كان يجلس أمام مقودها .

وكانت الصفائح الحديدية التى تكون ذلك الصندوق الخلفى وتغطيه من جميع جوانبه ، تحجب الرؤية .

فتحت بابه . ويالهول ما رأيت ، كانت سيدتى .. ولم تكنها ، شعرها الفاحم يعلوه البياض من جذوره .. والثياب المتسخة ليست ثيابها التى خرجت بها ، إنى أذكر ما كانت ترتديه . لقد كانت ترتدى ثوبا داكنا ، ولكنه أنيق ، يتألف من قطعتين ، وحذاء يتماشى مع لونه ، وبجوارها حقيبة يدها التى لها لون الحذاء .. أما الآن فهى حافية ، متسخة ، زائغة النظرات ، تائهة الفكر .. يبدو أنها لا تدرك ما يدور حولها ، فلم تتعرفنى .. وأنا أناديها باكيًا .

عشرة أيام فاصلة غيرتها إلى هذا الحد ؟!

صرخت منفعلا .. إنى أعرفها .. إنها سيدتى .

وكى لا أدع مجالا للشك ، جلبت أوراقها الثبوتية ، وأمام الضابط الطيب ، ادعيت أنى أعرف مكان ولدها .. كذبت ، كى آخذها معى .. ولأنى أعْرف عنده بالإنسان ، فقد سهل الأمر على .

قمت بعمل كل الإجراءات الخاصة ، التى يتطلبها موقف اللاجئين من دولة (تيوك) ، إلى دولة (دوعس) ، وانصرفت سريعا بحملى العزيز .

كنت حتى ذلك الوقت ، لم أتخذ مقرًا ثابتًا ، كنت أنام فى المركز الحدودى ، فى الأماكن المخصصة للاستراحة ، وآكل من الأماكن المتناثرة للخدمة المجانية المخصصة للاجئين .. وأستحم فى الحمامات العمومية .. أما الآن فيلزمنى مقر ، وعمل أعول به سيدتى .

تحدثت إليها طوال الوقت ، ونحن نجوب الطريق بحثا عن مأوى .. ولكنها لم ترد على .. تنظر لى صامتة .. ثم تنعس فتنام ، لم أملّ من الحديث إليها طيلة تجوالى للبحث عن منزل ، أو غرفة ، أو ملحق صغير .. أو أى شىء يصلح سكنا متواضعا يظللنا .

ولم أشعر بالتعب وهى معى ، طوال ذلك التجوال .. توقفت عددًا من المرات فى الطريق ، كى أطعمها .

وضعت اللقيمة تلو اللقيمة فى فمها العقيقى ، حدثتها فى أثناء ذلك عن ولعى بها ، بثثتها غرامى .. قصصت عليها لواعجى المكبوتة ، طوال ثلاثة عشر عاما من العذاب الصامت ، قلت لها :

ـ ليس مهمًا أن تفهمى ما أقول .. المهم لدى أن تسمعينى .. بل إن الجرأة ما كانت لتواتينى ، إلا من كونك لا تدركين ما أقول ،

ولو استعدت وعيك فسوف يصيبني الخرس مرة أخرى .. خرس ليس كخرسك الآن . خرس واع مدرك ، كونك سيدتي ، وأنا خادمك إنك الآن لست بسيدتي .. إني سيد أمرك ، وخادمك .. طويلا ما كنت أتساءل بيني وبين نفسي .. هل غرامي بك ناتج من إعجاب شديد ، جاء من جراء إحساسي بفوقيتك عليّ ؟.. كلا .. كلا .. لقد عرفت الحقيقة الآن فقط .. إنك في هذه اللحظة ، مسكينة لا حول لك ولا قوة ؛ فاقدة النطق والفهم ، ومع ذلك ؛ فإعزازي لك تفوق على كل ما أملك من مشاعر أخرى ، وإني لعلى استعداد لأن أضحي بكل ثانية بقيت لي من عمري في سبيل بسمة رضى منك. حتى وأنت لم تعودي تدركين الفارق بينك من قبل ، وبينك الآن .

إني محب لك ولوع بكل لذاتك ، بعقلك الراجح ، الذي مضى ، وجنونك الآن ، مفتتن بجمالك ، وأناقتك اللتين وليتا ، وشعثك وقبحك الحالي .. كلا .. كلا .. إني لا أراك قبيحة ، إنك أجمل نساء الأرض طرًا .

آه .. يا سيدتي لو تعين حديثي إليك .. كلا .. كلا .. ابقي كما أنت ، ربما لو استعدت ذاكرتك تتصرفين عني . ربما تعاودك كبرياؤك ، كبرياء أناس (تيوك) ، فأفقدك مرة أخرى .. لن يهمني تتحدثين أم لا تتحدثين .. تذكرتني أم لم تتذكريني .. المهم أن تبقي إلى جواري .. أخدمك وأسهر على راحتك .. آه لو تعلمين كم أنا سعيد بك .. سعادة لا سبيل إلى وصفها ، أكاد أتفجر بها .

حين حل المساء . أشفق أحد أهالي البلد المضيف للاجئين ، وهو يراني أتساءل عن مكان للإيجار . فعرض استضافتنا إلى حين إيجاد مأوى .

كنت أفضل منزلا مستقلا ، كي أصون سر ما معي ، ولكني رضخت تحت ضغط الحاجة ، ادعيت أمام مضيفي أنها أختي ، على الرغم من التباين الشديد بين ملامح كل منا والآخر .

هي مع ما يقال عن أناس (تيوك) من اسمرار البشرة ، إلا أنها أكثر بياضًا مني ، وذات ملامح رقيقة ، ورقبة زرافية ، جعداء الشعر ، وقد بان على طبيعته عندما فقد لمسة مشط الحلاق . أما أنا ، فإني أكثر ميلا إلى الاسمرار ، غليظ الملامح ، وذو شعر انسيابي .

بيد أن الرجل المضياف لم يدقق في ذلك ، بل حتى لم يطلب ما يثبت هويتنا . إنه رجل طيب ، شأن الكثيرين من أناس هذا البلد .

٢٩ / ٨ / ١٩٩٠

مضت عشرة أيام منذ عثرت على سيدتي . وأخيرًا وجدت مكانا ، استأجرته عوضًا عن بيت مضيفي .

وأخيرًا أيضًا سيظلنا بمفردنا سقف واحد دونما خشية من أحد ، إن الدنيا لا تسع سعادتي لهذا .

اقترضت من صديقي مبلغًا من المال ، ولكنه رفض إقراضي ، مالم أرهن لديه ساعة يد سيدتي ، التي كانت في معصمها طوال الوقت . ياله من جشع .. إنها ساعة غالية الثمن ، ومطعمة بالماس ، ولكن لحسن الحظ ، أنه لم يفطن لها أحد ، حتى هي لم تحاول أن تخبئها . أظن أنها لا تحس بوجودها على معصمها .

لا يهم سوف أقوم برهنها لصديقي مقابل المال الذي سيقرضني إياه . وسوف أستردها لها فيما بعد . المهم الآن أن أستقل بسيدتي .

كان بإمكاني تدبر أمر معاشنا بأحسن من هذا .. لقد قررت دولة (دوعس) ، إعطاء اللاجئين لها من دولة (تيوك) مقرًا

لسكناهم ، وصرفت لهم إعانات مالية لتدبر أمور حياتهم ، كان في إمكاني الاستفادة من هذه المزية ، لوجود سيدتي معي . بيد أني رفضت ذلك في قرارة نفسي .. إن كل همي ألا يستدل عليها أحد . أريدها أن تبقى معي ، وتحت رحمتي ، معتمدة في كل شئونها على وحدي . لن أقيد اسمها في أية هيئة ، أو أي مكان حكومي .. سأطمس هويتها .. وأدعوها لنفسي . لن أحتاج إلى أحد في أمر معاشنا .. سأبحث عن عمل حتى لو نبشت الأرض بأظفاري .. فقط أرغب بكل أمنياتي أن تكون بصحة جيدة .

١٢ / ١٢ / ١٩٩٠

انشغلت طيلة الأشهر الثلاثة الماضية ، فلم يتبق لي متسع من الوقت ، لكي أدون به ما يعن لي من خواطر ، أو ما يطرأ على من أفكار وأحداث خلال هذه المدة . إما لفرط السعادة التي تتملكني بعد زواجي من سيدتي . وإما لأشياء أخرى ، هي عبارة عن عملي الخاص لتدبر شئون حياتنا ، أو ما أمضيه من وقت طويل ، وأنا أحاول جاهدًا تشريب وتعليم سيدتي معايشة الحياة من جديد .

لقد مضى عليّ في ذلك التدريب قرابة الشهرين ، كي أساعدها على استعادة مقدرتها على النطق ، دون الاستعانة بطبيب .

هذه المهمة الشاقة التي استهلكت معظم وقتي ، كانت جانبا واحدا من جوانب التدريب الذي أمارسه عليها ، وعلى الرغم من أني لم أحصل على تقدم يذكر ، إلا أني لم أيئس أبدا .. ولم تساورني أدنى رغبة في عدم الاستمرار .

أخذت في مبدأ الأمر ألقنها اسمي ، مستخدما الثاني منه ، وليس ذلك الذي كانت تناديني به عادة في الأيام السالفة ، وذلك

كي أبعد عن ذاكرتها أيا من صور حياتها الماضية .

وذات ليلة ، وقد انتصفت ، وبعد أن أطعمتها عشاءها ، جلست بالقرب منها أمارس عليها إحدى محاولاتي لتعليمها النطق . فكنت أجذب فكها إلى أسفل ، وأحرك شفتيها بأصابعي ، ثم أريها كيف أحرك لساني ، وأنطق الحروف ثم الكلمات . طالبا منها في إصرار مجاراتي في النطق ، حتى إذا أعياني الأمر وأعجزني ، فجاة نطقت حرفا .. كان أول حرف من اسمي .

لا أظن أن أحدا يتخيل مبلغ سروري بتلك النتيجة ، بعد بذل ذلك المجهود المتواصل لمدة شهرين متتاليين . فقفزت أهلل وأرقص .

انتبهت أكثر ، وطاف على محياها طيف ابتسامة ، أو انفراج عن بعض السرور . لقد أحست أنها أرضتني وأسعدتني بشكل ما . فاجتهدت في المرة التالية .

وفي نفس الليلة وعت ما يراد منها ، فنطقت اسمي دفعة واحدة . وعندما ضممتها أقبلها ، دفعتني دون استنكار لما أفعل . كانت تلك الدفعة أول ردة فعل تصدر منها . إذ انها فاقدة القدرة أيضا على ردود الأفعال ، لا تبدي مقاومة لكل ما يفرض عليها من تصرف . كقطعة من القماش تتشكل بالوضع الذي تطوى أو تبسط به من حاملها .

عندما طلبت منها أن تردد بعض الكلمات ، مثل ماء ، دواء ، خبز .. رددتها بمنتهى اليسر .

إفراطي في السرور للنتيجة التي حصلت عليها تلك الليلة ، كانت تعكره لمحات خاطفة من القلق ، تلوح وتختفي داخل نفسي . إني غير متأكد ، ربما تستعيد ذاكرتها فتتباعد عني .

كان ثمة عاملان يتنازعاننى السعادة القلقة ، أو القلق السعيد ، لا يطغى أحدهما على الآخر أبدا . إذ إنى بقدر . ما أود أن تشفى لتزيد متعتى بها بالمشاركة الواعية المدركة . بقدر ما أخشى الألم الذى سوف يهدنى هدًا لا رحمة فيه ، فيما لو تباعدت عنى رافضة حبى ، أو حتى صحبتى .

بيد أنى مع كل هذا الصراع الناشب داخلى ، لم يجعلنى أتخلى عن رغبتى فى شفائها . وبعد استمرار لمدة ساعتين من التدريب على نطق الكلمات .. سألتها .. أتعرفين اسمك ؟..

بدا لى أنها فهمت ما أرمى إليه من الجملة ، ولكنها لا تعرف الإجابة . فنظرت لى فى استفهام ، اطمأننت إلى النتيجة التى أطلبها وأتمناها ، الشفاء مع عدم التذكر .

قلت لها إن اسمها (ميرا) . وافقت دون اعتراض ، وعند ذلك تركتها تنام بسلام ، ونمت معها بأكثر مما كنت سعادة .

فى الصباح دعوتها باسمها الجديد ، لتعاوننى فى إعداد الإفطار ، فجاءت إثر النداء . طلبت إحضار السكر ، فجلبته ، سألتها ونحن نتناول أول وجبة لنا بعد أن تكلمت ، إن كانت ترغب فى المزيد من الخبز . فردت بسلاسة .. إنها شبعت .

كنت أروم الخروج إلى عملى . نسيت أن أقول إنى عملت سائقا ، خلال هذه المدة ، عند أحد أهالى دولة (دوعس) ، ولكنى لم أتمكن حتى الآن من استرجاع ساعة يد سيدتى ، لمرتبى الضئيل ، ولكن ذلك لم يثننى عن توفير مبلغ ضئيل من مرتبى لاسترجاعها .

قلت إنى كنت أروم الخروج بيد أن رغبة ملحة للبقاء عارضت ما يتعين علىّ عمله ، لن أغادر اليوم المنزل .. إنه أول يوم لى معها ، بعد أن تكلمت .

ظللت جالسا بقربها أحاورها ، دون أن أقترب خطوة واحدة من الأحداث الجارية ، والتى كانت الدنيا بأسرها قائمة على طولها ، ولم تقعد بعد ، من جراء غزو دولة (قارع) لدولة (تيوك) .

علىّ أن أقول ، إنى لم ابتع أى وسيلة من وسائل الإعلام ، ولم يدخل الملحق الصغير الذى نسكنه التلفاز ، أو الراديو ، أو أى صحيفة بأى لغة ، ليس لأنى لا أقدر على ثمنها فحسب ، فالثمن من الممكن تدبره حتى ولو بالأقساط .. ولكن خوفا من أن يذكرها أى خبر بما هى فيه .

فى هذا اليوم الذى لم أفارقها فيه لحظة واحدة . ألفت لها حكاية عن حياتنا الماضية . فقلت لها أنها كانت مريضة بمرض عضوى ، منذ اثنى عشر عامًا ، منعها هذا المرض من القدرة على تحريك لسانها ، ومن ثم التحدث به . إنها نسيت كل شىء يتعلق بها ، وها هى الآن وقد شفيت ، وإنى مسرور لذلك .

والغريب أنها أول ما سألتنى ، سألتنى عن عمرها . كذبت ، فقلت إنها فى الرابعة والثلاثين ، إمعانا فى التضليل ، فمدت يدها إلى شعرها المبيض . فقلت :

ـ لا يهم هذا .. ثمة الكثير من الناس يشيب وهو صغير .. ثم إنه أبيض لفرط معاناتها من المرض ، وذكرت لها أننا مخطوبان منذ ثلاثة عشر عامًا ، وأن مرضها العضال عاق عملية زواجنا .. وسألتها إن كانت ترغب فى إتمام عملية الزواج بعد أن شفيت ، فلم ترد بالإيجاب ، ولم ترفض ، وكأن الأمر لا يعنيها ، أو هو سيان عندها .

فى نفس ليلة ذلك اليوم ، وبعد أن نامت ، ذهبت إلى صديقى إيّاه الذى كنت أخبئ عنده أوراقها الشخصية ، والذى يحتفظ عنده بساعتها الذهبية .

هذا الصديق كنت التقيت به صدفة فى دولة (دوعس) ، ولكنى كنت أعرفه منذ كنا ، أنا وهو فى دولة (تيوك) . كان يعمل طباخا فى أحد المنازل المجاورة لمنزلنا هناك . وكما هو الحال معه الآن إذ وجد عملا أسرع منى .

هذا الصديق ، هو الوحيد الذى ائتمنه على السر ، لأنه مواطن من مواطنى بلدى ، ثم هو كما أرى أهل لأن يؤتمن .

والسبب الحقيقى من وراء إفضائى له بشئونى ، أنه لابد للمرء من صديق يسر له . إنها حاجة إنسانية لابد من توفرها لبعض جوانب النفس .

وهكذا ائتمنت صديقى على السر أولا .. ثم بعد ذلك استعنت به على تيسير عملية زواجى من سيدتى ، بعد أن استعادت قدرتها على النطق . وأصبحت عرضة لأن تستعيد ذاكرتها فى أية لحظة .

عندما أخبرت صديقى هذا عن رغبتى فى الزواج من سيدتى . ضحك طويلا ، بل قهقه . لقد رأى أن الأمر لا يخلو من فكاهة .

بيد أنى ردعته سريعًا بقولى غاضبًا .. إنه يقدم لى إهانة حقيقية برؤيته عدم كفاءتى للزواج منها .

فسألنى على سبيل الترضية .. أترى كفاءتى للزواج من إحدى بنات سيدتى ؟..

كان شابًا يصغرنى بخمسة عشر عامًا تقريبًا .. وقد التحق بخدمة إحدى الأسر من مواطنى دولة (دوعس) ، بعد أن فقد عمله فى دولة (تيوك) . ويبدو أن منزل سيده الجديد يضم بعض الشابات .

قلت له :

ــ ماذا ترى أنت فى نفسك ؟..

فأجاب : إنى أرى أهليتى لذلك .. ولكن من يصدقنى .. أو من ذا الذى يوافقنى على هذا الرأى ؟

فقلت له :

ــ ليس مهما من يوافقك .. المهم ما تراه أنت تجاه تقييمك لنفسك واحترامك لذاتك . فهذا هو الفصل . ليس من حائل يحول بينك وبين ما تراه أنت ــ أنك كفء له ــ سوى أنك من بلد فقير تحمل وزره فوق كتفيك ، وما عدا ذلك لا شىء ، هذا هو الفارق بينك وبينهم .. هم السادة ، وأنت الخادم .. أما أنا فقد اختلف الوضع معى ، أضحيت السيد على منزلى ، ومن يضم .

فقال ضاحكا :

ــ وهل يمكن أن تقول هذا لو كانت لم تفقد ذاكرتها ؟ أو لو أن الوضع لم يتغير فى دولة (تيوك) ؟

فقلت :

ــ قد لا يكون فى ميسورى إنفاذ ما أعتزمه الآن ، للعوائق التى تحول دون ذلك ، ولكن هذا لايعنى أنى غير كفء لها .

كثيرًا ما تحول الموانع الزائفة دون تطبيق الكثير من الحقائق .. لا تنس يا صاحبى أننا جميعًا ننتمى إلى الأسرة الإنسانية .. والفارق الذى يجب أن نعتد به للتفرقة بيننا ، هو ذلك القدر من المزايا ، التى منحتها لنا إنسانيتنا وذلك القدر من المقدرة التى تمكننا من حسن التصرف بها واستغلالها . ولاتنس أيضًا أن البعض من مواطنى دولة (تيوك) الذين ألهناهم ، ليس لهم من هذا المزايا سوى الصفات التى تطلق عليها .. وأنا أرفض أن أزوج أحدهم قطة لو كانت لدى .

ضحك أيضا ، ولكنه استثنى مداريًا رأيه فيما قلت ، وقال :

ــ لا تظن أنى لست سعيدًا بزواجكما .. بل إنى لفى غاية السرور ، لسببين : أولهما لإسعادك لكونك صديقى ، ثانيهما ــ وهو الأهم ــ لكسر الحاجز الوهمى ، الذى كاد أن يودى بنا إلى عدمية الثقة بأنفسنا كبشر مساوين لهم فى العزة والكرامة ، أو كما تقول إسقاط تأليهنا لهم .

ثم تساءل :

ــ ومتى تريد الزواج منها ؟..

فطلبت منه أن يستحضر غدًا شاهدين .. وسوف نكتب ما يثبت زواجى منها .

فقال مستنكرًا .. أتروم زواجًا عرفيًا ؟..

فقلت :

ــ نعم .. الآن على الأقل ، وبعد أن تتهيأ الظروف ، نعيد تسجيله وتوثيقه بصفة رسمية .. لأنى أخشى الآن أن تستعيد ذاكرتها فيما لو ذهبنا إلى الهيئة القضائية فى هذا البلد ، بعد الأخذ والرد فى الأسئلة .. ثم لابد من إبراز أوراق ثبوتية تدل على شخصيتها .. وهنا مكمن الخطورة .. لأننا فى هذه الحالة لا نستطيع استعمال اسمها الجديد .

فرد مداعبًا .. تريد أن يكون الحدث واقعًا قبل كل شىء ..

فى اليوم التالى حضر ، ومعه اثنان من مواطنينا . فكتبت وثيقة الزواج ، وعندما نودى عليها لتوقيعها ، أمضتها باسمها الجديد ، وكان صاحبى من الذكاء ، فطلب منها أن تضع بصمة إبهامها الأيسر إلى جوار الإمضاء .

وهكذا أصبحت سيدتى زوجة لى .

٣١ / ١٢ / ١٩٩٠

مضى ما يقارب الشهر على زواجى من سيدتى ، لقد استعادت صحتها تمامًا . وعادت إلى سابق بشاشتها ما عدا بعض لمحات من الأسى ، التى كانت تكسو وجهها من حين إلى حين ، فكنت أخاف هذه اللمحات أن تكون ذكرى لشىء مضى يومض فى ذهنها ، فكنت أحاول جهدى لفت انتباهها إلى شىء آخر أشاغل به فكرها .. بيد أن وعيها أخذ فى التفتح يومًا بعد يوم ، إلى الدرجة التى بات بها يخيفنى .

طلبت منى ذات يوم جهازًا للتلفاز كى تتسلى به ، فاعتذرت لها بضيق ذات اليد، ولكنى أغرقتها بالكتب الأدبية دون الصحف ، فكنت أسأل عن الكتاب ، وبعد أن أعرف موضوعه ، وتاريخ صدوره أشتريه لها .

ولكن يبدو أن لا فائدة ، فساعة الحساب آتية ، إذ سألتنى بعد ذلك بأيام قليلة .. لماذا لا تقرأ العربية مثلى ؟..

قالت ذلك ، عندما رأتنى أحمل كتابين أحدهما بالعربية ، والآخر باللغة الأجنبية التى أجيدها . فقلت لها إن ثقافتى أجنبية ، منذ أن كنت طفلاً .. أنسيت ؟

يا للوقاحة التى أتصف بها .. كل سؤال منها أجد له جوابًا جاهزًا فى ذهنى ، وكأنه معد سلفًا ، يدفعه إلى مخيلتى إصرارى على الاحتفاظ بها ، وخوفى الشديد من فقدها .. ولكن إلى متى ؟

هذا ما يعذبنى ، ويقض مضجعى ، منغصًا زخم تلك السعادة التى تلفنى ، ما يدرينى أنها لا تستعيد ذاكرتها فى المستقبل من الأيام ؟..

ما عذرى حينذاك ؟..

وهل تغفر لى غرامى بها ، وتقبله مبررا كافيا لاستمرارى فى صحبتها فى المستقبل ؟ وإن لم تفعل ؟..

عند ذاك بعد أن أخبرها بأن دافعى إلى كل ما بدر منى شدة شغفى بها ، عند ذاك سوف أخيرها بين البقاء فى عصمتى ، أو الطلاق ، لقد بذلت أقصى ما فى وسعى للاحتفاظ بها .

لندع الأمر يرتبه القدر .. يتعين علىّ ألا أقلق ، أكثر مما أنا فيه ، ومما هو حاصل الآن ، وإلا افتقدت طعم السعادة التى تحيط بى .. يكفى أنها الآن معى تسعى بين أرجاء منزلى ، بخطواتها الرشيقة ، تدبر شئونه ، كأى ربة منزل عادية .. إنها فى منتهى النشاط ، مثلها دائما عندما كنا فى دولة (تيوك) . عندما كانت تنهض فى السادسة متلفتة حولها ، فلا تدع صغيرة أو كبيرة من أمور المنزل ، أو من أمور مكتبها التجارى ، دون أن تخصها باهتمامها .

وها هى ذى الآن فى منزلنا الصغير مثلها آنذاك ، فائقة النشاط ، منكبة على تنظيفه وتلميعه ، أو العناية بى ملبسا ومأكلا ، حتى أنى أكاد أشف لفرط النظافة .

كم أنا سعيد بها ، وأظن أنها سعيدة بى .. إنها لا تشكو ، ولا تتبرم ، دائما هادئة رزينة ، تؤدى ما عليها بإيمان كامل . وكأنها تؤدى عبادة لرب الأرباب .

١٥ / ١ / ١٩٩١

قامت الدنيا ، ولم تقعد بعد ، كما يقال فى الأمثال العربية ، العالم كله هب هبة واحدة ، لنصرة دولة (تيوك) ، وتحريرها من الغزاة ، كل دولة فى كل أنحاء المعمورة ، أدلت بدلوها فى الحل السياسى ، أو العسكرى . العالم أجمع على وجوب انسحاب

الدولة المعتدية من أراضى الدولة المغزوة .. وهدد وتوعد بحرق دولة (قارع) ومحقها من الوجود إن لم تفعل ما يأمر به المجتمع الدولى .. بات العالم بعد هذه التهديدات والتحديات أشبه بمرجل فى أعلى درجات الغليان ، دخانه يتكاثف وينعقد فوقه ، فلا يكاد يبصر ــ لفرط ظلمته ــ موطنا لتهدئته .

عساكر تفد إلى المنطقة بمئات الألوف ، طائرات شبحية تحوم ليلا خلال عتمته ، مستهدية بأشعتها الليزرية للاستدلال على طريقها .

سفن حربية وفرقاطات عملاقة تمد فوهات مدافعها المخيفة ، وأزيز لا ينقطع ليل نهار .. وإذاعات زاعقة بمختلف اللغات بتحليلات واستنتاجات وتوقعات ، وصور تلفازية ، تعرض على مدار اليوم معدات حربية واستعراضات أو تدريبات عسكرية .

دولة (دوعس) ، ودول أخرى صغيرة متاخمة لدولة (تيوك) التى ترتبط بمصير وتاريخ مشترك ، أكثر تأثرا بما أصاب الجارة العزيزة ، فهبت إلى نجدتها على قدم وساق .

استضافت اللاجئين من الدولة المنكوبة ، ولم تدع وسيلة لم تنتهجها لطرد الغزاة .

كل هذا الغليان لا يصل إلى منزلنا الهادئ ، المبعد عن الأحداث ، لكأنه فى جزيرة نائية ، لا تمت بصلة إلى ما حولها من أجزاء الأرض .

بيد أنى أفاجأ بهذا الغليان ، وكل ذلك الضجيج الإعلامى ، والاستعدادات للحرب ، عند وطئى عتبة الباب الخارجى للمنزل كل صباح . عندما يتلقفنى الشارع بما فيه من ضجيج محموم بتوقعات الحرب الوشيكة ، التى يزداد احتمال قيامها يوما بعد يوم ،

بل ساعة إثر ساعة . فيجرفنى ذلك التواتر السريع من الأخبار المثيرة ، وتجرفنى تلك الحميا التى تطبع تصرفات الناس فى هذه الأيام . إذ لا ترى أحدا يسير خارج منزله دون أن يكون معلقا مذياعا صغيرا فى يده ، أو جالسا فى عربته دون أن يكون مستمعا إلى المذياع المعلق فى لوحتها المواجهة له ، أو يكون مستقرا فى منزله بعيدا عن شاشة التلفاز ، مركزا أنظاره بانشداه على ما يعرض فيه من صور لآلات الحرب والدمار ، ومستمعا إلى ذلك الزعيق المهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، متنبئا ، أو منبئا بقرب وقوع الحرب .

وأنا طبعا لا يفوتنى كل ذلك ، فعند صديقى أشاهد الصور على التلفاز ، وفى عربتى أستمع إلى المذياع ، وألمّ بالأخبار جملة وتفصيلا ، ولكن كل هذا لا يظهر له أثر علىّ وأنا داخل منزلى الهادئ .

وسط هذه الأحداث العارمة فاجأتنى الكارثة .. إنها كارثتى الخاصة ، التى لا تشبه بأى حال كارثة المنطقة من حولى .. وقد لا تكون كارثة بمعناها المفهوم ، ولكنى رأيتها حينئذ هكذا .

التقيت بصديقى إياه .. وبينما هو يأخذ منى النقود التى أقرضنى إياها ، وأستعيد أنا منه ساعة يد سيدتى .. قال لى :

ــ كيف تعيد إليها الساعة ؟.. ألا يوحى مرآها بذكرى ما ؟..

فقلت له :

ــ سأحتفظ بها بعيدا عن موقع بصرها .. أمانة لدى ، إلى حين حاجتها إليها أو إلى ثمنها .

وطافت فى مخيلتى ذكرى بعيدة ، عندما سرقت قلادتها ، ولم يكن فى مقدورى حين ذاك ردها إليها ، فانقبض صدرى .

أخذ صديقى يضحك كعادته ، وهو لا يعلم بما فى داخلى من ذكرى مؤلمة . ثم قال :

ــ لدى خبر قد لا يسرك ..

أزعجنى قوله ، وغاظنى ضحكه ، على الرغم مما لديه من أخبار غير سارة على حد قوله ، فطلبت منه أن يعجل بما عنده ، ظانا أن لديه أخبارا سيئة ، جاءت له من بلدنا ، حول أبنائى ، أو أمهم .

ولكنه طمأننى بقوله ، إن لا أحد يأتى من بلدنا لينبئنى بشىء عما هناك فى مثل هذه الظروف الحرجة المخيفة .

وأردف .. إنما الخبر يتعلق بزوجتك ..

وضحك مرة أخرى .. وعلق .. سيدتك ..

إننى بقدر ما أكن لهذا الصديق من معزة ، إلا أننى أكره منه مثل هذا المزاح ، الذى غالبا لا يكون فى محله ، خاصة إذا ما تطرق الموضوع إلى أهل بيتى .

عقدت ما بين حاجبى ، وقلت له فى صرامة :

ــ أرجو أن تذكر ما لديك بجدية تامة .. وكفى مزاحا ..

فقال .. إنى لا أمزح .. خذ هذه الصحيفة .

وناولنى صحيفة مكتوبة باللغة الإنجليزية ، من التى نتداولها يوميًا ، وأشار إلى مربع فى إحدى صفحاتها .. وقال :

ــ اقرأ هذا الإعلان .. ولابد أن هناك ما يماثله فى الصحف العربية ..

كان الإعلان مكتوبًا وسط مربع يحدده ، فى إحدى صفحاتها الداخلية ، يطلب كاتبه فى رجاء ، ممن يعرف شيئا عن السيدة (هراس) ، أو ابنتها ، أو زوج ابنتها ، أن يقوم بالاتصال هاتفيًا

بابنها السيد (دارم) ، على هاتف (...) فى دولة مجاورة تدعى (تاراما) ، ولزيادة فى الحرص وضع المعلن الأرقام الدولية لفتح الخط الهاتفى لتلك الدولة .. وفى أسفل الإعلان عرض مكافأة مالية مجزية لمن يدله عليهم أو على واحد منهم .

طويت الصحيفة فى انزعاج كامل ، وقد خطر لى أنه ربما يقوم صاحبى بهذا الاتصال طمعًا فى تلك المكافأة .

فنظرت إليه دون أن أنبس ..

ضحك أيضًا .. ثم اعتذر عن ضحكته .. عندما رأى استدامة عبوسى .. وقال :

ـ إنى أعرف أن ليس فى الأمر ما يدعو إلى الضحك .. ثم إننى لا أسخر .. ولكن من مشاكل عاداتى أنى أضحك سواء أكنت مسرورًا ، أم حزينًا .. هى عادة غير مستحبة ، خاصة فى مواقف الألم .. أو حتى فى المواقف التى لا تستدعى الضحك بتاتًا .. أرجوك اعذرنى ، ولكن لا تنظر لى هكذا .. لست ممن يبيعون الأصدقاء من أجل مكافأة ما ، حتى لو جلّ قدرها .. بيد أنى أرى أن تبادر أنت إلى الاتصال بالسيد (دارم) وإبلاغه عن وجود والدته ، وإخباره عن أخته وزوجها وعن ضياع الطفلة .

أحسست بالاختناق . فقلت :

ـ وإن لم أفعل .. هل تقوم أنت بهذا الأمر ؟..

فقال بحزم ، دون أن يضحك هذه المرة ، وقد بان على وجهه الغضب لأول مرة أراه بمثل هذا الانفعال : إنه شأنك .. وليس من شأنى ..

فقلت :

ـ عذرًا .. لا أعنى ما تظن .. ولكن لقاءه بأمه سوف يعيد لها

ذاكرتها حتمًا ، إن لم يكن من جراء المفاجأة فسيكون من العلاج الذى سوف يخضعها له ابنها .. وحتمًا سيعمل على انتزاعها منى ..

سكت برهة ، قبل أن يحر جوابًا .. ثم قال :

ـ تريد رأيى لو كنت مكانك ؟

فلما أجبته بإيماءة من رأسى .. قال :

ـ إنها الآن زوجتك .. وليس فى مقدور أحد انتزاعها منك بالقوة القسرية لو أردت التمسك بها .. ومن الخير لك أن تعيش معها فى وضح النهار ، على أن تظل طيلة عمرك أسير الخوف والذعر .. ثم إن لم ترد هى العيش معك ، فلا موجب للاحتفاظ بحبيب لا يحبنى .. وخير لى مفارقته على إذلال نفسى له .. وعلى أيه حال فقد نلت غايتك منها بما يكفى .. وبرهنت لنفسك على أنك كفء لها ، وأنفها راغم .. وكل ما تعرضت له من إذلال كبريائها وأنت فى خدمتها عوضته بإخضاعها لك .. وأنت حر فيما تراه بعد ذلك .. ولكن هذا هو رأيى ..

فقلت :

ـ يبدو أنك لم تفهمنى .. ولا أظنك فاهمى بعد هذا الذى قلته .. إنك تنظر إلى أمر عشقى لها وزواجى منها ، نظرة لم تخطر لى على بال .. تظن أن مركب النقص وإحساسى بالدونية عنها ، هو ما دفعنى إلى عشقها ، ورغبتى فى البرهنة على مساواتى لها ، وهو ما جعلنى أتزوجها .. إن نظرتك غريبة يا أخى . لست أدرى من أين استوحيتها .. أو أى مصدر من علم النفس هداك إليها .. فى مقدورى أن أعلنك ، أنى لا أوافقك ، بل لا أومن بعلم مسمى (بعلم للنفس) .. إن النفس يا صاحبى مثل بصمة إبهام صاحبها مختلفة عن الأنفس الأخرى تمام الاختلاف .. وليس ثمة

أية نظرية حقيقية متطابقة حولها ، عدا تلك الادعاءات . إذن ليس من الميسور قياس واحدة بأخرى ، أو تطبيق أمثلة على مجموعة من الناس ، وحتى لو كان عددهم لا يزيد على اثنين فقط .

أجل .. لا (فرويد) ولا من سبقه ، أو من لحقه بقادر على سبر أغوارها .. وكل علم يدعى غير ذلك فهو هراء فى هراء .

إنك يا صديقى لو سبرت نفسى حقًا ، ربما اكتشفت حالتها المنفردة ، وهى أنها ليست على قياس أحد ، ولا تخضع لأية نظرية موضوعة .. أجل لرأيت أنى ضحيت بكل غال وعزيز من أجل البقاء بقربها فحسب ، وأمضيت جلّ عمرى فى هواها ، دون أن أعرف أن مثل هذه الفرصة سوف تتاح لى فأتزوجها .. هل كنتُ منتظرًا ضربة القدر هذه أن تحل بدولة (تيوك) ؟.. هل كنت أعلم أن ذلك الذى حدث لدولتها سيحدث ؟.. كلا يا صديقى .. لقد وطنت العزم منذ ثانى يوم وطئت به قدمى منزلها . عرفت أن بقائى بقربها سيمتد بى إلى نهاية العمر .. ولن يفرقنى عنها سوى الموت ، مالم تجبرنى قوة قسرية على البعد عنها ، وعند ذلك فقط سوف يزول من لدنى كل سبب يدعونى إلى التمسك بهذه الحياة .. والآن ، وبعد أن خدمنى القدر ، وحقق لى ما كانت أحلامى الطويلة ــ بها ــ تعجز عن مجرد تخيله .. والآن وبعد أن استتب الأمر لى يأتى من ينتزعها منى .. كلا .. كلا .. إنه كثير على قوة احتمالى .

فقال متسائلاً :

ــ ومن ذا الذى فى مقدوره أن يرغمك على تركها ؟.. إنها زوجتك يا أخى .. لا أحد فى ميسوره أخذها منك ، مالم توافق أنت على تطليقها ..

فقلت بأسى :

ــ إن ما قمت به يعد مخالفة قانونية وشرعية ، مالم تكن هى متمسكة بى ، ومقرة بأن ما جرى كان وفق رضاها ومازال .. وهذا الرضا والموافقة لا يعترف بها إلا فى حالة استعادتها لصحتها .. ومن يعلم عند ذاك ماذا سيكون عليه موقفها ، ربما ذكرت أنها كانت غير مؤهلة لإثبات قراراتها لحالتها المرضية وفقدانها للذاكرة . وإنى بهذا استغللت ما هى عليه من عدم وعى ، وتزوجتها .. أجل ألا يحتمل ذلك ؟.. إن زواجى منها باطل قانونيًا ، إن لم تؤيده هى فى حالة استعادتها لصحتها ، هذا فيما لو رضيت بى .. وهو باطل فى كل الأحوال ، إذا لم تستعد صحتها ، وعندئذ يكون فى ميسور ابنها إثبات عدم شرعية الزواج .. أرأيت يا صاحبى .. كم الوضع مخيف ومحرج أيضًا .

فقال باستغراب :

ــ وهل تريد أن تحتفظ بها حتى وإن اكتشفت أنها لا تبادلك غرامك بها ، حتى ولو بذرة منه ؟.. وأنها تعايشت معك عيشة المضطر ؟..

أجبته بعناد التيس :

ــ أفنيت عمرى فى هواها .. وأنا أعلم أن تقييمها لى حينذاك لا يزيد على تقييمها لخادم من خدمها .

فرد باستنكار :

ــ أمرك عجيب .. هذا كل ما فى وسعى إسداؤه إليك يا صاحبى .. ولكن ثمة نصيحة أخيرة ، حاول اتباع ما يرشدك إليه عقلك ، لا عاطفتك ..

عدت إلى المنزل هذا اليوم ، أشبه بمن تلقى ضربة قوية على

أم رأسه .. أرى العالم من حولى معتما برغم سطوع الشمس القوى فى دولة (دوعس) ..

ألقيت بالصحيفة على الفراش ، ثم فطنت إلى أنها ربما تقلب ما بها ، فتلحظ ذلك الإعلان . فعدت إلى التقاطها ، وخرجت مسرعا إلى الشارع ، وهناك رميت بها فى صندوق للقمامة .

وعندما عدت سألتنى :

ـ أين الصحيفة ؟.. لقد فرحت بها .. إنها أول صحيفة تدخل منزلنا ..

فقلت لها :

ـ إنها لا تفيدك ، فهى مكتوبة باللغة الإنجليزية ..

فنظرت إلى عاتبة وهى تقول .. لا يهم فى ميسورى قراءة البسيط من الجمل .. هاتها .

رددت برمًا ، لأول مرة فى حياتى معها :

ـ ومن أين آتى بها ؟.. إنها لصديقى الذى كان ينتظر خارجًا .. وقد أعطيته إياها .

عادت تلح :

ـ هل كل الصحف تكتب باللغة الإنجليزية ها هنا ؟.. لماذا لا تجلب لنا صحفا عربية ؟..

أوه .. باتت تحسن التفكير .. قلت لنفسى ذلك ، ثم رفعت صوتى كى أغلق بابًا للنقاش على وشك الانفتاح :

ـ حسن سوف أستحضر لك كل ما تريدين لاحقا .. ولكنى الآن أحس بالتعب والإرهاق . وأريد أن أنام ..

سارعت إلى جس جبينى فى حنان بالغ ، ثم ربتت على خدى ، كأنى أحد أطفالها ، وهى تقول :

ـ سوف أعد لك كوبا من الليمون ..

آه .. لو تعرف ما بى .. ربما وفرت على الكثير من القلق ..

١٦ / ١ / ١٩٩١

لم أنم ليلة البارحة .. فكرت أن لا أحد بمقدوره إجبارى لإبلاغها عن الإعلان ، أو لإبلاغ ابنها عن وجودها ، ومع هذا لم أشعر بالراحة ، ولم يعد الأمر سهلا كما فى السابق ، لقد أصبحت تلحظ الحصار المضروب حولها ، قالت لى منذ صبيحة هذا اليوم .. إنها لا تعرف ما يدور خارج المنزل .. وإنها ترغب فى الخروج هذا المساء إلى أى مكان كنوع من النزهة . اعتذرت لها بعدم توفر الوقت لدىّ ، فاقترحت أن تخرج بمفردها سيرًا على الأقدام ، ولما رفضت قابلت رفضى برفض أشد منه حول إغلاق باب المنزل بالمفتاح عندما أخرج . بيد أنى أغلقته وأنا خارج على الرغم من معارضتها ، وأنا أقسم لها أغلظ الأيمان ، بأنى سوف أصحبها فى يوم ما خارج المنزل ، فقط لتمهلنى قليلاً .

عندما عدت هذا المساء ، كانت برمة ، ويبدو على وجهها الحزن ، ثم قالت إنها فى معتقل ، وتريد أن تعرف السبب . قبلتها وحاولت أن أسرى عنها قدر طاقتى ، ولكنها لم تستجب لى .

ونحن فى خضم مشاكلنا الخاصة ، علا صوت راعد لدوى مزعج ، يرج الأعصاب رجًا . كان أول صوت نسمعه لصفارة الإنذار ينطلق من دولة (دوعس) ، يحذر من غارة ما . ثم تلاه دوى أكثر هولا منه ، ينبئ بسقوط صاروخ ما أو قنبلة شديدة الانفجار ، فى منطقة ليست بعيدة عنا بعدًا يكفى لتخفيف زوبعة من ضغط الهواء التى رجت الأبواب وأسقطت بعض الأتربة من الحوائط ، وأرقصت سعف النخلة اليتيمة وسط الفناء الصغير للملحق ، فمالت بجذعها مع انعطاف الزوبعة .

فركضت إلىّ تحتمى بى من الدوّى الهائل الذى صمّ آذاننا ، دون أن تعلم ما هو .. ضممتها وأنا أقول وقد نسيت نفسى لهول المفاجأة :

ـ لقد بدأت الحرب .. لقد بدأت الحرب .. هذه صفارة للإنذار .. لقد وقع صاروخ ، أو قنبلة ذرية .. يبدو أننا سنتعرض لهجوم هنا .. ليتنا هربنا من المنطقة برمتها .

فردت بسرعة وتلقائية .. أهو هجوم من دولة (قارع) علينا ؟.

أفلتها بسرعة .. وهى أيضا أفلتت نفسها منى .. ووقفنا قبالة بعضنا نتبادل النظرات فى دهشة بالغة . هى دهشة من نفسها ، وأنا دهش منها .

ثم قالت :

ـ أين نحن .. ألم يأت أحد إلى نجدتنا .. ليس فى مقدورنا تحمل مثل هذا القصف .

واضح أنها كانت تظن نفسها فى دولة (تيوك) .. فقلت :

ـ إننا فى دولة (دوعس) .. إنها حرب التحرير ..

فصرخت فرحة : سيتحرر بلدى .. سيتحرر بلدى ..

لست أدرى كيف أصف تلك اللحظة العصيبة ، القاسية ، المبهمة ، المتضاربة المشاعر والتوقعات . لقد استعادت فى نظرى سريعا ـ فى تلك اللحظة ـ هيبة السيدة (هراس) القديمة ، بشموخها وكبريائها .. واختفت صورة السيدة (ميرا) زوجتى المسكينة المغلوبة على أمرها .. لقد هزنى الخوف حتى النخاع ، خشيت أن تكون هى الأخرى استعادت موقعى السابق كخادم لها .

أظن أن بدنى بدا لها واضح الارتجاف ، كورقة فى مهب الريح .. إذ أمسكت بيدى بعد لحظات من توقف دوى القصف

الصاروخى ، وإطلاق صفارة الأمان ، وقادتنى إلى الحشية التى على الأرض ، والتى كنا ننام عليها ، ونجلس لتناول الطعام ، أو المسامرة ، وأجلستنى فوقها وهى تقول بصوت هادئ حنون :

ـ ما بك يا عزيزى .. أأنت خائف من القصف .. أم من شىء آخر ؟.

يالها من امرأة ذكية .. لقد استعادت مقدرتها على التفكير ، وفهمت تماما ما أصابنى ، وعرفت دوافعى إلى ذلك الهلع الشديد الذى ألمّ بى .

وقبل أن أجيب ، وفى الحقيقة لم تكن لدى أية رغبة فى الإجابة ، قالت فى نفس النبرة الحنون :

ـ لن أتركك مطلقا مهما حدث .. لقد عشت معك أياما سعيدة هانئة لا تنسى .. فقط أريد أن أعرف كل شىء .. كل شىء ..

ثم جلست إلى جانبى ، وقد أغمضت عينيها ، واعتمدت رأسها بين راحتيها ، ويبدو أن تجليات من الذكرى طافت فى ذهنها ، إذ لم تلبث حتى بكت بحرقة .. وهى تقول .. آه .. لقد ماتت العزيزة (اده) .. ولكن ماذا عن زوجها والطفلة ..

كدت أقول إن الطفلة بخير ، وإنى أعرف من أخذها ، بيد أنى أمسكت بلسانى فى آخر لحظة .

استمرت منخرطة فى بكاء مر .. كنت أتحرق شوقا إلى أن أحتضنها لكى أسرى عنها .. ولكنى لم أجرؤ .. لقد استعادت هيبتها وهيمنتها فى نظرى تماما ، على الرغم من الأسمال البالية التى ترتديها ، وعلى الرغم من مظاهر الفقر المدقع الذى يحيط بنا .

تركتها تبكى ما شاء لها البكاء .. ووقفت فى أحرج الأوقات

التى تمر بها موقفا متفرجا ، كصنم عاجز عن النطق أو الحركة . عجزت عن مد يد المساعدة حين كانت فى مسيس الحاجة إليها .. وجلست ساكنا متبلدا . حتى جاءت المبادرة منها ، عندما طرحت سؤالا عن ابنها وزوجته ..

تلقفت السؤال ، فرحا به كمعبر أخرج به من جمودى ، وقلت لفورى :

ـ اطمئنى من ناحيته .. لقد نشر إعلانا فى صحيفة يوم أمس يطلب الاستدلال عليكم .

وكأنها بلمحة خاطفة عرفت تفسير كل شىء عن سبب الحصار المضروب حولها . فقالت عاتبة :

ـ أهذا هو الذى دعاك إلى حجب الصحف عنى ؟. لماذا ؟..

لم أنبس .. لقد ضاعت منى الكلمات ومعانيها مرة أخرى .. وإنما أخذ العرق يتصبب من كافة أنحاء جسمى ، على الرغم من جو الغرفة البارد لخلوه من مدفأة فى هذا الشتاء القارس .

رفعت رأسها تتساءل مرة أخرى .. أين الصحيفة ؟..

فقلت : غدا .. غدا سوف آتى إليك بها .. سأجلب كافة الأجهزة التى تبين لك مجريات الأمور .. سوف أبتاع التلفاز والمذياع ، والصحف بأنواعها .. ستقرئين كل شىء .. كل شىء غدا ..

ونهضت مسرعا ، وكأنه لا يشغلنى سوى إحضار ساعة يدها . استخرجتها من مخبئها فى أحد جوانب صندوق ملابسى .. وقدمتها إليها شارحا :

ـ هذه ساعتك ، خبأتها كى لا توحى لك بشىء ما .. فوضعنا ونحن فى مثل هذه الحالة من الفقر لا يتناسب مع مثل هذه الساعة

الثمينة .. خبأتها لخوفى من فقدك ، ربما عندما تستعيدين ذاكرتك .

كأنى بعملى ذاك أنفى تهمة لم توجه لى ، لاحتفاظى بالساعة ، إن ذكرى سلسلتها الذهبية ، التى لم أستطع ردها لها ما زالت تطاردنى .

تناولت منى الساعة ، وألقت بها فى إهمال على حافة الحشية ، وعاودت البكاء مجددا . وبعصبية ، تغلبت على ما كنت أحاوله من ضبط انفعالاتى . قلت :

ـ لا تبكى هكذا .. أرجوك ، كل شىء ممكن إصلاحه .. على أية حال لك مطلق الحرية منذ الآن .. رتبى حياتك بملء إرادتك بما يلائمك . فى الساعة التى ترغبى فيها فى التحرر من عصمتى ، سوف ألبى طلبك على الفور .. حتى لو نزفت روحى ..

ولكنها لم ترد .. فقلت لنفسى .. يالك من غبى .. إنها تبكى ابنتها .. يبدو أنى سأفقد صوابى ، قبل أن أفقدها .

أنقذتنى بقولها .. وأين السيد (رصان) ؟..

يبدو أنها لم تتذكر بعد أنه هو الذى قتل ابنتها ، فتجنبت تذكيرها بالموضوع ، ولكنى قصصت عليها ما جرى لى معه ، وكيف التقيت به أولا .. ثم كيف التقيت بها ثانيا .. وعن فقد الطفلة (هراس) ، وأخذ الناس الأغراب لها ، وعدم معرفتى أى شىء عنها . وتجنبت أيضا ذكر أنى أهملت زوج ابنتها وهو فى نزعه الأخير .

لا أدرى لماذا أخفيت معرفتى بحكاية الطفلة ، ربما لرغبتى فى ألا يشغل اهتمامها أحد غيرى .. ووجود الطفلة معززا بوجود السيد (دارم) أشد منافسين لى يستحوذان على اهتمامها . خاصة الطفلة التى ستسعى للبحث عنها بمساعدة ابنها ، ثم إنها ستكون

ركيزة لذكرى ابنتها المتوفاة .. أوه ، حتى الطفلة أشعر بالغيرة منها !!

لم ينقطع بكاؤها طيلة الليل ، برفقة ذلك القلق المتعجل للصباح ، كى تنطلق من إسارها .

٢٠ / ١ / ١٩٩١

لتعاقب الأحداث ، وحرج الموقف الذى تستدعيه حالة الحرب . ثم استجلابى كل ما يطلعها على مجريات الأمور فى وقتنا الراهن ، هذه الأمور التى كانت بالنسبة لها جديدة كل الجدة ، ساعدت كثيرًا فى تخفيف لوعة الحزن على مقتل ابنتها .

انشغلت بتتبع أخبار الحرب ، وتتبع الأحداث وما يرافقها من تحليل وتخمين وتنبؤ بما ستكون عليه نتيجتها ، كل ذلك دون أن يكون فى مقدورها الإلمام بها دفعة واحدة ، لزخمها وتزاحمها ، ولحجب خلفيتها الطويلة عنها ، وحتى تلحق وتواكب الأحداث ، اقتضاها ذلك إجهاد فكرها بما لا يدع لها مجالا آخر للانشغال . فضلاً عن توقعها لرؤية ابنها . وهذه مشكلة أخرى أخذت من اهتمامها كل مأخذ ، بسبب ذلك القلق الرهيب ، الذى انطوت عليه روحها ، لكيفية تلقى ابنها خبر زواجها منى . إلى الدرجة التى وصل بها القلق إلى الخوف منه ، ولم يخفف ذلك القلق الرهيب فرحتها بقرب رؤيتها له .

كان السيد (دارم) قد أعطى موعدًا لوصوله من دولة (تارما) المجاورة فى حدود الساعة الحادية عشرة من هذا المساء ، مستعيرًا عربة لأحد أصدقائه ، بعد فقده لعربته على ذلك الطريق الرملى ، فى أثناء عملية الهروب ، كما ذكر لأمه على الهاتف . وذكر أيضًا أنه لا يمكنه المجىء عن طريق المطارات لإغلاقها

فى وجه الملاحة المدنية لظروف الحرب .

هذا ما عطل إسراعه بالمجىء لوالدته ، على الرغم من لهفته الشديدة .

سرنى تأخره ، ففى الأيام القليلة الماضية ، حاولت جاهدًا إصلاح موقفى أمامها من ناحية أولى ، وذلك بتبرير ما فعلته معها ، تارة بشدة شغفى وولعى بها ، وأخرى بأن الظروف هى التى حتمت عمل ما عملت .

بيد أن كل ما ظفرت به من طائل ، أنها لم توجه لى لوما ، ولكن فى نفس الآن ، لم يبدر منها ما يدل على رضائها عنى ، ويشعرنى بالراحة والأمان . كانت حيادية ، وحزينة ، وقلقة . ثم شغوفة بتتبع أخبار بلدها ، قلت لنفسى : لقد أخذتها منى أجهزة الإعلام .

فهذا أكثر ما كان يحظى بجل اهتمامها .

من ناحية أخرى ، كنت أحاول التسرية عنها ، وتخفيف ذلك القلق الذى يقض مضجعها ويتمثل لها هولاً وهى تلقى بالخبر لابنها .

وقلت لنفسى أيضًا .. لابد أن زواجى منها يعتبر غلطة فظيعة لا تغتفر لمن كان مثلها .. وأنى أنا الذى لم يعرف كيف يقوّم ويقدّر موقفا كهذا ، ربما كنت معطيًا نفسى قيمة أكثر مما هى عليه . أو ربما لاختلاف نظرتى للأمر ، إذ كل شىء بدا لى عاديًا .. أو ربما لأنى لست من أناس (تيوك) ، أولئك المتكبرين على غيرهم من أجناس البشر ، ولذا لم أشعر بالفارق العظيم فى المكانة التى يضعون فيها أنفسهم .

ولكى أريحها ، هممت بأن أقترح عليها أن نخفى خبر زواجنا

عنه . بيد أني تداركت وأحجمت عن طرح هذه الفكرة ، عندما تذكرت نصيحة صديقي بوجوب العيش في ضوء النهار .

فعدت قائلا لنفسي ، ليكن ما يكون معه .. لن أعدم الحياة من جراء غضبه . بيد أن ما يبث الرعب في نفسي فكرة احتمال ذهابها معه ، وتركي منفردا ، بعد كل هذا العناء ، وبعد أن ظفرت بها أخيرا ، حتى إنه من غير الممكن الالتحاق بخدمتها مرة أخرى ، والاكتفاء بالتمتع بقربها كما في الماضي ، وبعدما حدث ما حدث .

أوه .. كم من القلق يثقل كاهلي .

٢١ / ١ / ١٩٩١

وصل السيد (دارم) في الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء الليلة البارحة ، وهو في أشد حالات القلق على والدته وأخته .

كنت قد اقترحت عليها مسبقا ، ألا تخبره عن مصير أخته حتى يحضر . كان هدفي في الظاهر عدم إزعاجه وهو في غربته بعيدا عن والدته ، أما في باطني الذي لا يعرف عنه أحد شيئا فهو أني رأيت أن أشغل وجوده معنا بما يحزنه أكثر من حزنه على زواجي من أمه ، وبالتالي أتجنب إثارة العواصف في وجهي .

أول دخوله المنزل ، كانت له نفس الهيئة السابقة المهيمنة ، وقد استعاد رباطة جأشه خلال الشهور الماضية ، بعد ذلك الهروب المؤلم ، وقد عزز موقفه وثقته بنفسه ، قيام الحرب لتحرير وطنه ، فلم يعد ذلك اللاجئ المكسور النفس . إنه صاحب أرض يدافع عنها بماله وذراعه . فخطا إلى الداخل بشموخ ، وعاملني بتكبر ، وحياني تحية السيد لخادمه . وكنت أهم بتقبيله ولكنه اكتفى بمصافحتي فقط .

لقد نسي سريعا تلك الزمالة التي أشعرني بها في أثناء الأزمة .

دفعتني كبرياؤه هذه إلى الشماتة به ، لأني أصبحت صهرا له .. فشكرت لنفسي أني لم أقدم اقتراح إخفاء واقعة زواجي من والدته عنه

تلفت في أنحاء الغرفة المتواضعة .. ورفض أن يجلس على الحشية الملقاة على الأرض .. طالبا من أمه وهو واقف أن تنهض لمصاحبته إلى أحد الفنادق ، أو إلى منزل أخته .. وتساءل أين تقيم وزوجها ؟

بيد أنها سحبته من يده ، لكي يجلس إلى جانبها ، فجلس على مضض ، متعجلا أخذها للانصراف .. والتفت إليّ طالبا كوبا من الماء بلهجة السيد الآمر .. يبدو أنه يريد أن يخلو إلى والدته .. ولكن السيدة (هراس) سارعت إلى النهوض ، وكأنها تربأ بزوجها أن يقوم على خدمة أحد ، حتى لو كان ابنها .. وأسرعت بالإشارة لي بالتوقف عن المسير من قبل حتى أن أخطو .. وذهبت لجلب كوب الماء .

قال لي ملتفتا ، بعد مغادرتها :

ــ ما هذا ؟. هل استغللت والدتي لخدمتك ؟. أين (اده) وزوجها ؟. لم لم تقم أمي معهما ؟

تظاهرت بأني أبحث عن شيء ما في أنحاء الغرفة ، كي لا أجيب عن تساؤلاته ، حى تحضر والدته .

ناولته كوب الماء .. والتفتت لي تطلب مني في تهذيب أقرب إلى الرجاء ، الانفراد بابنها .

كان مشدوها من اللهجة الرقيقة التي أبدتها والدته ، عوضا عن الأمر المفترض أن تصدره .

وهو يلتفت إليها دهشا .. كنت خارج الغرفة ، قبل أن أسمع تساؤله .

جلست قرب الحوض الصغير للنخلة اليتيمة المغروسة فى صحن الملحق الذى نسكنه ، منتظرا ما تسفر عنه الجلسة . كان البرد قارسا ، فى مثل هذا الوقت من الليل ، وفى مثل هذا الفصل من السنة . بيد أن ارتعاشة بدنى ، وارتفاع درجة الحرارة فى دمائى ، وأنا فى انتظار ما يصدر من حكم خلال هذه الجلسة السرية ، غير العادلة ، فى أمر سعادتى ، أو شقائى ، جنبنى الشعور بالبرد القارس لذلك المناخ القارى .

قلت لنفسى أوطنها على احتمال الألم القادم .. أظنه حكم بالإعدام على حياتى الهانئة ، وذلك بعد سماعى للصوت الغاضب للسيد (دارم) يعلو على صوت أمه ، فحاولت أن أصغى ، بيد أنه لم يكن فى مقدورى أن أميز بوضوح معانى العبارات على الرغم من قرب المكان .. لقد أغلقت أذنىّ بفعل ضجيج الدم الذى يضخه قلبى الخافق بقوة وعنف . ثم بعد فترة من الإجهاد تبلدت حواسى رحمة بى .

تقرفصت قرب الحوض .. وأنا والصخر المحيط به فى حال من التشابه التام من الجمود .

نبهنى على نشيج الابن والأم معا .. أظنها الآن أخبرته عن مصير أخته وزوجها ، وعن ضياع الطفلة .. أمضيا على تلك الحال مدة طويلة ، نظرت إلى ساعتى ، إنها تقارب الثالثة من صباح اليوم التالى ، وهما فى نقاش عاصف ، وموقف متأزم يتخلله أحيانا بكاء .. تمنيت أن أشاركهما تلك الجلسة الحميمة ، بيد أنى خشية إن أنا فعلت أن أحصل على إهانة ما ، موجهة لى من السيد (دارم) لا أحتملها ، فأرد عليه ، وعند ذلك أفقد والدته .

يبدو أن سنة من النوم عصفت بى ، وأنا فى جلستى هذه ، بعد

إجهاد نهار بطوله ، صاحبته هذه الليلة التى لا تريد أن تنقضى على خير ، فلم أحس إلا ويد تربت على كتفى .. ثم تمسك بى لتقودنى إلى الفراش ، كانت خيوط الفجر الفضية قد بدأت تتسرب إلى الكون .. انتبهت كافة حواسى ، وأنا أهب واقفا ، متلفتا .. أوه .. يتعين على أن أذهب إلى العمل .

فقالت ، ليس فى مقدورك قيادة العربة بصورة مستمرة ، وأنت على مثل هذا الإجهاد .. لابد أن تأخذ قسطا من الراحة .

أغرانى صوتها الحنون بأن أتساءل .. أين السيد (دارم) .. أرجو ألا يكون غاضبا .

تجاهلت تساؤلى ، فلم تجب ، وهى تلقى باللحاف الثقيل على جسدى المرتعش ، كأنها تعوضنى بهذا الدفء عن الصقيع الذى تعرضت له فى الخارج .

فقلت قبل أن أغفو : وأنت ألا تنامين ؟..

ردت : سأنام .

ولكنها لم تفعل .. وإنما جلست عند طرف الحشية الأخر قرب رأسى ، ملتفة بشال قديم اشتريته لها من سوق للعاديات .. وبقيت شاردة .

لم أع بعد ذلك شيئا . ولم أستيقظ إلا قرب العصر ، عندما رفعت رأسى وجدتها فى مجلسها ، ولكنها منحرفة بنصف طولها على ظهر المسند شبه نائمة .

عندما رأتنى يقظا اعتدلت ، وقالت :

ــ سأعد لك الغداء ..

فقلت :

ــ هل طبخت ؟ ألم تنامى ؟.

ردت بإيجاز :

ـ نمت .. وطبخت ..

فقلت بهدف جرها إلى الحديث :

ـ ما أخبار الحرب ؟

فقالت :

ـ خشيت إيقاظك قبل أخذ كفايتك من النوم ، فلم أفتح المذياع ، أو التلفاز .. ولذا لا أعرف شيئا ..

يالها من امرأة حنون .. سحبتها من يدها ، وأجلستها إلى جانبى ، وأخذت فى تقبيلها ، كما لم أقبلها من قبل ، ودموعى تكسو وجهى وتتساقط على يديها وعنقها ، وكل ما طالته شفتى منها .. وكأن ما بى من شحنات توترية وانفعالية على مرّ السنوات الماضية ، انفجرت فجأة كالبركان .

فبكت هى الأخرى بحرقة شديدة .. ولم أدر علام كانت دموعها .. أهى من أجلى .. أو من أجل ابنتها القتيل ، أو من أجل وطنها السليب الذى اضطرها إلى الزواج منى ؟ أو كانت من أجل تعنيف ابنها لها ؟ أو قد تكون من أجل كل ذلك مجتمعا .. لست أدرى .

بعد هذا الموقف العاصف من البكاء ، الذى لم يتخلله أى حديث ، طلبت منى أن أغسل وجهى استعدادا لتناول الغداء .. وحتى تغرينى بالطعام . قالت إنها جائعة .. وإنها لم تتذوق طعاما من يوم أمس .

فرحت وأنا أجالسها على مائدتنا الصغيرة المفروشة على الأرض ، فوق قطعة مربعة من قماش النايلون .. أحسست كما لو كنت ملكت الأرض وما عليها .. يبدو أن أسوأ ما فى الأمر مرّ ، ولم يتبق سوى بعض الشكليات ..

سأستعيد هنائى فى وضح النهار .. ياللسعادة .

لم تنطق بالحديث عن ابنها ، لكأنها لم تره بعد هذا الفراق الطويل . كما أنى احترمت صمتها ، وفى نفس الآن خفت من نبش الموضوع ، أن أسمع ما لا يسرنى .

لم نكد ننهض عن مائدة غدائنا ، أو عشائنا ـ فالموعد كان بين بين ـ حتى دق جرس الباب الخارجى ، وعندئذ خمنت مع نفسى أنه السيد (دارم) ، إذ ليس من يزورنا غير صديقى ، وليس من عادته أن يأتى فى مثل هذا الوقت ، حيث لا أكون فى المنزل عادة .

عندما فتحت ، كان السيد (دارم) ، بوجهه المتجهم العابس يدفع الباب بعنف ، وكأنه يزيحنى عن طريقه .. أفسحت له ، فدخل دون أن يلقى لى بالتحية ، ودون حتى أن ينظر إلى جهتى . حالما دخل الغرفة الصغيرة ، هبت عاصفة كلامية بينه وبين والدته .

حالا قُطعت تلك العاصفة ، بصوت عاصف أشد منها ، مرعد داو ، علا على صوتيهما .. إنه صوت صفارة الإنذار .. ثم تلاه صوت أشد هولا لقصف صاروخى آخر صك آذاننا صكا .

كان هذا الصاروخ قادما من دولة (قارع) الغازية مرسلا إلى دولة (دوعس) ، نتيجة لموقفها الدفاعى عن دولة (تيوك) ، ثم بعد قليل تلاه صوت صفارة الأمان .

فعاد الصراخ فى الداخل يعلو على السكون بعد ذلك الضجيج المرعب ، وكأن الحربين فى حالة سجال وتناوب بحرب كلامية ، وحرب صاروخية .

وقفت قرب نخلة ليلة البارحة .. أتظاهر بريها وتشذيبها ، وهى

ليست بحاجة لا إلى هذا ولا إلى ذاك .. ولكن ماذا بيدى أن أفعل ، وليس فى الملحق الصغير سوى غرفة واحدة نستظل بها ؟! تذكرت المطبخ ، فذهبت إليه أعد الشاى ، لست أدرى لمن .. فأنا ليس بى رغبة لشربه ، ولن أقدمه إلى السيد (دارم) ، لكيلا يظن أنى ما زلت فى خدمته .

بعد أن عملت الشاى ألقيته فى حوض غسيل الأوانى .. إنى لم أدخل المطبخ منذ عدة أشهر مضت ، وهاهو مجىء السيد (دارم) دفعنى إلى دخوله .. ألقيت بالإناء وخرجت من المطبخ كالهارب .. لجأت إلى النخلة مجددا ، ولم أعرف ماذا أنا فاعل .. ثم ذهبت إلى الحمام ، دون حاجة منى إلى ذلك .

عزمت أخيرا على أن أدخل الغرفة وأجلس معهما ، وليكن ما يكون .. وبينما كنت أهم بذلك ، اصطدمت بالسيد (دارم) خارجًا منها خروجًا عاصفًا كما دخل .. وهو يقسم لوالدته أغلظ الأيمان . بأنه لن ينظر إلى وجهها .. وأنه سوف يقطع كل صلة له بها ، مالم تنفصل عن زوجها .. عنى ..

فى أثناء اصطدامه بى ، وأنا أهم بدخول الغرفة ، صرخ بوجهى :

ــ هل حقًا تزوجت أمى ؟! أم أسكنتها معك هكذا ..

فقلت سريعًا :

ــ معاذ الله .. كيف تفكر بمثل هذا الفكر يا بنى ..

فصرخ مرة أخرى :

ــ لست ابنك .. أرنى ما يدل على شرعية زواجكما .. ثم لماذا لا أفكر بمثل هذا ؟؟ أما كان الأجدر بك لو كنت حريصًا عليها أن تصحبها إلى السفارة (التيوكية) ها هنا ؟ أم أنك كنت تجهل أنها

ترعى مواطنيها ؟.. لماذا جعلتها تعيش معك فى فقر مدقع أيها المحتال ؟ ألكى تتزوج من سيدتك .. أخفيت أمرها كل هذه المدة لكى تحقق أغراضك ؟.

تجنبت الإجابة ، متوخيًا الحذر ، كى لا تسوء علاقتى به أكثر مما هى عليه ، وركضت إلى صندوق ملابسى ، مظهرا اهتمامى بجلب ما طلبه منى .. ومددت له يدى بالورقة .

عندما قرأها .. قال :

ــ هذه السيدة (ميرا) .. وليست والدتى ..

فقلت :

ــ لقد كانت فاقدة لذاكرتها بعد الصدمة ..

واسترسلت كاذبًا :

ــ حذرنى الأطباء من تذكيرها بأى شىء يدل على شخصيتها فى الماضى ، كى لا تزداد حدة مرضها .. قيل لى إنه يجب أن تستعيد ذاكرتها بعوامل داخلية من ذاتها ، دون ضغوط خارجية .. لهذا السبب دعوتها (ميرا) . بيد أن هنا بصمة إبهامها الأيسر الدال على شخصيتها ، بجانب توقيعها باسمها المستعار .

وأنا ألقى هذه الأكاذيب فى قولى ذاك ، لم أفكر فيما لو طالبنى بتقرير من أولئك الأطباء ، بشرح حالتها المرضية ، كما لم أفكر فى أنها تعرف حتمًا بأنى دعىّ كاذب ، حتى لم أفكر فى أنها قد لا تعذرنى لكذبى ذاك . كان كل همى مداراة الموقف المحرج الذى وجدت نفسى به . وفى نفس الآن حمدت لصديقى سرعة بديهته ، فلولاه لعجزت عن إثبات أن العقد الشرعى لزواجنا يخص والدته .

لم يمهلنى السيد (دارم) إذ صرخ بصوت منكر :

— أوه .. فهمت .. وإذن فقد استغللت فقدها للذاكرة ، استغللت حالتها المرضية لكى تورطها فى الزواج منك .

والتفت إلى والدته مسترسلا ، وهو لا يزال يزعق فى غضبه :

— لم لم تخبرينى أنك كنت فاقدة للذاكرة فى أثناء عملية الزواج هذه .. هذا الزواج التعس غير المتكافئ ؟.. إذن فهو زواج باطل .. باطل ..

لأول مرة أعرف أن أمه تقف إلى صفى .. إذ أجابت :

— لا يهم .. لقد كنت وقتها أعرف أن اسمى (ميرا) .. والاسم مهما كان ليس إلا رمزا للشخصية ، وليس الشخصية نفسها .. والرمز يمكن استبداله عندما نشاء .. وعندما وقعت على وثيقة الزواج كنت أعرف أن هذا هو الرمز الدال على شخصيتى .. وعلى أية حال ، إن بصمة إبهامى أكثر دلالة على أنه لم يجبرنى أحد على التوقيع لقد وافقت على زواجى منه بمحض إرادتى .. وهو غير باطل كما تدعى .

فقال فى هياج :

— أمى ماذا دهاك ؟ أنسيت أنه خادمك .. إنك ماكنت بحالة سليمة عندما تزوجك .. وإنه فوق كل ذلك مخادع ، إذ استغل حالتك المرضية .. أنت تعرفين أكثر منى أنه زواج باطل .. باطل ..

وأخذ فى تمزيق الورقة بحقد وضغينة إلى نتف .

ردت عليه بهدوئها المعتاد :

— مزقها كما تريد .. فى ميسورنا استبدالها بورقة أخرى أكثر رسمية ، وبالرمز المعترف به لشخصيتى .

فرد وقد كاد يفقد صوابه :

— إنه خادمك .. خادمك ..

فردت بنفس النبرة الهادئة :

— ليتك تفهم .. بل عساك تفهم ، أن الكثير من الاعتبارات التى فى أذهاننا والتى نتخذ منها أوثانا تقودنا ، أو تملى علينا تصرفنا ، لا تمثل أى جزء من الحقيقة المحضة ، التى هى ما يجب أن ترتكز عليه سلوكياتنا ، والتى فقط يتعين علينا ألا نأخذ إلا ما يخدم الحياة ، وألا نقيم وزنا إلا لما يتفق وخدمتها ، وأن نعرف أن لا شىء يفوقها ، أو يكون أكثر قيمة منها .

— وما هى الحقيقة التى تخدم الحياة فى رأيك ؟..

كانت هذه زعقة أخرى من السيد (دارم) فقالت بمرارة :

— سل أختك عنها لعلها تجيبك .. ألم تفقد حياتها لإنقاذ شرف زوجها ؟ أليست هى الضحية والفداء ؟ أليست هى التى وهبت الحياة ، لمغزى واحد ، هو الذود عن كرامة الصنم فحسب ؟ ذلك الصنم الذى يتخذ أشكالا عدة من المفاهيم حسب مقتضى الحال ، وأن خلقها جاء فى الدرجة الثانية بالنسبة لخدمة هذه المفاهيم . ولذا لا يجب حماية حياتها ، طالما أن ذلك يتعارض مع كرامة من هو فوق خلقها ، وأعلى من مستوى وجودها .

هأنت قبل لحظات سقت رجلا مجبرا إلى الكذب عليك .. ارتكب خطأ ليدارى مفهوما خاطئا ، ولكنك تؤمن به . وذلك لكى يرضيك فقط ، ويساندك فى سيرك الأعرج على طريق العميان .. إننا يابنى نتمسك بقشور الأشياء دون لبابها .

فقال السيد (دارم) وقد خفف من لهجته :

— ليس هذا رأيك دائما .. وإنما لأنك متأثرة وحزينة لمقتل أختى .. على أية حال ، لو لم يقتلها زوجها لقتلها أولئك البغاة المجرمون .

وعادت إليها نغمتها الحزينة :

ــ أوه .. لو لم يقتلها هو لقتلها أولئك المجرمون .. من أين جئت بهذه النبوءة ، وكيف آمنت بها ؟ . وأنت لا تعرف ما يمكن أن يحدث فى اللحظة التالية ؟ ألا يحتمل أن قوة معارضة أقوى منها تصدها ؟ .. ثم من جعل منا حراسا على مصائر الناس ؟ ليمت من قدر له الموت ، ولكن ليس بتدخل منا ، يجب علينا ألا ننصب أنفسنا أصحاب القرار الفصل فى سلب الحياة ، طالما نحن لا نملك القرار فى منحها .. بدد ما فى ميسورك أن تهبه ، واحفظ ما تعجز قدراتك عن إيجاده ، يجب أن تعرف أن الحياة ليس مما تملك .. هذه جزئية من الحقيقة التى تتساءل عنها .

يبدو أن زوجتى الحبيبة تذكرت مقتل ابنتها بتفاصيله . بيد أنى لم أعرف متى كانت لها هذه القدرة على التذكر .

كانت تتكلم عن ابنتها ، إلى أن غامت عيناها بالدموع .. ثم لم يسعفها النطق بغير هذه التتمة :

ــ على أية حال إنه زوجى .. وأنا أعتز وأفخر به ..

فقال الابن محنقا ، وهو يرمينى بنظرة شزراء :

ــ حسن .. لتهنئى بزوجك .. لن ترينى بعد الآن ..

وخرج صافقا الباب خلفه بعنف .

وتنفست الصعداء طويلا .

٢٥ / ٥ / ١٩٩١

وضعت الحرب أوزارها كما يقال ، منذ عدة أشهر .. إذ لم يكن فى مقدور الدولة المعتدية مقارعة العالم أجمع ، الذى هب فى وقفة واحدة ، واندفع إلى نجدة الدولة الصغيرة المسالمة ، وهكذا استعادت دولة (تيوك) استقلالها ، وطردت الغزاة .

وعدت أنا وزوجتى إلى دولتها ، ولكن ليس إلى منزلنا القديم الذى هدمته الحرب ، لقد استأجرنا منزلا صغيرا مرتبا ، يمكن إدارته دون اللجوء إلى الاستعانة بالخدم .

بيد أن السيد (دارم) لم يعد إلى زيارتنا ، أو الاتصال بنا ، منذ عدة أشهر ، أى منذ ذلك اليوم العاصف ، عندما كنا فى دولة (دوعس) هى أيضا لم تحاول الاتصال به . لكأنها تهرب من حياتها الماضية ، بكل ما فيها من أبهة ورفاهية ، وما صاحبها من ألم وخوف فيما بعد .

ربما خشيت من أن يذكرها أى شىء بمقتل ابنتها ، وضياع حفيدتها .

فى هذا اليوم أعطتنى مفتاح مكتبها التجارى ، بعد العودة ، كان هذا المكتب قد نجا بأعجوبة من التدمير ، ومن يد الغزاة الناهبة ، قائلة لى :

ــ يجب أن تدير العمل بمفردك .. وسوف يرتقى بإدارتك دون ريب .. إننى أعلم أنى التى أوقفت مسيرة حياتك نحو الارتقاء .. لإصرارك على البقاء لصيقا بى .. أما الآن فلن يحد من انطلاقتك شىء .

أما فيما يخصنى فإنى قررت البقاء فى المنزل لرعايته .

ربما عزمت على البقاء فى المنزل خجلا من الظهور معى فى المكتب كزوج لها ، والعهد ليس ببعيد عندما كنت أعمل فى نفس هذا المكتب مراسلا داخليًا ، وأحيانا فراشا .

المهم طردت من ذهنى ما يؤلمنى ، وضممتها قائلا :

ــ وأنت يتعين عليك أن تعلمى بأننا لن نستعين بخدم دائمين لخدمة المنزل .. إنه شقة صغيرة فى ميسورك إدارتها بمفردتك .

فضحكت وعلقت :

ــ أتخشى أن يحبنى الخادم الجديد ؟

ثم أسرعت إلى الأسف .. لقد أدركت بعد أن خرجت الكلمات من فمها ، كم طعنتنى فى الصميم .

فقالت ، وهى تربت على خدى كعادتها فى حنو بالغ :

ــ أقسم .. إنى لم أعن شيئا يؤذيك .. انس ما قلت :

أجبتها مكابرا ، وكأن ليس فى الأمر ما يؤلمنى :

ــ الحق لا يعدو ما ذكرت .. ولا لوم عليك فى هذا .. إذ لا يملك أحد إذا ما عايشك عن كثب إلا أن يقع صريع هواك .. فأنت جديرة بكل ما فى هذا الكون من إعزاز .

عندما خرجت من المنزل مساء هذا اليوم مجولا فى سيارتى الجديدة ، وزوجتى الحبيبة إلى جوارى .. رأينا كل ما فى المدينة بات خرابا يبابا . ينعقد دخان حرائق آبارها النفطية فى سمائها مشكلا غيوما كثيفة هابطة ، فيحيل النهار إلى ليل بغير نجوم .

تذكرت حينئذ السيدة (ليبن) ، فقلت لنفسى .. أين هم الآن .. ماذا يكون رأى زوجها بشأن ازدهار دولة (تيوك) .. وهل ترى أرضى هذا الخراب زوجته ؟

ثم خطر لى أن أستعين بزوجها فى إدارة مكتبى الجديد ، خاصة وأن لديه من الخبرة ما يعوزنى .. ثم لماذا أخافه .. وزوجتى الحبيبة قابعة فى المنزل ؟. وقررت أيضا أن أسأل عن حفيدتها ، فمما لا شك فيه أنها سوف تبعث فى نفسها السلوى ، وتشغلها داخل المنزل . ولكن يتعين علىّ قبل أن أبدأ بالحديث إليها بهذا الشأن ، شأن حفيدتها ، يتعين علىّ التأكد أولا من

سلامتها ، وإلا نكأت جراحا كادت أن تلتئم .

انتبهت إلى صمتى .. فتساءلت :

ــ بماذا أنت شارد الفكر ؟..

أجبت :

ــ لا شىء .. إنى فى عجب من تغير الأمور ..

فى هذا المساء ، وزوجتى تعد طعام العشاء فى المطبخ ، قمت بالاتصال الهاتفى بمنزل المهندس (ليبن) ، على أمل أن يكون قد عاد إلى دولة (تيوك) بعد تحريرها ، ولكن لا أحد يرد .. لابد أنهما الآن فى موطنهما .. إذ لم يعرض لهما عارض ما ، فى ذلك الطريق المهلك .. ليتنى أعرف عنوانه هناك .. لعل السيدة (هراس) تعرفه .. ولكن لا .. لا أريد أن أستعلم منها عنه .. ربما تظن أنى عاجز عن إدارة المكتب ، ولذا أريد أن أستعين به .. سأتحرى بصمت .

* * *

إلى هنا ، وانتهت هذه المذكرات ، التى سلمتنى إياها السيدة (هراس) ، كما ذكرت فى التمهيد لها ، بهدف ترجمتها ، وأقنعتها فى وقتها بأن أقوم بنشرها على أساس من الشروط التى فرضتها علىّ .

دخلت عليها هذه المرة حاملا إليها نسختها من الترجمة . كانت تجلس فى مكتبها التجارى ، فى أوج بهائها ونضارتها ، وكأن تلك الأحداث التى مرت مجرد طيف ، لم يترك له أثر على جمالها أو حيويتها ، أو حتى مجريات أمورها . على الرغم من ارتدائها لثياب الحداد السوداء ، على زوجها الخادم .. إذ لم يمهله الموت طويلا للاستمتاع بحياته الجديدة ، فتوفى قبل مضى عام واحد على تحرير دولة (تيوك) من يد الغزاة .

عندما دفعت لها بنسختها من الترجمة لكى تطلع عليها ، قبل أن أدفع بها إلى الناشر ، لكى ترى فيما إذا كان بها شيء تود حجبه .

قلت لها :

ــ فى الحقيقة لم أحذف منها سوى يوم واحد . وهو اليوم الذى جاء تاريخه ٢١ / ٨ / ١٩٩١ فى هذا اليوم ، كان المرحوم يصور به وصفا فاحشا ، وبطريقة عارية ، تلك المتعة التى حصل عليها فى ليلته الأولى معها ، وهى فاقدة الإدراك . وكان ذلك اليوم الذى جاء تاريخه عقب عثوره عليها مباشرة . وقد حذفته حتى من قبل أن تطلب منى السيدة (هراس) ذلك . على الرغم من أنى قمت بترجمته تفصيلا ، وذلك فقط لكى أطلعها عليه .

ما كادت تقرؤه ، حتى زاد إلحاحها فى طلب تأكيد منى بعدم نشره ، وقالت :

يبدو أنه على تمام الثقة بأن لا أحد من الناس سيطلع على هذه المذكرات عندما دون أوصاف هذه الليلة التى لا أذكرها .

طمأنت السيدة (هراس) . وقلت لها إنى قررت إسقاط هذا اليوم دون الحاجة إلى تأكيد منك وذلك حفاظا على الآداب العامة ..

ثم سألتها وأنا أعتذر لها عن اقتحامى لأحد خصوصياتها ، فيما إذا كانت تعلم أن زوجها الثانى كان مغرمًا بها منذ أن كان خادمًا لديها .

فقالت بصراحة تامة :

ــ كنت أعرف ذلك منذ أن قرأت الجزء الأول من مذكراته ، التى قمت بترجمتها ونشرها ، فرصدت سلوكياته داخل المنزل ، وعندئذ تأكد لى ما جاء بها ، بيد أنى كنت حريصة أشد الحرص

على ألا ألفت نظر زوجى الأول إلى تلك المذكرات ، وساعدتك دون أن تعلم فى التعتيم عليها ، وذلك كى لا يطرده .. قد تستكثر منى هذا الفعل .. ولكن فى الحقيقة أنى أنا نفسى لا أعرف لماذا .. قد يكون اتجاها ساديًا فى فكرى ، فى أن أرى رجلا يتعذب من أجلى ، دون أن يكون فى ميسوره أن يفصح عما فى صدره .. كما أنه ليس مما ورد إلى خاطرى إطلاقا أى احتمال لزواجى منه .. أو أن أدع له فرصة ولو بحجم ثقب إبرة لتسريب جزء من مشاعره أمامى .

ولكن ماذا تقول فى أمر رتبه القدر ؟. هذا هو منطق الحرب وما تصنعه من متغيرات . وما جرى لى لا يعد غريبًا بالقياس إلى أشياء أخرى ، وإذ بات الكثير من وجهات النظر المتوازية حول العديد من الأمور ، والتى لا يتفق عليها اثنان . باتت متداخلة ، ومعتادًا عليها .. وعلى أية حال ، فأنا لست نادمة ولا أسيفة على زواجى منه . لقد عشت معه أحلى الأيام التى مرت بى . على الرغم من حالة الإدقاع التى كنا نعانيها .. ومن أعجب الأمور أيضًا ، أنى لم أكن أعرف عن هذا الجزء الثانى من المذكرت إلا بعد وفاته ، إذ لم يخطر لى ببال أنه عاد إلى كتابة المذكرات بعد ذلك الموقف الذى حدث له معك ، عند إيجاد الجزء الأول منها .

وجدتها وأنا أرتب حاجياته بعد وفاته ، لقد كان حريصًا على إخفائها عنى وعن الجميع .

فقلت جادًا :

ــ على أية حال .. لقد كافأه القدر على صبره وإخلاصه قبل أن يموت .. ثم ليس فى زواجك منه ما يدعو إلى الأسف .. كلنا

أناس نمثل الإنسانية .. وما خدمة بعضنا لبعض إلا لتفاوت حظوظنا في هذه الحياة .. حتما إنه رجل كفء وجدير بالاحترام ، وفوق ذلك فهو عبقري وإلا لم يكن في مقدوره إنتاج مثل هذه المذكرات ، التي سوف تخلده .. فليرحمه الله .

[تمت بحمد الله]

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

مذكرات خادم

طيبة أحمد الإبراهيم

رائدة أدب الخيال العلمى فى الخليج ، طيبة أحمد الإبراهيم ، تقدم رواية (مذكرات خادم) بجزأيها الأول والثانى ، بفنية عالية التكتيك . تعتبر إضافة جديدة إلى رصيدها الأدبى المتميز ، معتبرة أن الجذوة الإنسانية المحتمة التى تجمع بين البشر ، وتجعله متميزًا عن غيره من الحيوانات . هى الركيزة الأساسية لما يجب أن تبنى عليه العلاقات بين الناس ، وأن عليهم إدراك أبعادها ، ليلغ كل من نفسه أى اعتبارات مفتعلة لإقامة حواجز وهمية بينه وبين فئات أخرى من بنى جنسه . يظن خطأ أن له الأفضلية عليها لما يتمتع به من مزايا مادية أو مهنية ، وما يستتبع ذلك من إمتاع نفسه بكبرياء جوفاء لاتستند إلى عوامل تمايز حقيقية .

ورواية (مذكرات خادم) نموذجًا لهذا المفهوم . فالرابطة الإنسانية المشتركة بين الخادم وسيدته ، لاتعترف قط بأية تفرقة - تجلى ذلك من جانب الخادم - لذا لم تكبح مشاعره ، أو يحجم نموها تجاه (مخدومته) ، لأن تلك المشاعر أعتى من أن تطمسها ، أو تشتتها العقبات المقامة ضده ، والتى ليس له دخل بها ، ولذا أيضًا فإنه لم ير فى نفسه سوى أنه إنسان أولا وأخيرًا ، بغض النظر عما يقوم به من عمل . ولذلك فقد تصامم عن كل مايردعه عما يبتغيه . فهل حقق بما رآه من قيمة لنفسه ، ماصبا إليه ؟

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع